

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

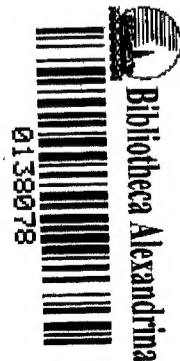
تأليف

الدكتور
يسري عبد الفتاح يسري
الدرس بجامعة الأزهر

الجزء الأول

مكتبة وهيب

٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠



جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الهيئة العامة للكتبة الأسكندرية
رقم التسجيل ٧٨١ - ٩٥٢
رقم التسجيل ١٨٧٤٢

تأليف

الدكتور

بسيوني محمد الفلاح بسيوني
الدرس بجامعة الأزهر



General Library of the Azhar
(Bibliotheca Alexandrina)

مكتبة وهيب

٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله تعالى وأصلى وأسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه إلى يوم الدين ...
أما بعد :

فهذا هو الجزء الأول من كتاب « علم المعاني » دراسة بلاغية ونقدية .
وقد خصصته لدراسة أجزاء الجملة ، فبدأته بتمهيد تناول الحديث عن النظم وصياغة الجملة وما وراء ذلك من اعتبارات وملاحظات ... كما تناول بيان مفهوم الفصاحة والبلاغة ... ثم أتبعته بفصول الكتاب الأربعة وهي :

الفصل الأول : أحوال الإسناد الخبري .

الفصل الثاني : أحوال المسند إليه .

الفصل الثالث : أحوال المسند .

الفصل الرابع : أحوال متعلقات الفعل .

وسيتلوه الجزء الثاني بمشيئة الله تعالى والذي خصصته لدراسة الجملة وإرتباطها بغيرها من الجمل ... فالله عز وجل أسأل أن ينفع به وأن يحوزنا خير الجزاء وهو الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

بسميوني عبد الفتاح بسميوني

عيزة - القصيم السعودية

في ١٧ رمضان سنة ١٤٠٦ هـ

تخصيص

اللفظ والمعنى والنظم : الألفاظ قوالب للمعاني ، إذ الكلام يتكون من لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما فاعظم ، وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى الدارسين منذ القدم ، واختلفت وجهة نظرهم في رجوع المزبلة ، فترى الجاحظ يتحدث عن اللفظ والمعنى في مواضع كثيرة من كتابه : « البيان والتبيين » ، والذي لا يعم النظر في كلام الجاحظ. يتوهم أنه قد فضل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ ، انظر إلى قوله : « ثم اعلم - حفظك الله - أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوسة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة معدودة » (١) ، تجده قد جعل المعاني مبسوسة ممتدة ، والألفاظ التي هي أسماء المعاني معدودة معدودة ، فهل قدم المعاني هنا على الألفاظ ؟ ، لو كان الأمر كذلك ، فمكيف يقول في موضع آخر : « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير . » (٢) إنك تشعر هنا بأنه يقدم اللفظ على المعنى ، وليس الأمر كذلك ، فالذي أراه ، أن الجاحظ لم يقدم اللفظ على المعنى هنا ولا المعاني على الألفاظ هناك . وإنما رجوع المزبلة للنظم ، وجعل التفاضل به . تأمل قوله : « إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ . وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير ، فهو يريد بذلك النظم لا الألفاظ المجردة . وهو عندما جعل المعاني مطروحة ، أراد المعاني العامة التي هي كأغراض

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٦ .

(٢) الحيوان ٣ / ١٣١ .

الشعر ، وعندما جعلها ممتدة وبسطة أراد المعاني المركبة ، المعاني الخاصة المتبعثة من النظم الجيد والتراكيب الرفيعة ، وعندما جعل الالفاظ محصوره محدودة ، أراد الالفاظ المجردة لا المنظومة ، إذا الجاحظ لم يقدم لا اللفظ ولا المعنى ، وإنما رجع الزية إلى النظم ، فينبغي على الدارس أن يعرف الفروق الدقيقة التي تكمن وراء النظم ، إذ به يفضل الكلام الكلام ويتقدم عليه ، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه . وللجاحظ كتاب في النظم سماه : نظم القرآن ، ولكنه فقد ضمن ما فقد من تراث المسلمين ، ونرى الجاحظ يشير إليه في كثير من كتاباته في البيان والتبيين وغيره ، ويحيل عليه في كثير من الأمور والقضايا .

فما هو النظم إذا الذي رجع الجاحظ إليه المازية ؟ إنه ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة . وهذه الطريقة المخصوصة تكون بالإبدال الذي تختص به الكلمات ، أو التقديم والتأخير الذي تختص به مواقع الكلمات أو الحركات التي تختص بالإعراب (١) .

وقد أفاد الإمام عبد القاهر من إشارات القاضي عبد الجبار وكتابات الجاحظ ، فشرح نظرية النظم وحمل الشواهد الكثيرة التي يتضح فيها مفهوم النظم .

يرى الشيخ عبد القاهر : أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلاماً في أى غرض ، يبدأ فيرتب المعاني في نفسه أولاً ويبدل جهداً في ترتيبها ، ثم يحذو على ترتيبها الالفاظ ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق ، ويفرق عبد القاهر بين حروف منظومة وكلم منظوم ، وذلك أن نظم الحروف هو أواليها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من

(١) انظر ثلثي ١٦ / ١٥٩ وما بعدها .

العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال : د ربض ، مكان : د ضرب ، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد . أما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك ؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني فترتب ألفاظ الكلام على حسب ترتيب المعاني في النفس ^(١) .

فالمعاني التي يتعلق بها الفكر والتي ترتب ألفاظها على حسب ترتيبها في النفس ، إنما هي معاني النحو ، وليست المعاني اللغوية المفردات .

يقول عبد القاهر : د واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه د علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تدخل بشيء منها وذلك أنا لا تعلم شيئاً ببنية النظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق . وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني زيد مسرعاً وجاءني يسرع وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع وجاءني وقد أسرع ، فيعرف السك من ذلك موضعه ويحيط به حيث ينبغي له ، وينظر في الحروف التي اشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في المعنى فيضع كلاماً من ذلك في خاص معناه ، نحو أن يؤني بما في نفي الحال وبلا إذا أراد نفي الاستقبال ، وإن فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون وإذا فيما علم أنه كائن . وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل ، موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الغاء من موضع مع ثم ، وموضع أو من موضع أم ، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف في التعريف والتوكيد والتقديم والتأخير في الكلام وفي الحذف والتكرار

والإظهار والإضمار فيضع كلام من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له .

هذا هو البيل فلمست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظام ، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصبحت به موضعه ووضعيته في حقه أو عرمل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد ، أو وصف بمزبة وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة ، وذلك الفساد ، وتلك المزبة وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه ،^(١) . ثم يأخذ بعد ذلك في عرض الشواهد التي يتضح فيها ما ذكره محالاً لتلك الشواهد ، ومبرزاً لموضع الحسن أو الفساد فيها ، فيعرض لقوله تعالى :
(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِمِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٢) قائلاً : . هل تشك إذا فكرت في هذه الآية فتجنى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لاسر يرجع إلى ارتباط هذه الكلام بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن نستقرها إلى آخرها ، وأن الفضل حصل من مجموعها ، وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية ؟ ... قل : د ابلعي ، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم

في أن كان النداء د بيا ، دون د أي ، نحو د يا أبته الأرض ، ثم إضافة الماء إلى السكاف دون أن يقال : د ابلعي الماء ، ثم أن نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها أتبع نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : د وغيض الماء . فجاء الفعل على صيغة « فِعل » الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر و قدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو : « واستوت على الجودي » ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة « فِعل » في الخاتمة « بقيل » في الفاتحة . . . أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملأوك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس . من أقطارها تعلقا باللفظ . من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق ؛ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق الميجيب . فقد اتضح إذا انضاحاً لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفرد ؛ وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، (١) .

ويستمر عبد القاهر في سوق الشواهد فيقول : « وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تزوفاً وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتهى وجمعت من الإصغاء ليتاً وأخذها
وبيت البحترى :

ولانى وإن بلغتني شرف العنى وأعتقت من رق المطامع أخدعى
فإنك تجد لها في هذين المكانين مالا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها في بيت أبى تمام :

يا دهر قوم من أخذ عيك فقد - أضججت هذا الأنام من مخرمك
فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضغاف ما وجدت
هناك من الروح والخفة والبهجة والإيناس ، ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء»
فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع آخر ،
وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :
ومن مالى عينيه من شيء غيره إذ أراح نحو الجرة البيضاء كالدهمى
وإلى قول أبي حية النيرى :
إدأما تقاضى المرء يوم وإيالة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا
فإنك تعرف حسنهما ومكاهما من القبول . ثم انظر إليهما في بيت المتنبي :
لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لموته شيء عن الدوران
فإنك تراها آتلة وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم ، (١) .
وهكذا يستمر عبد القاهر فى عرض العديد من شواهد النظام الردى
والآخر الجيد ، فن الأول .

قول الفرزدق :
وما مثله فى الناس إلا علكا أبو أمه حتى أبوه بقة-أربه
وقول المتنبي :
ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السبوف عوامل
وقول أبى تمام :
ثانيه فى كبد السماء ولم يكن كائنين ثان إذ هما فى الغار

ودن الثاني :

قول إبراهيم بن العباس الصولي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات :
 فاولاذ بها دهر وانكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير
 تكون عن الأهو اذ دارى بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور
 ولاني لأرجو بعد هذا محمدا لأفضل ما يرجى أخ وزير
 وقول البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى فالإن رأينا لفتح ضريبا
 هو المرء أبدت له الحادنا ت عواما وشيكا ورأيا صليبا
 تنقل في خلقى سودد سماجا مرجى وباسا مهبيا
 فكاسيف إن جثته صارخا وكالبحر إن جثته مستثيبا
 وقول كثير عزة :

فلما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح
 وشدت على دهم المطايا رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو راتح
 أخذنا باطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح
 إلى غير ذلك من الشواهد متى يعرض لها عبد القاهر محلا لها ومبرزا
 لما فيها من جمال مرده إلى النظم ومعرفة ماله من رسوم ومناهج ، أو من قبح
 وعيب مردها إلى الخروج عن رسوم النظم ومناهجه ، (١) .

ثم يأخذ عبد القاهر بعد أن وضع نظرية النظم وحال العديد من شواهدا ،
 وبين ما ينبغى على البليغ أن يلتزم به في بناء جملة وعند صياغة عباراته ...
 يأخذ بعد ذلك في بيان قوانين النحو وأصوله ومناهجه التى ينبغى على الناظم
 أن يضع كلامه الوضع الذى يقتضيها ، فلا ينبغي عنها ولا يحد .. وهى تشمل
 كل أبواب علم المعانى التى منعرض لها أصول هذا الكتاب إن شاء الله ...

• • •

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٢٠ وما بعدها .

مفهوم الفصاحة والبلاغة :

الفصاحة في اللغة معناها الظهور والبيان ، يقال : يوم مفصح لا غيم فيه ولا قر ، وأفصح اللب وفصح ، ذهب عنه الرغوة ، قال نضلة السلمي :

... وتحت الرغوة اللب الفصيح ...

ويقال أفصححت الشاة والناقة : خلص لبنها ، وأفصح الصبح : بدا ضوؤه واستبان ... ويقال : رجل فصيح ، وامرأة فصيحة ، وقوم فصحاء وكلام فصيح ، أى : بليغ .. ولسان فصيح أى طلق وأفصح الرجل عن الشيء إفصاحا ، إذا بينه وكشفه ، ويقال أفصح أى : ازداد فصاحة واستعمل الفصاحة ، أو تكلف الفصاحة وتشبه بالفصحاء .. والفصيح : المنطلق للسان في القول الذى يعرف جيد الكلام من رديئه .. قال الله عز وجل (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)^(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : أنا أفصح العرب بيدا أنى من قریش ، ... فمعنى الفصاحة في الآية والحديث : الظهور والبيان^(٢) .

والبلاغة في اللغة تعنى : الانتهاء والوصول وتعنى أيضا الفصاحة وحسن الكلام ... يقال : باع الشيء ببلغه وبلغا وبلاغا : وصل وانتهى إلى مراده .. والبلاغ : ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب .. والبلاغة : الفصاحة . ورجل بليغ وبلغ وبلغ : حسن الكلام ، فصيح به يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ، واجمع : بلغاه ، وقد بلغ بلاغة : صار بليغا^(٣) .

قال الله عز وجل : (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)^(٤) ، ذهب الزمخشري إلى أن القول البليغ : المؤثر في قلوبهم ، فيغتمون به اغتاما ،

(٢) انظر لسان العرب مادة فصح

(١) سورة القصص ٣٤

(٤) سورة النساء ٦٣

(٣) انظر لسان العرب مادة بلغ

ويستشعر، وقد من الحروف استشعارا . . . (١).

وبهذا يتضح لنا أن مفهوم الفصاحة في اللغة ، لا يختلف عن مفهوم البلاغة فمما مترادفان والمقصود منهما : الظهور والبيان والانتباه إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البليغ المؤثر ، والتعبير الحسن الفصيح . . . ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف أصلهما ، لأن المراد بكل منهما : الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه .

ويرى البعض أن الفصاحة تمام آلة البيان ، فهي تختلف عن البلاغة ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، أما البلاغة فتتعلق بالمعنى دون اللفظ ، إذ المراد منها : إنهاء المعنى إلى القلب . . . وقد اختار المتأخرون هذا الرأي . فقالوا الفصاحة تقع وصفا للكلمة وللإكلام والمتكلم ، فيقال : كلمة فصيحة ، وكلام فصيح ، ومتكلم فصيح . . . أما البلاغة فتقع وصفا للإكلام والمتكلم ، فيقال : كلام بليغ ، ومتكلم بليغ ، ولا تقع وصفا للكلمة ، فلا يقال : كلمة بليغة ، ثم راحوا يفسرون ذلك على النحو الآتي :

فصاحة الكلمة :

الكلمة الفصيحة هي الكلمة التي تخلو من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي أو الصرف ، ومن الكرامة في السمع .

تنافر الحروف : وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة نطق اللسان بها ، وهذا التنافر قد يكون شديدا متناهيا في الثقل كما في قول الأعرابي عندما سئل عن ناقته : تركتها ترعى الهنخع ، فالكلمة «الهنخع» كلمة شديدة الثقل على الأذن ، شديدة الصعوبة في اللسان وقد قالوا : إنها اسم شجر من المذاق كريه الرائحة ، كأنه هذه الكلمة التي لا يطاق النطق بها . .

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ٤٠٧

وقيل إنها كلمة للمعاينة لا أصل لها وهم كثيراً ما يختارون كلمات للمعاينة ،
ومثلها كلمة : : العجيق ، و : والظش ، و : والشصاصاء ، ونحو ذلك ، وقد
يسكون التنافر خفيفاً والثقل ضئيلاً ، كما في قول امرئ القيس :

و فرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشك
غداة مستشزرات إلى الملا تفضل المبادري في مثني ومرسل^(١)

فكلمة : مستشزرات ، كلمة ثقيلة في السمع ، يكثر اللسان عند النطق بها ،
ولكن نقلاً أقل من ثقل : المجمع ، .

ومثله قول المتنبي :

إن السكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداوانها^(٢)

فكلمة : سويداوانها ، كلمة ثقيلة على اللسان ، وقد نشأ هذا الثقل من
طول الكلمة ، كما نشأ الثقل في كلمة : مستشزرات ، من طولها أيضاً ومن
توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء الشديدة والزات المجهورة . ومع كل
فالثقل في الكلمتين أقل من الثقل في كلمة : المجمع ، .

ويرجع البلاغيون السبب في تنافر الحروف ونقلها في الأذن واللسان
إلى قرب مخارج الحروف أو بعدها بعداً شديداً وقالوا : إن البعد الشديد
بين مخارج الحروف يسكون بمنزلة الطفر ، والقرب الشديد بينهما يسكون
بمنزلة مشي المقيد الذي يشقله القيد ، والعرب قد بنيت لغتهم على الخفة ، ولذا

(١) الفرع : الشعر ، ويغشى : يغطي . والمتن : الظهر ، والأثيث : الكثير
الشعر ، وقنو النخلة : عنقودها ، والمتعشك : المتراكم ، والندائر : الدواب ،
ومستشزرات : مرتفعات ، والمداري : جمع مدرى ، وهي الأمشاط ، والمثني :
للثقل ، وللارسال : غير المقتول .

(٢) المعنى : إن السكرام من الخيل إذا لم يسكن عليها فرسان كرماء من هؤلاء
المدوحين سارت كالقلب بلا سويداء .

رأيانهم يعمدون إلى إدغام المثلين والمتقاربين نحو ردومد وشد واضطر ، وإلى الإبدال في نمو : اضطبر ، وذلك دفعا للثقل . ومع أنه لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من أثر في ثقل الكلمة وخفتها إلا أنه ينبغي أن يكون المعول عليه في ذلك هو الذوق الصحيح فنحن نرى الكلمة قد تألفت من حروف متقاربة وليست ثقلة نحو قوله تعالى :
(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ)^(١) . فلا ثقل في كلمة : ، أعهد ، مع قرب مخرج الهمزة والعين والهاء . وكما في قولنا ، ذقته بنفسي ، ، فالباء والقاف والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها ، فكأن قرب مخارج الحروف أو تباعدها موجبا للثقل والتأخر ، ليس مطردا ، ولذا كان المعول عليه هو الذوق السليم ، والحس الصادق . هذا وثقل الكلمة في النطق ليس معيبا في جميع الأحوال وعلى الإطلاق ، بل إذا ائتضاد المقام كان من أهم مظاهر فصاحة الكلمة ، ولذا لا أجد عيبا في كلمة : مستشزرات ، في بيت امرئ القيس لأنها لا امت المقام ، حيث يصف شعرا كثيفا غزيرا قد تراكم وصار كقنور الفخلة المتعشك ، ولو قال : ، مرتفعات ، لاخل بما يقتضيه السياق ويتلاءم مع الالفاظ التي وصف بها الشعر . كما لا أرى عيبا في قول أبي تمام :
قدقات لما اطلختم الأمر وانيمت عشواه نالية غبسا دها ريسا^(٢)

لأن الثقل في كلمة : اطلختم ، يتلاءم مع البتة والظلام والدواهي التي يصورها البيت ، فنبغى أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعى وذوق لأن هناك كلمات ثقلة على اللسان ، وليكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها ، من حيث أن هذا الثقل يصور معناها بحق ، انظر إلى كلمة :

(١) سورة يس الآية ٦٠

(٢) اطلختم الأمر : اشتد ، والعشواه : لثافة لا تبصر ، غبسا : الظلام شديد ، والداهريس : الدواهي .

« اناقلتم » ، في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اناقلتم إلى الأرض)^(١) .

تجد فيها قدرا من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم ونشاكلهم وخلودهم
إلى الأرض ، واستشعارهم مشقة الجهاد ، وعزوف أرواحهم عنه ، وقد دعوا
إليه في عام الحسرة ، فكان منهم ما وصفت الآية ، ولذا جاء التهديد البالغ
ليواجه تحاذل أرواحهم ، فقال سبحانه وتعالى (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا)^(٢) .

وخذ قوله تعالى يحكى مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه : (قَالَ
يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)^(٣) ،
وتأمل كلمة « أنلزمكموها » ، وما فيها من صعوبة في النطق تحكى صعوبة الإلزام
بالآيات وهم لها كارهون ، وانظر إلى كلمة « فعميت » ، وما فيها من الإدغام
والجهول ، وكيف يصفان معنى التعمية والإلباس ،^(٤) .

والغرابية : أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فتحتاج في معرفتها
إلى النظر والتنقيب عنها في كتب اللغة المبسطة ، والمراجع في ذلك إلى العرب
الخالص ، فلا يعول على غيرهم من المحدثين الذين ظهروا بعد فساد اللغة وضعف
السليقة ، ولذا قيد التنقيب عن تلك الكلمات الغريبة بكونه في كتب اللغة
المبسطة التي حوت كلمات قد ماتت وصارت غير مستعملة عند الفصحاء من
الخالص ، كما في الألفاظ : دزجون واسفنط وخندريس ، التي تطلق على

(٢) سورة التوبة آية ٣٩

(١) سورة التوبة آية ٣٨

(٤) خصائص الغراكيب ص ٢٣

(٣) - سورة هود الآية ٢٨

الخمر ، و دندوكس وهرماس ، على الأسد ، و د الحاقد ، على سى ، الخلق ،
و د الطرموق ، على الطين ، و د الاستمصال ، على الإسمال و د الإطرغشاش ،
و د الإبرغشاش ، على الشفاء و د الابتشاك ، على الكذب .

يقول الشاعر :

وما أرضى لمقاتته بحلم إذا انتهت توهمه ابتشاكاً

وكما فى قول عيسى بن عمرو النحوى لآناس قد تجمعوا حوله عندما سقط
عن حمارة : د مالكم تسكاً كأنتم على تسكاً كؤمكم على ذى جنة ، أفر نفعوا عنى ،
فقد ألقى د تسكاً كأ ، على الاجتماع ، و د أفر نفع ، على التمتع والابتعاد ،
وهو يهدف بتخير ما تين الكلمتين الغريبتين ، المزاح وبتداعية من اجتمعوا
حوله ، ولذا قالوا : دعوه فإن شيطاناً يتكلم بالهندية ... فمثل هذه الكلمات
لا نراها إلا فى كتب اللغة المطولة ، ولا نجد لها مستعملة على لسان النخلص ،
ولذا عدت غريبة ومثلة بالفصاحة .

ولا يجوز أن نطلق على ما خفي علينا معناه من النظم الكريم وأحاديث
الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشعار الفحول من الشعراء ، بأنه غريب ومنافى
للفصاحة ، لأن الذى يعتمد به ويعول عليه فى ذلك - كما قالت - إنما هم العرب
النخلص الذين سلبت سلاقتهم ، ولم تفسد طباعهم ... ولا تبعده عن الصواب
إذا قلنا إن الغرابة نوعان : نوع فصيح وهو تلك الألفاظ المستعملة التى
سجرت على ألسنة النخلص والفحول ، وإن خفي علينا معناها وغض ...
ومن هذا النوع غريب القرآن والحديث ، ونوع معيب نخل بالفصاحة وهو
تلك الألفاظ التى أهملها النخلص وهجرها الفصحاء فلم يستعملوها ، وبقيت فى
بطون أمهات كتب اللغة المطولة ، على نحو ما شاهدنا فى الأمثلة ...

وذكر البلاغيون أن الكلمة تعد غريبة كذلك ، غرابة نخل بفصاحتها ،

إذا احتملت معنيين ، واحتار السامع في فهم المعنى المراد لعدم وجود القرينة التي تعينه وتحدده كما في قول رؤبة بن العجاج :

أَيَّامُ أَبَدَتْ وَأَضْجَا مُفْلَجَا أَغْرَّ بَرَّاقَا وَطَرَفَا أَبْرَجَا
وَمَقَلَّةٌ وَحَاجِبَا مَزْجَجَا وَفَاحَا وَمَرْسِنَا مُسَرَّجَا^(١)

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله : « مسرجاً » ، حتى اختلفوا في تخرجه ، فقليل لأنه أراد أن يشبه أنفها بالسيف في الدقة والاستواء . وعليه فمسرجاً نسبة إلى سريج الذي اشتهر بصناعة السورف ، ونسبت إليه فسميت سورفاً سرجية . . . وقيل لأنه أراد أن يشبه أنفها بالسراج في البريق واللمعان . فمسرجاً ، في البيت نسبة إلى تسراج الماضي ، من قولهم : سرج وجهه أى : حسن ، وسرج الله وجهه أى : حسنه ربهجه ، والاشتقاق من الاسم الجامد على جهة التشبيه وارد في كلام العرب كما في قولهم :

وَبُرُودٌ مُدَنَّرَاتٌ وَقَزٌّ وَهُلَاءٌ مِنْ أَعْتَقِ السَّكَنَانِ

أى : وبرود وشيها كالدنانير ، فاشتق من الدنانير « مدنرات » ، على جهة التشبيه بها . . .

ومخالفة القياس : أن تأتي الكلمة غير جارية على قوانين اللغة وقواعد الصرف ، كما في قول أبي عباد :
يَشُقُّ عَلَيْهِ الرِّيحُ كُلَّ عَشِيَةٍ جِيُوبِ الْغَمَامِ بَيْنَ بَكْرٍ وَأَيْمٍ

فقد استعمل « الأيم » ، في مكان « الشيب » ، والأيم من لزوج لها ولو كانت بكراً . . . وكحذف النون من سكن في قول النجاشي :

(١) مفلجاً : الفلج تباعد ما بين الأسنان ، والأغر : الأبيض ، والطرف : العين ، وأبرجاً : البرج عظم العين وحسنها ، ومزججاً : مدقناً ، وفاحاً : شعراً أسود كأنهم . ومرسناً : اسم لحل الرمن من البعير وإطلاقه على أنف الإنسان من باب المجاز المرسل . .

فلست بآتيه ولا أستطيعه

ولاك أسقى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد ولكن أسقى .. وكملك الإدغام في قول أبي النجم:

الحمد لله العلى الأجل الوهاب الفضل الكريم المجزول

وكقول الآخر:

مهلا أعاذل قد جربت من خاق

أنى أجود لأقوام وإن كنت منتوا

فقد فك الإدغام في كلمتي: الأجل، ودعوتوا، وقوانين اللغة توجب إدغام المثلين .. وكصيغة أفعال التفضيل من: أعمل فعلاء، في قوله:

: لانت أسود في عيني من الظلم ..

حيث استعمل أفعال التفضيل من وزن: أعمل، الذى مؤنثه: فعلاء، أسود وسوداء - وهذا لا يتم إلا بمساعد كان يقال: لانت أشد سوداً ..

ويستثنى من مخالفة القياس، ما ثبت استعماله لدى العرب، فهو فصيح وإن جاء مخالفاً لقوانين اللغة أو قواعد الصرف، فمن ذلك إبدال الهاء همزة في كلمتي دآل، ودما، إذ أصلهما: أهل وموه، وإبدال الهاء همزة في الكلمتين. وإن كان على خلاف القياس، إلا أنه ثبت استعماله لدى العرب وورد عنهم، فهو فصيح وإن خالف القياس .. ومنه: أبى يابى، بفتح عين المضارع فالقياس أن: فعل، بفتح العين لا يأتى مضارعه على: يفعل، بالفتح إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامه من حروف الحلق مثل: ذهب، وسأل وسبى ونفع ونشع، فجىء المضارع من: أبى، على وزن: يابى، بالفتح وليست عين ماضيه ولا لامه من حروف الحلق مخالفاً للقياس،

ولكن قد ثبت استعماله وررد عن العرب فهو فصيح وإن خالف القياس
قال تعالى: (وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ) ^(١)، ومنه عَوَّرَ يَعْوَرُ، واسْتَعْوَذَ
يَسْتَعْوِذُ، فالقياس: عار يعار، واستعاذ يستعيد، بقلب الواو ألفا
لتحركها وانفتاح ما قبلها، أو ياء لتحركها وكسر ما قبلها في « يستعيد »،
ولكن هذه الأفعال وردت بالواو واستعملها العرب بدون إعلال، قال
عز وجل: (اسْتَعْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ) ^(٢)، فهي
فصيحة وإن خالفت القياس.

والكرامة في السمع أن تبرأ الأذن من سماع الكلمة، ولا تقبلها
لجيتها غير ملائمة للسياق الذي قيلت فيه، ولو كانت هذه الكلمة فصيحة في حد
ذاتها، كما في قول أبي الطيب المتنبى:

مبارك الامم أغر اللقب كريم الجرشي شريف المنسب ^(٣)

فكلمة « الجرشي »، نابأها الأذن في هذا سياق وتنفرد من سماعها، لأن
المقام مقام مدح. ومقام المدح هنا في هذا البيت ثلاثة الكلمات العذبة الخفيفة
التي تتلأم مع بقية الألفاظ المذكورة وتمضي معها في تناسق تام. . . ولو كان
المقام مقام هجاء لما نفرت الأذن من سماع هذه الكلمة، ولو قيل في مقام
ذم: لثيم الجرشي قبيح النسب، لاستساغت الأذن ذلك ولم تنفرد من قبول
كلمة « الجرشي » . . . وبهذا يتضح أن كرامة الكلمة في السمع يتوقف على
المقام وسياقات الكلام فما تذكره الأذن في موضع ونابأ سماعه قد تستسيغه
ونميل إليه وتلد سماعه في سياق آخر.

(١) سورة التوبة آية ٣٢ (٢) سورة المجادلة آية ١٩.

(٣) الجرشي: النفس، والأغر: اسلمه الأبيض الجبهة من الخيل وإطلاق على الأبيض
من كل شيء، واللقب: مادل على مدح كثرين العابدين أو ذم كأنف النافذة وقد مدح
سيف الدولة بهذا لأن اسمه « عني » ولقبه « سيف الدولة »، وهما مما يمدح به.

فصاحة الكلام :

أما فصاحة الكلام فهي خلوصه من تنافر كلماته ، ومن ضعف التأليف ، والتعقيد اللفظي والمعنوي ، وكثرة التكرار وتتابع الإضافات ، بالإضافة إلى تحقق فصاحة مقدراته التي يتألف منها .

فتنافر الكلمات : أن تكون يتأليفها ونظمها الذي سلمت فيه ثقلية على اللسان ، يتمسر النطق بها ، وإن كانت كل كلمة فصيحة بانفرادها عن هذا النظم المتنافر . كما في قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفسر وليس قرب قبر حرب قبر

فالنظر الثاني من هذا البيت شديد الثقل على اللسان لا يستطيع أن ينطق به ثلاث مرات متتاليات دون أن يتمثر ويختل ، وقد زعموا أن قائل البيت جنى ، صاح به على حرب بن أمية في فلاة فأت بها . ومرجع الثقل والتنافر إلى النظم الذي عليه البيت ، فلو جردت الكلمات من نظمها لصارت فصيحة ، خالية من الثقل . قرب . حرب . قبر .

ومنه قول أبي تمام :

والمجد لا يرضى بأن نرضى بأن يرضى امرؤ يرجوك إلا بالرضا

. وقول المتنبي :

فقلقلتم باطهم الذي قلقل الحشا قلقل عيس كلمن قلقل (١)

ومنه قول الآخر :

فلم يضرها والحمد لله شيء وانثنت نحو عزف نفس دهل

(١) قلقلتم : حركت ، وقلقل الأولى جمع قلقل وهي الناقة السريعة وقلقل الثانية جمع قلقة وهي الحركة .

فألفاظ النصف الثاني من البيت - كما يقول الجاحظ - يتبرأ بعضها من بعض ، ويرجع ذلك إلى سوء النظم الذي سلكته فيه ، وقول أبي تمام :
كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

فالتنافر الذى نراه فى قوله : أمدحه أمدحه ، قد نتج عن تكرار اللفظ وهو أقل من التنافر الذى لمسناه فى الأبيات قبله ، وما يحمد للشاعر فى هذا البيت ، لإشارته التعبير باللوم فى قوله (لمته) ، دون (الهجاء) المقابل للمديح ، فهو يفيد أن الممدوح ربما يلام على شئ وقع منه عفو ، ولكنه لا يفعل ما يستحق عليه الهجاء . ولكنه يؤخذ على الشاعر إدخاله (إذا) التى تفيد تحقق الوقوع على اللوم ، ولو عبر (بأن) دون (إذا) لكان أولى وأبلغ فى المديح .

ومنه قول الآخر :

وازور من كان له رائراً وعاف عافى العرف عرفانه

ففى الشطر الثانى تنافر لا يخفى بين السكلمات مرجعه إلى تأليفها ونظمها الذى وضعت فيه ، والسكلمات فى حد ذاتها فصيحة لا تنافر بين حروفها .

وضعف التأليف : أن يكون الكلام جارياً على خلاف طريقة العرب فى التعبير والقول ، مخالفاً لقوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحاة ، أما إذا خالف الكلام ما اتفق عليه النحاة وأجمعوا عليه ، كجر الفاعل ورفع المفعول ونصب المجرور أو رفعه . فليس الكلام عندئذ مخالفاً بالفصاحة فقط ، بل هو فاسد وغير عربى ، لا يسمح به ولا يقال ، فضعف التأليف المحل بفصاحة الكلام ، بجىء التأليف على خلاف ما اشتهر بين جمهور النحاة ، وليس على خلاف ما اتفقوا عليه . من ذلك عرد الضمير على متأخر فى اللفظ والرتبة كما فى قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - :

فلو أن مجرداً يخلد الدهر واحداً من الناس أبقى مجده الدهر مطعماً (١)
فالضمير في (مجده) يعود إلى المفعول به (مطعماً) وهو متأخر في
اللفظ. وفي الرتبة . وكما في قول زهير :

إن تلق يوماً على علاقته هرماً تلق السباحة منه والندى خالفاً (٢)
فالضمير في (علاقته) يعود إلى المفعول (هرماً) المتأخر في اللفظ. وفي
الرتبة ... وقول الآخر :

جزى ربه عني عدى بن حاتم جزاء الكلاب الماءيات وقد فعل (٣)
فالضمير في (ربه) يعود إلى (عدى) المتأخر لفظاً ورتبة لأنه مفعول
به . والقاعدة المشهورة بين النحاة أن يعود الضمير على متقدم في اللفظ
والرتبة أو في الرتبة دون اللفظ. أو في اللفظ دون الرتبة ، ولا يعود إلى
متأخر في اللفظ. والرتبة معاً . وقد أجاز ذلك بعضهم كابن جني وابن مالك
وغيرهما . ومنه وقوع الضمير المتصل بعد إلا كما في قول الشاعر :
وما علينا إذا ما كنت جارتنا ألا يحاورنا إلاك ديار
وقول الآخر :

ليس إلاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول
ومنه حذف أداة النصب (أن) مع بقاء عملها . كما في قول طرفة :
ألا أهبذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت بخلدى
والقاعدة المشهورة تمنع وقوع الضمير المتصل بعد إلا ، وتمنع حذف
أداة النصب مع بقاء عملها إلا في المواضع المعروفة .

(١) مطعم : هو مطعم بن عدى أحد رؤساء مكة وكان يدافع عن النبي صلى الله
عليه وسلم ضد المشركين .

(٢) على علاقته : على قلة مال وعدمه .

(٣) جزاء الكلاب للماءيات : أى الضرب بالحجارة ، دعاء عليه بهذا .

والتعقيد : أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد به ،
فيحتاج إلى إعمال فكر وكد الذهن وإزالة النظر والتأمل حتى نقف على المعنى
المراد . والعربي يكره الغموض المؤدى إلى اللبس . ويجب الوضوح والظهور
فن أقوالهم : خير الكلام ، ما كان معناه إلى قلبك أسيق من لفظه إلى سمعك
ولا يعنى ذلك أنهم يكرهون لطافة المعنى ودقته ، كيف وهم يرون أن المعنى
إذا نيل بعد طلب له وكد وإعمال فكر يكون أوقع في النفس وأشد
تأثيرا ؟ ولكن فرق بين إعمال فكر لا يشمر وهو ما كان مرجعه إلى غموض
المعنى وتعقيد : وبين إعمال فكر يشمر وهو ما كان مرجعه إلى دقة المعنى
ولطافته .

والتعقيد إما أن يكون تعقيدا لفظيا وإما أن يكون تعقيدا معنويا .
فالتعقيد اللفظي : ما كان سببه اختلال نظم الكلام بالتقديم والتأخير
بين أجزائه ، فلا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه . كما في قول
الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا ملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

فالمعنى الذي يريد الفرزدق : وما مثله في الناس أحد يشبهه في الفضائل
إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك ، كان ينبغي أن يكون ترتيب أجزاء البيت :
وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا ملكا . أبو أمه أبوه . فالضمير في «أمه» المملك
وفي «أبوه» المدوح وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ، خال هشام
ابن عبد الملك بن مروان وقد قدم الفرزدق وآخر بين أجزاء البيت ، ففصل
بين المبتدأ والخبر بأجنبي ، وفصل بين النعت والمنعوت كذلك ، وقدم المستثنى
على المستثنى منه . فصار البيت في غاية التعقيد ، ولعل الفرزدق كان يقصد
بهذا الصنيع التبرك بالمدوح والاستخفاف به ، وهذا لا يبعد إذا علمنا ولاه
الفرزدق للملويين وعداءه لبني أمية والمدوح منهم .

ومثله قول الفرزدق أيضا :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

يريد : إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب ، أى : ما أمه منهم .

وقول أبى تمام :

ثانيه فى كعبد السماء ولم يكن كائنين ثان إذ هما فى الغار

يريد : أنه لم يكن كئنائى اثنين .

وقول ذى الرمة :

كان أصوات من إغالهن بنا أواخر الميس إنقاض الفراريج

يريد : كان أصوات أواخر الميس إنقاض الفراريج من إغالهن بنا .

وقول الآخر يصف دارا بالية :

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفرا رسوما قفلا

يريد : فأصبحت قفراً بعد بهجتها كأن قفرا رسوما

هذا والتقديم والتأخير بين اجزاء الكلام إنما يؤدي إلى التعقيد إذا

انعدمت القرينة الدالة التى تعين المعنى وتحدد المراد من الكلام كما فى المواضع

المذكورة . أما إذا قامت القرينة الدالة على المراد ، فعندئذ لا يؤدي التقديم

إلى التعقيد والغموض ، بل يكون من أسباب حسن المعنى وجماله . وداعيان

دواعى فصاحتة وبلاغته .

والتعقيد المعنوي : ما كان سببه احتلال المعنى وذلك بالابكون انتفال

الذهن من المعنى الاصلى للتركيب إلى المعنى المقصود منه ظاهراً بينا . كما فى قول

العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

نقد كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق والبعد من الحزن والام للفراق

الاحبة . وقد أصاب ، أحسن لأن البكاء يستلزم الحزن والأسى ، ويدل عليه دلالة بيّنة حيث جرى علم السنتهم ، فقالوا : أبكاني وأضحكنى أى ساءنى وسرنى . وقال الخامى :

أبكاني الدهر وبأربما أضحكى الدهر بما يرمى

كنى بأبكاء الدهر إياه عن إساءته له وبأضحكا كنه عن فرحه وسروره . فدلالة البكاء على الحزن والألم والأسى ، دلالة ظاهرة بيّنة ، وردت في كلام العرب وجرت على ألسنتهم ، ثم كنى ابن الأحنف بحمود العينين عما بوجبه دوام التلاقي والقرب من الفرح والسرور ، وقد أخطأ في هذا وأساء ، حيث اعتقد أن الجود هو خلو العين من البكاء . مطلقا دون اعتبار شيء آخر ، لكنهم أطلقوه على خلوها منه عند إرادته وطأه . فكأنهم يحمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وقت الحزن والأسى كما في قول الخنساء :

أعني جودا ولا تحمدا ألا تبكيان لصخر الندى

وقول الآخر :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك محارى دمعها لجود

فقد كنى بحمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وطأه . منها لشدة الحزن والأسى ، فهم عين جود أى : لاخير فيها ، كما قالوا : سنة جواد . أى : لا مطر فيها . وفاقه جواد : لا لبن فيها ولو كان الجود يصلح أن يراد به عدم البكاء في حال الفرح والمسرّة ، لجاز أن يدعى به للرجل فيقال : لا زالت عينك جامدة ، كما يقال . ولا أبكى الله عينك ، فالكلام الخالي من التعقيد المعنوى ، ينتقل فيه الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المجازى أو السكتائى المراد في وضوح ودون خفاء لظهور العلاقة بين المعنيين وجريان الاستعمال على لسان العرب ، ووفق عاداتهم وعرفهم وطرائقهم في التعبير ، كما في السكتاية بكثرة الرماد ، وجفن السكب ، وهزال الفصيل وإشعال النار في الأماكن

العالية عن السكرم . أما إذا جاء الكلام على خلاف ما عرف عن العرب . وعلى خلاف ما قد استعملوه وجرى على ألسنتهم ، فعندئذ يصعب فهم المراد ويتعذر على الذهن الوقوف على مرمى الكلام والمقصود منه ، فيوصف بالتعقيد المعنوي . كما في بيت ابن الأحنف وكما في بيت أبي تمام :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت

لهما وشحا جالت عليها الخلاخل

فقد كنى عن دقة الخصر وضمور البطن ، بجولان الخلاخل عليها لو اتخذتها وشاحاً . فأخطأ وأساء . لأن جولان الخلاخل المتخذة وشاحاً ، يدل على بلوغها غاية القصر ، ولا يدل على الدقة والضمور ، إذا الوشاح ما يضرب للبرأة من العاتق إلى الكشح ، فالعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد غير ظاهرة ، وانتقال الذهن من الممكن به إلى الممكن عنه . يشوبه كثير من الكدرة وعدم الصحة .

أما كثرة التكرار وتتابع الإضافات : فلا يخلان بفصاحة الكلام ، إلا إذا كانا ثقيلين في السمع وعلى اللسان ، ولذا فهما يرجعان إلى تنافر الكلام فن كثرة التكرار المستكره في الأذن ، قول المتنبي :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد^(١)

حيث كرر الضمير في : د لها منها عليها . ومن تتابع الإضافات الثقيل على اللسان والأذن ، قول ابن بابك :

حمامة جرعاً حومة الجندل اسجعى

فلنت بمراى من سعاد ومسمع^(٢)

(١) الغمرة : الشدة . والسبوح : الفرس السريعة . والشواهد : العلامات .

(٢) جرعاً : مؤنث الأجرع وهو المسكان ذو الرمل لا ينبت شيئاً . وحومة الشيء : معظفه ، والجندل : الحجارة . واسجعى : غفى ، وسجع الحمام : هديره .

فالآذن تنفر من كثرة الإضافات في : دحامة جرعاً حومة الجندل ، ،
واللسان يستثقل النطق بها . أما إذالم تؤد كثرة التكرار ، ولا تتابع الإضافات
إلى الثقل ، فلا يخلان عندئذ بفصاحة الكلام . وكما في قول الله عز وجل :
(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)^(١) ، وقوله تعالى : (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ ،)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَأَنْفُسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهُمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا)^(٣) وكما في قوله عليه الصلاة والسلام : د الكريم ابن الكريم ابن
الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

فالآذن لا تحس ثقلاً واللسان لا يجد صعوبة نطق بما في الآيات الكريمة
والحديث الشريف من كثرة التكرار وتتابع الإضافات . . . وكما في قول
ابن المعتز :

وظلت تدير الراح أيدي جآذر

عتاق دنائير الوجوه ملاح^(٤)

وقول الخالدي :

وصيرني القريض وزان^٥ د غار المعاني الدقاق^(٥) منتقد^(٥)

فالإضافات المتتابة في البيت الأول : د عتاق دنائير الوجوه ، ، وفي

(١) سورة مريم آية ٢

(٢) سورة غافر آية ٣١

(٣) سورة الشمس آية ٧ ، ٨

(٤) الراح : الحمار ، والجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية وعتاق .

جمع عتيق بمعنى كريم ، وإضافة دنائير إلى الوجوه من إضافة المشبه به إلى المشبه .

(٥) الصيرني : المحال في الأمور ، والقريض : الشعر ، والمنتقد : الحبير بالتمييز بين

جيد الأشياء ورديتها .

البيت الثاني: «وزان دينار المعاني» ، لاثقل فيها على الأذن ولا صعبوبة على اللسان في النطق بها .

فصاحة المتكلم :

أما فصاحة المتكلم فهي ملكة تتكون لديه ويكتسبها بكثرة المران والتدريب وقراءة التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة ، وحفظ كثير من الأشعار والنثر حفظاً دقيقاً واعياً متأملاً وقبل هذا وبعده حفظ كتاب الله عز وجل وحديث النبي صلى الله عليه وسلم والتفقه فيهما . وبذلك تكون تلك الملكة يستطيع المتكلم أن يعبر عما يريد عما يقصد بلفظ فصيح . ويرصف هذا المتكلم بالفصاحة فيقال له : متكلم فصيح .

بلاغة الكلام :

ذكر البلاغون المتقدمون لتعريف البلاغة أقوالاً متعددة منها قول معاوية لصحار العبدى : ما البلاغة ؟ فقال : البلاغة ؟ الإيجاز ، قال وما الإيجاز ؟ فقال صحار : أن نجيب فلا تبطل ، ونقول فلا تخطئ^(١) . وسئل ابن المقفع ما البلاغة ؟ فقال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً . ومنها ما يكون سجماً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعمامة ما يكون من هذه الأبواب ، الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ، وأما الخطب بين السماطين ، وفي إصلاح ذات البين ، فالإكثار في غير خطب ، والإطالة في غير إملال ، وليمكن في صدر كلامك دليل على حاجتك . قيل فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف ، قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي

(١) انظر «بيان والتبيين» ٩٦/١

يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوقي الكلام ، فلا يتم لنا
فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنهما لا يرضيهما : (١) .

وقالوا : البلاغة لمحة دالة . والبلاغة معرفة الفصل والوصل . والبلاغة
اختيار الكلام وتصحيح الأقسام . والبلاغة إجماع اللفظ وإشباع المعنى .
وبلاغة ، كلمة تكشف عن البقية . والبلاغة حسن العبارة وصحة الدلالة والبلاغة
القدرة على البيان مع حسن النظام .

أما المتأخرون فقد عرفوا البلاغة تعريفاً يقرب مما ذكره ابن المقفع
حيث قالوا : بلاغة الكلام هي مطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته .

والمراد بالحال : الأمر الداعي للتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما
ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية التي اعتبرها المتكلم في كلامه . ومطابقة
الكلام لمقتضى الحال : هي مجيء الكلام مشتملاً على تلك الخصوصية التي
انتضاهما الحال ، فمثلاً إذا كان هناك من يذكر قيام زيد ، فهذا الإنكار حال
يقتضى أن يؤكّد المتكلم كلامه فيقول : إن زيدا لفائم ، ومجيء الكلام مؤكّداً
هو مطابقة لمقتضى الحال .

وإذا كان هناك إنسان عظيم نبيه الشأن جليل القدر وأردت أن تتحدث
عنه فإنك تقول : هذا هو الرجل فمظم هذا الرجل ونباهة شأنه وجلالة قدره
حال يقتضى تعريفه بالآلاف واللام ، ومجيء الكلام معرفاً هو مصابغة
لمقتضى الحال . وعلى العكس يقال للحقير : أهذا رجل ؟

فالحقارة حال . والتذكير منتهضه ، ومجيء الكلام منكرًا هو مطابقة
لمقتضى الحال . وهكذا يختلف الكلام تبعاً لاختلاف الأحوال ، فقام التألم
أو الخوف يقتضى الإيجاز ، إذ المتألم تكفيه الكلمة ، والخائف تفتنيه الإشارة

ومقام الأناشيد والنثاء يقتضى الإغناء ، لأن الأناشيد يحتاج إلى الإسهاب وإطالة القول . والبلاغة أن يأتي الكلام مطابقا للحال التى يأتى فيها ، وأن تتحقق فصاحة كلامه وتراكيبه . فإن طابق الكلام مقتضى الحال ولم يكن فصيحاً ، لا يعد بليغاً ، وكذا إن كان الكلام فصيحاً ولم يطابق مقتضى الحال ، فليس من البلاغة .

هذا ويندكر البلاغيون أن البلاغة تتفاوت تبعاً لوفاء الكلام بخصائص تراكيبه ومقتضيات أحواله . فالرمانى يجعل البلاغة ثلاث طبقات : علمياً ووسطى ودنياً . فالعلمية هى بلاغة القرآن الكريم والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغة البلغاء من البشر . والقزوينى يجعل للبلاغة طرفين أعلى إليه تنهى وهو حد الإعجاز وما يقرب منه ، وطرفاً أسفل منه تبتدىء وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب ، وبين الطرفين مراتب كثيرة متفارقة حسب تفاوت البلغاء فى التعبير والوفاء بمقتضيات الأحوال .

بلاغة المتكلم :

أما بلاغة المتكلم فهى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، وتلك الملكة تتكون لديه بكثرة المراتب والقراءة ومعايشة التراكيب الجيدة والتعبيرات الرفيعة وتأملها تأملاً راعياً وإدراكها إدراكاً تاماً . يضاف إلى هذا أن يكون ذلك المتكلم ذا طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار وتوليد المعانى ، عندئذ يستحق أن يوصف بالبلاغة ، فيقال له : متكلم بليغ . وبهذا يتضح أن بلاغة المتكلم لا تختلف عن فصاحته .

هذا ولا تقع البلاغة وصفاً للكلمة المفردة - كما ذكرنا - إلا إذا أريد بالكلمة الكلام المركب ، فتوصف بالبلاغة على هذا الاعتبار ويقال كلمة بليغة ، لأن المراد بالكلمة عندئذ : الكلام المركب كالخطبة أو القصيدة أو

أو الجملة أو الجمل ، وليس المراد بها ، اللفظ المفرد ، ، وقد أطلقت الكلمة على الكلام ، كما في قوله تعالى : (قَالَ : رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) (١) .

علم المعاني ومباحثه :

عرف البلاغيون علم المعاني بقولهم : « هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال ، » .

و اللفظ العربي ، يشمل اللفظ المفرد واللفظ المركب أي الجملة وأجزاءها فأحوال الجملة : الإسناد الخبري والإنشاء وأسلوب القصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة ، وأحوال أجزاء الجملة : أي المسند والمسند إليه ، ومعلقات الفعل ، كالتعريف والتفكيك والحذف والذكر والتقديم والتأخير والإظهار والإضمار وغير ذلك . فعلم المعاني يبحث في تلك الأحوال ، وكيف تأتي مطابقة لمقتضى حال المخاطب . أي أنه يبحث في بناء الجملة العربية صياغتها . اختيار أجزائها . علاقة الجمل المتتابعة بعضها ببعض . اختيار نوع الكلام الملائم لمقتضى حال المخاطب ؛ خيرا أو إنشأ ، إيجازا أو إطفا أو مساواة . ولذا فإن مباحثه تنحصر فيما يلي :

١ — أحوال الإسناد الخبري .

٢ — أحوال المسند إليه .

٣ — أحوال المسند ،

٤ — أحوال متعلقات الفعل .

٥ — أساليب القصر .

٦ — أساليب الإنشاء .

٧ - مواضع الفصل والوصل .

٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة .

وعلم النحو وإن كان قد تعرض لدراسة هذه الأحوال فدرس أحوال
المسند إليه من حذف وذكر وتقديم وتأخير وتنكير وتعريف وكذا أحوال
المسند والمتعلقات والخصر وغير ذلك ... إلا أن دراسته لها تختلف عن
دراسة البلاغيين ، فالنحوي يدرس هذه الأحوال من حيث الجواز والوجوب
والامتناع ، أى : من حيث الحكم وإمكان الاستعمال . أما البلاغى فيدرس
الأسرار الحكامنة وراء هذه الأحوال ، لأنه يتناولها من حيث كونها مطلبا
بلاغيا يقتضيه المقام ويدعو إليه حال مخاطب .

الفرق بين الخبر والإنشاء :

يتنوع الكلام إلى نوعين : خبر وإنشاء .

فالخبر هو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته ، نحو قولنا :
« جاء زيد » ، فهذه الجملة أفادت نسبة المجئ إلى زيد والحكم به عليه . فإن
وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقا ووصف الكلام بالصدق وإن خالفه كان
الخبر كاذبا ووصف الكلام بالكذب ... وكذا قولنا « ما جاء زيد » أفاد نفي
المجئ عن زيد ، فإن وافق ذلك الواقع وصف الكلام بالصدق ، وإن خالفه
وصف بالكذب ... وفى بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب ،
أو بالكذب فقط ، ولكن هذا ليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبرى
ولمّا باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق الجملة تؤيد صدقه أو كذبه ...
فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله جل وعلا ،
وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هى أخبار بصرف النظر عن
قائلها ... وقول اليهود : عزير بن الله ، وقول النصارى : المسيح بن الله ، كلام

لا يَحْتَمِلُ إلا الكذب . لأن الواقع يكذبه ويبطله ، وإن كانت تحتل الصدق والكذب من حيث هي أخبار . . . فوصف الخبر بالصدق فقط أو بالكذب فقط ، إنما هو باعتبار أسباب خارجة عن نطاق العبارات - كما قلت - وليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري . .

أما الإنشاء فالهدف منه والمقصد لإيجاد الشيء وإنشاؤه ابتداءً ولذا عرفوه بأنه : قول لا يَحْتَمِلُ الصدق والكذب لذاته ، وهذا لا يعنى أنه ليس لمفهوم الكلام الإنشائي واقع موافقه أو يخالفه ، بل له واقع خارج نطاق العبارة ، له واقع في ذهن المتكلم به ، ولكنه لا يقصد موافقه مفهوم الكلام الإنشائي لهذا الواقع الخارجى المكنن في ذهن المتكلم أو عدم موافقه ، بل المقصد - كما قلت - إلى إيجاد الشيء وإنشاؤه ابتداءً : فقولك : حافظ على الصلاة انزأ القرآن . لا تقرب الفواحش . أين محمد ؟ ليت الشباب يعود . يا خالداً هذه أساليب إنشائية المقصد منها إحداث الشيء وإيجاده ابتداءً ، ولا يقصد وصفها بالصدق أو الكذب ، ولذا قالوا : الإنشاء قول لا يَحْتَمِلُ الصدق والكذب .

هذا وتفصيل القول في أساليب الإنشاء وأنواعه وما يمكن وراءه من دقائق . وفي الخبر وأجزائه وأحواله وما يمكن في الصياغة والتراكيب من أسرار ودقائق ولطائف هو ما سنتناوله بالدراسة في فصول هذا الكتاب إن شاء الله .

الفصل الأول

أحوال الإسناد الخبري

الكلمات المفردة مثل : محمد - زيد - ذهب - شكر - لا يفهم منها سوى معانيها اللغوية التي وضعت لها ، ولكني تفيد معنى تاما ، لا بد من ترابطها ووضوح بعضها إلى بعض ، وصباغتها في تراكيب مفيدة ، ونظم معبر ، هذا الترابط ، وذلك الضم ، وتلك الصياغة ، هي ما أطلق عليه البلاغيون اسم : الإسناد ، وعرفوه بقولهم : هو ضم كلمة إلى كلمة على وجه يفيد أن مفهوم إحداها ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه . فقولنا : شكر محمد ، ولم يذهب زيد ، نجد أن كلمة « شكر » قد أسندت إلى كلمة « محمد » ، على وجه يفيد أن مفهوم « شكر » ثابت لمفهوم « محمد » ، ونجد في المثال الثاني أن كلمة : « يذهب » قد أسندت إلى كلمة « زيد » ، على وجه يفيد أن الذهاب منفي عن زيد . ويسمى كل من : « محمد وزيد » ، مسندا إليه أو محمدا عنه ، كما يسمى كل : « شكر ويذهب » ، مسندا أو حذبا ، وتسمى النسبة بين المسند إليه والمسند « إسنادا » وكذا القول في الجمل : هذا أنا الله - الحق واضح - محمد فاضل - الفراغ مفسدة الشمس ليست مشرقة حيث أسندت الهداية إلى الله ، والوضوح إلى الحق ، والفضل إلى محمد ، والفساد إلى الفراغ على وجه الإثبات ، وأسند الإشراق إلى الشمس على وجه النفي ، ولا يمتنى عليك معرفة المسند والمسند إليه في الجمل المذكورة .

أغراض الخبر : عند ضم الكلمات وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجمل المفيدة أو الأخبار ، والمتكلم الذي هو بتعدد الأخبار والإعلام ، يقصد بخبره غرضاً ، ويسمى من وراء الإعلام به إلى غاية ، وقد حصر البلاغيون

أغراض الخير في مقصدين أساسيين، حيث قالوا: إن قصد المخبر بخبره إما إفاد
المخاطب أو السامع بمضمون الخبر ونفس الحكم، كقوله: جاء عمرو، وزيد ناجح
لمن لا يعلم بجي عمرو، ونجاح زيد، ويسمى هذا فائدة الخبر، وهي المقصد
الأول من الأسلوب الخبري، وإما إفادة المخاطب أنه أي: المتكلم، عالم
بالحكم وبمضمون الخبر الذي يعلمه المخاطب، وذلك عندما يكون المخاطب
عالمًا بمضمون الخبر ولكنه يحمل معرفة المتكلم به، كقوله: بان ظمرت نتيجة
اختباره ووقف على نأ نجاحه: د أنت نجحت، وكقوله: بان اسمه محمد:
د اسمك محمد، فالمخاطب يعلم نأ نجاحه، ولا يحمل اسمه، ولكنه المتكلم
يريد إفادته أنه هر الآخر عالم بالحكم وبمضمون الخبر، ويسمى هذا: ولأزم
الفائدة، وهي المقصد الثاني من الأسلوب الخبري. ثم نيه البلاغيون، إلى أن
الخبر غالباً ما يقصد به أغراض أخرى غير هذين الغرضين الأساسيين وأن
تلك الأغراض الأخرى أكثر من أن تحصى، والمرجع في معرفتها إلى تفهم
السياق وقرائن الأحوال اعتماداً على الذوق الأدبي السليم والطبع العربي
الأصيل. تأمل قوله: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ) (١).

تجد أن امرأة عمران لم ترد بالخبر فائدته ولا لازم الفائدة؛ لأن الله
هو وجل أعلم بهذا. وإنما أرادت أن تظهر تحسرها وتحزنها على خيبة الرجاء
حيث كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً كي تهبه لخدمة بيت المقدس. ثم تأمل
قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ
مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن مَّسَّهَا مِنْكُمْ فَصِلْهُ وَأَمَّن كَانَ مَرِيضًا
أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) (٢). ولاحظ مدى الفرق بين الأخبار في
هذه الآية السكرية والخبر في الآية السابقة، فالأخبار في هذه الآية، أريد

(١) سورة آل عمران آية ٣٦

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥

بها إعلام بعد المؤمنين حكما إسلاميا وخبراً جديداً لم يكن معلوماً لهم من قبل . وهذا ما سمى به بفائدة الخبر . ومن هذا القبيل تلك الأخبار التي يكون الغرض منها عرض المسائل العلمية على الطلبة في قاعة الدراسة وفي المكتب العلمية المؤلفة في مختلف فنون العلم . وتعد إجابات الطلاب على ما يوجه إليهم من أسئلة ، أخباراً أقصد بها ، لازم الفائدة ، إذ الغرض منها إفادة المعلم أنهم على علم بصحة الإجابة التي يعلمها . ومن الأخبار التي لم يرد بها الفائدة ولا لازمها قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)^(١) ، إذ المراد إظهار الضعف والتخشيع والخضوع لله عز وجل . وقوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْعَمَلِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)^(٢) ، فالمراد : حث اللههم وتحريك حمية القاعد .

ومن ذلك إرادة الفخر كما في قول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا رضيع : تحضر لنا الجبابر مساجديننا

والنصح والإرشاد كما في قول زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنهم ويغنيهم

والمدح كما في قول النابغة الجعدي :

فإنك شمس والملوك كواكب : إذا طلعت لم يجد منهم كوكب

والهجاء كما في قول جرير يهجو الفرزدق :

زعم الفرزدق أن سبعة قتل مريحا : أبشر بطول سلامة يأمريج

(١) - سورة مريم الآية ٤

(٢) - سورة النساء ٩٥ .

ولما ظهر الحزن واللامى كما فى قول العرجى :
أضاعونى وأى فنى أضاعوا ابرم كربة وسداد نمر
والرثاء كما فى قول أبى ذؤيب الهذلى :
أودى بنى وأعقبونى غصة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
وكما فى قول ابن الرومى :

طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد
ولما ظهر الضعف وإبداء الملل والسآمة كما فى قول عوف بن محم .

إث الثمانين - وبلغتها - قد أخرجت سمعى إلى ترجمان
والتوبيخ والإنكار كقولك لمن يؤذى أباه : إنما هو أبوك .
إلى غير ذلك من الأغراض التى نبه البلاغيون إلى أنها أكثر من أن
تخصى (١) .

وجه دلالة الخبر على أغراضه : اختلفت آراء البلاغيين فى وجه دلالة
الخبر على أغراضه المذكورة ، فبعضهم يرى أن الغرض الأول وهو د فائدة
الخبر ، يفهم من ذات الخبر وبدل عليه دلالة حقيقة مباشرة ، فعندما تقول
لمن لا علم له بنجاح محمد : نجح محمد ، فإنه يفهم مضمون الخبر وفائدته من
ذات الجملة ونفس الإسناد . أما بقية الأغراض فبدل عليها الخبر دلالة تبعية .
فهى من مستتبعات التراكم ، ومعنى مستتبعات التراكم أن تلك الأغراض
تفهم من الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال ، فدلالة الآية الكريمة
(رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى) على إظهار التحسر وإبداء التحزن ، تم عن طريق
معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله ، من أن امرأة عمران قد وهبت

ما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، وأنه قد خاب رجاؤها ولم يتحقق ما أمته
عندما وضعت أنثى . وهكذا بقية الأغراض يدل عليها الخبر بمعونة السياق ومعرفة
قرائن أحواله .

ويرى آخرون أن د فائدة الخبر ، ود لازم الفائدة ، قد دل عليهما الخبر
لدلالة حقيقة حيث يفهمان من ذات الإسناد ونفس البناء وما عداهما دل عليه
الخبر عن طريق الكناية ، فسكا دلت كثرة الرماد وهزال القصيم — ول وجبن
الكلب على صفة الكرم ، فكذا ذلك الدلالة على الأغراض المذكورة : لإظهار
التحسر — لإبداء الضعف — الفخر — الرئاء : قد فهمت من أخبارها في الشواهد
المذكورة عن طريق الكناية .

ورأى ثالث يقول : إن هذه الأغراض التي خرجت عن الأصل من قبل
المجاز المرسل ، حيث استعمل الكلام في معنى الفخر أو المدح أو التحسر أو
تخريك الحمية مثلا مجازاً مرسلًا من استعمال المركب في غير ما وضع له لملاقة
اللزوم (١) . ولا أرى فائدة ولا ثمرة وراء هذه الاختلافات في تحديد وجه
دلالة الخبر ، والذي أرجحه هو الرأي الأول ؛ لأن المخاطب عندما يقف على
السياق ويعرف قرائن أحواله تتضح له هذه الأغراض ، فليس هنالك ما يدعو
إذاً للقول بأن إفادتها عن طريق الكناية أو المجاز المركب .

أضرب الخبر : بعد المبرد أول من أشار إلى أضرب الخبر وذلك عندما
سأله الفيلسوف الكندي قائلاً : أجد في كلام العرب حشواً ، أراهم يقولون :
عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم لقائم ، والمعنى واحد ،
فأجابه المبرد قائلاً . بل المعاني مختلفة ، فعبد الله قائم لإخبار عن قيامه ، وإن
عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله قائم جواب عن إنكار

(١) ارجع إلى هذه الآراء في شروح التلخيص ٤٧/١ .

منسكراً . وقد أفاد البلاغيون من إجابة المبرد ونهوا إلى ضرورة أن يكون المتكلم عالماً بأحوال المخاطبين ، خبيراً بنفسياتهم وما يحول في خواطرهم ويتردد في أذهانهم ، وأن يلقى إليهم كلامه ملائماً لتلك الأحوال ، فإذا كان المخاطب خالي الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد فيقال له مثلاً : الحق واضح . انتصر الحق . عاد الغائب ، فيتمكن هذا في ذهنه لمصادفته إياه خالياً وإذا كان المخاطب متردداً في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقى إليه الكلام مؤكداً يؤكدوا أحد استجساناً فيقال : إن الحق واضح . قد انتصر الحق ، قد عاد الغائب ، ومؤكداً الحسم كثيرة منها : إن وأن ولام الابتداء والقسم ونون التوكيد وحروف التنبية نحو ألا وها ، والحروف الزائدة وقد وضمير الفصل والتقديم . إلى غير ذلك من المؤكدات ،

وإذا كان المخاطب منسكراً للحكم وجب توكيد الخبر له حسب إنكاره فيقال له : إن الحق واضح ، إن كان لا يبالغ في إنكاره ، وإن الحق لو واضح إن كان يبالغ ، ورائه إن الحق لو واضح لمن اشتد إنكاره وغالى فيه . فأضرب الخبر ثلاثة ابتدائي : وهو ما يلقى للمخاطب الخالي الذهن ، ويكون خالياً من التوكيد ، وطلبي وهو ما يلقى للمخاطب المتردد في الحكم ، ويكون مصحوباً بمؤكد واحد استجساناً ، وإنكارياً وهو ما يلقى للمخاطب المنسكراً لمضمون الخبر ، ويجب أن يكون الكلام حينئذ مصحوباً بمؤكد أو أكثر حسب قوة الإنكار وضعفه .

انظر في قوله تعالى (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا : إِنَّا إِلَهِكُمْ مُرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهِكُمْ لَمُرْسَلُونَ)^(١) تجد أن أصحاب القرية قد كذبوا الرسولين وأنكروا

رسالتهما فمزن الله بثالث فقالت الرسل الثلاثة : « إنا لآلئكم مرسلون ،
مؤكدين الخبر لأصحاب القرية ، لأنهم منكمرون له ، فلما اشتد إنكارهم
وجحدهم لرسالتهم : « وما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إلا
أنتم إلا تكذبون » قالت الرسل : « ربنا يعلم إنا لآلئكم مرسلون » ، مؤكدين
الخبر بإذن واللام وصدروا الجملة بما هو في معنى القسم : « ربنا يعلم » .

وانظر في قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(١)
تجد أن المقام قد اقتضى تأكيد الخبرين بأكثر من مؤكد دفعا لإنكار
المنكركين وتبديدا لارتياب وشك المشاككين . فالكفرة قد أنكروا نزول
القرآن وقالوا ساخرين : (بَأْأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ
لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأْمِ لَكُمُ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)^(٢) ، واقتضى هذا الإنكار
تأكيد الخبر - كما ترى - بإذن وضمير الفصل ، نحن ، وتكرار الإسناد للضمير
ونحن نزلنا ، . ولما كانت هناك شكوك محتملة أن يصيب القرآن ما أصاب
التوراة والانجيل من التحريف والتبديل ، جاء الخبر الثاني مؤكدا بإذن ولام
التوكيد وتقديم الجار والمجرور له ، وهذا التأكيد يدفع تلك الشكوك المحتملة
ويثبت الطمأنينة في قلوب المؤمنين .

ونخذ قوله تعالى . (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى
وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نَفْثَةٍ
إِذَا تُنْفَخَتِ ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَعْيَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
السَّمَرَى . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَنَمُودًا نَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ
قَبْلُ .)^(٣) وتأمل تجد أن ضمير الفصل هو ، قد جاء في بعض الآيات دون

(١) سورة الحجر الآية ٩

(٢) سورة الحجر آية ٦٦ ، ٧

(٣) سورة النجم الآيات ٤٢ - ٥٢ .

بعض، وأن الآيات التي جاء بها تحتاج إلى مزيد من تأكيد الخبر وتقوية نسبة أفعالها إلى الله عز وجل واختصاصها به، فالإحسان والإبكام - بمعنى السرور والحزن - والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء - أقرى أعطى القنية وهو المال الذي يملكه كفته وعزمت ألا تخرجه من يدك - هذه الأفعال لما كانت مظنة الشراكة وأن لغير الله - سبحانه وتعالى - دخلاً وفاعلية فيهما . وكان هناك من ينسكرك البعث ، حاه ضمير الفصل ليرى كد نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى واختصاصها به وليبطل أن يكون لغيره دخل في شئون عباده ، ولتأصل مظنة الشراكة فيها فلا يتطلع المؤمن ولا ينظر إلا إلى السماء . وكذلك ، الشعري ، لما كانت خزانة تعبدها من دون الله ، أكد النظم الكريم ربوبيته له تعالى ، وانظر إلى تقديم الجار والمجرور . إلى ربك المنتهى . . . عليه النشأة الأخرى ، ليؤكد بهذا التقديم ما يشكره المعاندون من انقلابهم إليه تعالى وإحباطه لهم بعد عمارتهم ثم انظر إلى الأفعال التي جاءت بدون ضمير الوصل في الآيات ولاحظ أنها ليست موضع إنكار ولا مظنة شراكة : . وأنه خلق الزوجين ، . وأنه أهلك عاداً ، . فهم لا ينكرون أن الله هو الخالق بل يقولون بذلك وينطقون بنسبة الخلق إليه تعالى : (وَابْنُ سَاتِئِهِمْ بَنَ خَاقَهُمْ لَيَقُولُنَّ أَفَلَا يَنْصَرِفُونَ) ، وإهلاك عاد وثمود وقوم نوح يعلمونه ويسمعونه من غير القرآن ولا ينسكرونه فليس الخلق والإهلاك مما تظن فيه الشراكة ولذا خلت الآياتان من ضمير الفصل ، وهكذا نجد التوكيد في الآيات تعلقاً وتبسيطاً لتلائم مواقع المعاني في النفوس وما يمكن داخلها وسيجانب المحيط بالأسرار (١) .

هذا ويجيء الخبر على هذه الأضرب الثلاثة وملائم لحال المخاطب ، فيخلو من التأكيد عند لقائه لخالى الذهن وبؤ كد استجسانا المتردد ووجوباً

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٠ .

للمنكر ، يسمى لإخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، وكثيرا ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيأتى على أمور اعتبارية يعتبرها المتكلم في المخاطب فينزل حاله منزلة حال أخرى ويكون ذلك لدواع وأسرار بلاغية يقتضيها المقام .

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر : قديقتضى المقام أن يفترض
المتكلم حالا في المخاطب غير حاله الحقيقية التي هو عليها ، فينزل خالى الذهن منزلة المتردد أو المنكر ، وينزل المنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لا يكون إلا لأسرار يلتفت إليها المتكلم ويعيها البصير بالطائف هذه اللغة ودقائقها . فعندما تكون الجمل المتقدمة في سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر ويلوح به ويؤمى إليه فإنها تثير في النفس المتلقية تساؤلا يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه ، وعندئذ تأتى جملة الخبر مؤكدة لنزول ما أثير في نفس المخاطب من تساؤلات واستشرافات منزلة لإياه منزلة المتردد بالسائل ، ويقع هذا غالبا إذا كانت الجمل السابقة تتضمن نصائح أو إرشادا وتوجيها أو نهيا وأمرأ ، أو حدثا غريبا يستدعى وقوف النفس وتأملها .

انظر إلى قوله تعالى : (وَأَرْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ)^(١) ، نجد أن جملة : «إنهم مغرقون» ، قد جاءت مؤكدة بأن ، والمخاطب وهو نوح - عليه السلام - ليس مترددا في مضمون إفادتها وذلك لأنه لما تقدم في سياق الآيات الكريمة إخباره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، ونهيه عن أن يحزن لما صنعوا : «لا تبتئس» ، ثم أمره بصنع الفلك ونهيه عن

مخاطبة الله في شأن من أعرض وكفر ، هذا الذي تقدم أثار في نفس نوح عليه السلام تساؤلا عما سيجل بالقوم وتطلعت نفسه إلى معرفة الخير ، أهو لغراق خاصة وأن الأمر بصنع الفلك يشير إليه إشارة ظاهرة ؟ فنزل لهذا منزلة المتردد السائل وألقى إليه الخير مؤكدا ، لهم دغرقون ، ليجيب ما أثير في نفسه . ومثله قوله تعالى : (إِلَّا أَنْفَعُوهُ فَقَدْ آَمَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا) ^(١) . فتقدم النهي ولا تحزن ، أثار في نفس أبي بكر رضي الله عنه تطلعا وتشوقا إلى معرفة الخير ، ولذا جاء مؤكدا : (إِنْ أَتَاكَ مَعْنَاءٌ تَنْزِيلًا لَهُ مِنْزِلَةٌ السَّائِلِ الْمُتَرَدِّدِ ، ومثل هذا كثير في أساليب القرآن الكريم تأمل قوله تعالى : (سَيَحْمِلُونَ بِاللَّهِ تَكْلِمًا إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَىٰ آلِهِمْ لِيُخْبِرُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَاهِمٌ بِهِمْ) ^(٢) ، وقوله عز وجل : (قُلْ أَنْفَعُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ بُتَبَلَّ مِنْكُمْ إِنَّا كُفَّتُمْ قَوْمًا فَاسِيقِينَ) ^(٣) ، وقوله جل وعلا : (وَلَا تُحِلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ يَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) ^(٤) ، وقوله تعالى : (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) ^(٥) ولا يخفى عليك مجيء الخير مؤكدا بعد الأوامر والنواهي في الآيات الكريمة ، لأن الأمر أو النهي المتقدم أثار في نفس المخاطب تساؤلا وتطلعا إلى معرفة الخير فنزل منزلة السائل المتردد ، وخذ قوله تعالى : (وَمَا أَرْجَىٰ أَنْفَعِي إِنْ الْفَنَسَ لَأَمَّارَةٌ

(١) - سورة التوبة آية ٤٠

(٢) - سورة التوبة آية ٩٥

(٣) - سورة التوبة آية ٥٣

(٤) - سورة التوبة ٨٤

(٥) - سورة الإسراء آية ٣٢

بالسوء^(١)، تجد أن صدر الآية قد تضمن خبراً غريباً وهو اتهام المتكلم نفسه ونفى التبرئة عنها ، والمتكلم وهو يوسف - عليه السلام - أو امرأة العزيز ، على خلاف بين المفسرين ، فعلى أنه يوسف ، يكون نفى التبرئة عن نفسه أمراً غريباً يثير في النفس تساؤلاً واستشفاقاً لمعرفة الخبر ، إذ كيف لا يرى يوسف نفسه وهو التقي النقي ؟ ولذا جاء الخبر مؤكداً : « إن النفس لأماراة بالسوء » ، تنزيلاً للمخاطب خالي الذهن منزلة السائل المتردد . وعلى الرأي القائل بأن المتكلم امرأة العزيز فلا يخلو نفى التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل في نفس المخاطب ، لأن اتهام النفس ونفى التبرئة عنها من الأمور المستبعدة .

ومن أشعارهم في هذا الصدد قول الشاعر :

فغناها وهي لك الفداء إن غناء الإبل الحذاء

فحينما قال الشاعر : غناها ليشتد سبورها ، صار السامع متردداً ماغناؤها أم الحذاء أم غيره ؟ فجاء الخبر مؤكداً إن غناء الإبل الحذاء ، على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد السائل لينزل ما أثير في نفس السامع . وما يروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحرار كانوا يأتیان بشاراً ، فيستمعان إليه ويكتبان عنه ، وقد أتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة ؟ قال هي ما لم تكتبها . قالوا : بلغنا أنك أكرمت فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف قالوا : فأنشدهنا يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بكرأ صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبيكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكانى ، إن ذاك

النجاح ، ، د بکرا فالنجاح ، ، کان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : : إن ذاك النجاح ، ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : د بکرا فالنجاح ، کان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة فقام خاف فقبل ما بين عينيه . وإنما كان د بکرا فالنجاح ، من كلام المولدين ، لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنزل غير المتردد منزلة السائل المتردد ، ما في قوله : : إن ذاك النجاح ، ، ولكن فيه تكرير الأمر بالتبكير لنا كبده على وجه ظاهر ليس فيه دقة ذلك التأكيد الخفي ، والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة (١)



وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره . لأنه لو فكر وتامل لارتدع عن إنكاره وأقلع عن جحدته وتكذيبه .

انظر في قوله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (٢) نجد أن الخطاب موجه إلى المشركين المعاندين الذين لا يقرون بالوحدانية لله تعالى ، وكان مقتضى حالهم أن يأتي إليهم الكلام مؤكدا ، وليكنهم نزول منزلة غير المنكرين ، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار ، لأنهم لو تأملوا وتذبروا لأقلعوا عن إنكارهم ، ولأقروا بما ينبغي لجلال سلطانه وعظيم شأنه .

وتأمل قوله تعالى : (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكَ أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمْ آلِ الذِّى أَوْحَيْنَا لَكَ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ)

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٧ - ١٨٨

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (١) نجد أن الخبر ، هو ربى ، قد وجه إلى هؤلاء المنكرين الذين كفروا بالرحمن ، خاليا من التأكيد ، حيث لم يعتد بإنكارهم . وهذا ينفي بضعف عقولهم وقرب نظرهم ، لأنهم لو تأملوا وفكروا ما أنكروا .

وخذ قوله تعالى : (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) (٢) نجد أن الخبر ، الله ربنا وربكم ، مساق للكفرة الذين ينكرونه ، وقد خلا من التوكيد إشارة إلى أنه ما ينبغي ألا يجحد وينكر . ومثل هذا كثير في النظم الكريم : انظر إلى الآيات السكرية : (أَمْ - ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) (٣) (حَمَّ - تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (٤) (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً - مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) (٥)

نجد أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمن والكافر ، ولكنهم لم تعبأ بإنكار الكافر وتكذيبه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنزيل الكتاب فألقت الخبر بلا تأكيد : ، ذلك الكتاب لا ريب فيه ، وتنزيل الكتاب من الله ، ، محمد رسول الله . . ، تنبيهها إلى أنه لو اعمل وتدبر لأقر بذلك ولم يحجده .

وتقول لمنكر الإسلام وللحاد الصلاة ومنكر وجود الله : الإسلام

-
- (١) سورة الرعد آية ٣٠ .
 - (٢) سورة الشورى آية ١٥ .
 - (٣) سورة البقرة آية ١٠١ ، ٢ .
 - (٤) سورة هافر آية ١ ، ٢ .
 - (٥) سورة الفتح آية ٢٨ ، ٢٩ .

حق ، الصلاة واجبة ، الله موجود ، فنزله منزلة غير المنكر لعدم اعتدادك
بإنكاره . وانظر إلى قول الفرزدق مخاطباً هشام بن عبد الملك حينما أنكر
معرفة علي بن الحسين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بحده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والمعجم

ولم يعتقد الفرزدق بإنكار هشام ونجاهله بعلماء ، وألقى إليه الخبر بجرء
من التوكيد ، تنزيلاً له منزلة غير المنكر ، لأنه لو أنصف ما أنكر ونجاهل ،
ولذا لم يعتقد الشاعر بهذا الإنكار ، وفيه توبيخ وتبكيك لهشام حيث أنكر
أمراً معلوماً واضحاً ما كان ينبغي له أن ينكره .

وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر ، إذا بدا عليه شيء من أمارات
الإنكار ، فيلقى إليه الخبر مؤكداً . انظر إلى قول الباهلي :

جاء شقيق عارضاً ربحه إن بني عمك فيهم رماح

لما رأى شقيقاً قد جاء عارضاً ربحه أي : وأعرضه على عرضه وجاءه على
نقذه ، مدلاً بشجاعته ، فتمخرا بقوة ، لم يعياً ببني عمه ، وكانهم عزل من
السلاح ، لما رآه الشاعر هكذا نزله منزلة المنكر الذي يحدد قوة بني عمه ولا يقهر
بما لديهم من عتاد وأسلحة ، مخاطبه خطابه ، وألقى إليه الخبر مؤكداً : وإن
بني عمك فيهم رماح ، . . . وخذ قوله تعالى : (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى
وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ

ضَلَّاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ^(١)، لما كان
 صلى الله عليه وسلم - شديد الحرص على هدايتهم ، بجهدا نفسه في إبلاغهم
 ما أنزل إليه ، متطاعا إلى استجابتهم وقبولهم الحق وإقلاعهم عن الضلال
 والكفر ، لما كان كذلك نزل منزلة من يعتقد أنه يستطيع إسماع الصم وهداية
 العمى وينكر عدم قدرته على إسماعهم وهدايتهم فألقى إليه الخبر مؤكدا :
 « إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْخَوَافِ » . . . وتأمل قوله تعالى : (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
 تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا أَعْفُو لَهُمْ رَحِيمٌ)^(٢) ، نجد
 أن الذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته ، ولكنهم لما كانوا
 قد ارتكبوا السيئات واقتروا الذنوب والآثام صاروا في خوف من عقاب
 الله ، وكما تذكر ما اقتروا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله ،
 فنزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن ، منزلة من ينكر
 رحمة الله ومغفرته ، وألقى إليهم الخبر مؤكدا : « إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أَعْفُو
 رَحِيمٌ ، طمأنة لهم وتبليغا . . . ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
 وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(٣) ، فقد أكد الخبر الأول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ »
 دفعا لإنكار المنكرين - كما مر بنا - وأكد الخبر الثاني : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »
 بثا للطمأنينة في قلوب المؤمنين الذين رأوا ما أصاب الكتبة السابقة كالتوراة
 والإنجيل من تحريف وتبديل ، تخافوا أن يصيب القرآن ما أصاب هذه
 الكتبة وتطاعوا إلى حفظه من التحريف وجال القلق على القرآن في نفوسهم ،
 ولذا خوطبوا خطاب المنكر فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر ،
 تبليغا لهم . . .

(١) سورة النمل ٨٠ ، ٨١

(٢) سورة الأعراف ١٥٣

(٣) سورة الحجر ٩

وتأمل قول الشاعر :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك طرقها نزل منزلة من يعتقد أن السفينة تجري على اليبس وينكر عدم جريانها عليه ، فأكد له الخبر . « إن السفينة لا تجرى على اليبس ، وانظر في قوله تعالى : (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكْنَا اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَأَمِيَّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُنْفِثُونَ)^(١) ، تجده قد أكد الخبر الأول بمؤكدين وهو بما لا ينكر ، وأكد الثاني بمؤكد واحد وهو بما ينكر وبدفع ، حيث أنكر الكفرة البعث ولم ينكروا الموت ، ويعطى ذلك القزويني بقوله : « أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان بما لا ينكر ، لتزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في إنكار الموت ، لتأديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل « ميتون ، دون نمو تون . لإفادة الثبوت والدوام . وأكد إثبات البعث تأكيذا واحدا وإن كان بما ينكر ، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بالإنكار ، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيهاً لهم على ظهور أدلته وحشاً على النظر فيها ولذا جاء « تبعثون ، على الأصل ،^(٢) . . . وتقول للدسلم الذي يهمل الصلاة ولا يدفع زكاة ماله ، وللأبن الذي يؤذى أباه : إن الصلاة لواجبة . . . وإن الزكاة لحق للفقير . . . وإنما هر أبوك ، فتنزله بمنزلة المنكر وتجري الكلام على خلاف ظاهر حاله لعدم جريه على وفق ما يعلم . . . »

هذا وحال المخاطب ليست دائماً هي الممول الذي يعول عليه في تأكيده الخبر أو عدم تأكيده ، فقد يؤكد الخبر دون نظر إلى أحوال المخاطب ، بل

(١) - سورة المؤمنون ١٤ - ١٦

(٢) الإيضاح ١ / ٥١

لدواع أخرى بعيدة عن تلك الأحوال ، كما قد يترك توكيده دون أن
يكون لحال المخاطب دخل في ترك التوكيد . . انظر إلى قول الفرزدق
يمخاطب جريراً :

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم وإليه كان جباه جفنة ينقل
إما لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أئانه يتعمل

لا يتأتى أن يقال : إن الشاعر أكد الخبر في قوله : « إنما لنضرب » ؛
لأنه يخاطب من ينكر عليهم هذا الضرب ، أو من قد نزل هذه المنزلة إذ كيف
ينصور الشاعر أن هناك من ينكر ذلك وهو بمدح وبعده بالشجاعة وشدة
الفتك ، إن مجرد جريان مثل هذا في ذهنه وخياله يناقض المعنى الذى أراد
إثباته . . . كما أنه لا يقال إن جريراً غير منكر للخبر الثانى « وأبوك خلف
أئانه » بل هو ينكره أشد الإنكار ، ومع ذلك ألقاه إليه الفرزدق خالياً من
التوكيد ، فحال المخاطب في البيت لا يعول عليها في تأكيد الخبر الأول ، ولا في
ترك تأكيد الخبر الثانى . . فما المعول عليه إذا ؟ المعول عليه هو حال المتكلم
نفسه ، حيث نظر المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بالحقائق التى بصورها ،
وحرصه على إذاعتها ونقلها إلى النفوس كما أحسها ، فقد صاغ الخبر الأول ،
كما أحسها مؤكداً مقرراً وصاغ الثانى عارياً من التوكيد ليؤم أنها حقيقة لا ينبغي
لجرير أن ينكرها . . ونظير ذلك قول ابن الرومى في رثاء ابنه :

ولمى ولمن تمتعت بابنى بعده لذا كره ما حنت النيب في نجد

وقول الآخر :

إنما لمن معشر أفنى أوائلهم قيل السكاة ألا أين المحامونا

وقول أبى نخيلة في مدح مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم إنى يا ابن كل خليفة ويا جبل الدنيا ويا واحد الأرض
شكرتك إن الشكر جبل من التوق وما كل من أوليته صالحا يقضى

وأنهيت لي ذكرى وما كان خاملاً ولا كن بعض الذكر أنبه من بعض

وقول مضرئس بن ربهى :

لعمرك لى بالخليل الذى له على دلال واجب لمفجع
ولنى بالمولى الذى ليس نافعى ولا ضائرى فقدانه لممتع

ففى مثل هذه الأبيات لم ينظر فى تأكيد الخبر إلى حال مخاطب قد أنكر
الحكم ، وإنما أراد الشمره أن يبرزوا احوال أنفسهم وأن ينقلوا للسامع
ما جال فى خواطرهم ، فصاغوا هذه الأخبار كما شعروا بها وأحسوها مقررّة
مؤكدّة ...

وهذا كثير فى النظم القرآنى المكرم ، انظر إلى قوله تعالى : (رَبَّنَا إِنَّا
أُصْغِرْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ)^(١) .

صاغ إبراهيم - عليه السلام - الخبر مؤكداً كما أحسه ، وكما انفعلت به
نفسه ، ولم ينظر فى صياغته إلى اعتبارات خارجيه يلحظها عند المخاطب ..
ومثله قوله تعالى : (رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا نَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُنْفِئُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)^(٢) . وقوله عز وجل : (رَبَّنَا إِنَّا
جَامِعُ النَّاسِ الْيَوْمَ لَا رَبَّ بَيْنَهُمْ إِنْ أَفْهَ لَا يُخْلِفُ الْإِيمَادُ)^(٣) ،
وقوله جل وعلا : (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا
بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا)^(٤) ، وانظر فى قوله تبارك وتعالى : (إِذَا جَاءَكَ
الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ

(١) سورة إبراهيم آية ٣٧ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ٩ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٩٣ .

يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ^(١) . تجد أن المنافقين قد أكدوا الخبر :
 ذلك لرسول الله ، ليفيدوا أنه قد امتلأت به نفوسهم وأن هذه الشهادة
 صادرة عن صميم قلوبهم ولما كان قولهم هذا عن غير اعتقاد ، فقد جاء تأكيد
 الخبرين : ذلك لرسوله ، لأن المنافقين لكاذبون ، ليفيد أن ما قرووه
 وأكده . عن غير اعتقاد ، سيبقى مؤكدا قويا في علم الله وفي اعتقاد المؤمن ،
 وایبرز كذبهم بنفس القوذة والتأكيد الذي أكدوا به شهادتهم عن غير اعتقاد .
 وفي هذا توبيخ وتقريع للمؤلاء المنافقين . . . وتأمل قوله تعالى : (وَإِذَا لَقُوا
 الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ^(٢) .
 تجد أن إلقاء الخبر إلى الذين آمنوا قد جاء بلا تأكيد : أما ، وهذا يدل
 على أن نفوسهم غير ممتلئة به وأنه لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ،
 أما إلقاءه إلى شياطينهم فقد جاء مؤكدا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزون ،
 وهذا ينبئ أن نفوسهم قد امتلأت بهذا القول وأنهم يقولونه عن صدق
 رغبة واعتقاد ، ويجدون فيه أريحية لا يجدونها في القول الأول . . . هذا
 وكما يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في إبراز الخبر مؤكدا كما أحسه
 وانفعل به وامتلات به نفسه ، فقد يكون داعي التوكيد هو الرغبة في تحقيق
 الوعد أو الوعيد كما في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُفَآكِلُونَ بَأَنفُسِهِمْ فَلْيُوا
 وَلِإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ تَصْدِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ^(٣) ، وقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
 الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ^(٤) ، وقوله تعالى : (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ

(١) سورة المنافقون آية ١

(٢) سورة البقرة آية ١٤

(٣) سورة الحج آية ٣٨ ، ٣٩

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠١

قَلِيلًا لِمَنكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) ^(١) . وقوله تعالى : (إِن كُنتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) ^(٢) وقد يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام وتقريره في نفس المخاطب كما في الآيات الذكرية : (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) ^(٣) . وقوله : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا) ^(٤) . وقوله : (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) ^(٥) . وقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْكَزِيرُ الرَّحِيمُ . وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ^(٦) .

وقد يكون التوكيد انراباً للخبر كما في قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنَا هَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ^(٧) .

وقد يأتي التوكيد الإشارة إلى مجيء الخبر على غير ما كان يرجو المتكلم ويأمل ، وكان نفس المتكلم تنكره فيؤكده لها ، ومن ذلك قوله تعالى : (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ) ^(٨) ، وقوله عز وجل : (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَذَبُونِ فَانْتَبَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَنُجِّئَا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ^(٩) إلى غير ذلك من الدواعي والأسباب التي يؤكد لها الخبر ^(١٠) .

-
- | | |
|---|----------------------------------|
| (١) سورة الزمر الآية ٨ . | (٢) سورة الأنبياء الآية ٨٨ . |
| (٣) سورة النحل الآية ٧٩ . | (٤) سورة الإنسان آية ٢٣ . |
| (٥) سورة طه آية ١٤ . | (٦) سورة الشعراء آية ١٩١ ، ١٩٢ . |
| (٧) سورة القصص آية ٣٠ . | (٨) سورة آل عمران آية ٣٦ . |
| (٩) سورة الشعراء آية ١١٧ ، ١١٨ . | |
| (١٠) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٧ وما بعدها . | |

التجوز في الإسناد

الإسناد - كما تقدم - معناه : بناء الجملة أو تكوين العبارة أو ضم الكلمة إلى الكلمة أي - تكون نظاماً معبراً وكلاماً مفيداً وتركيماً جيداً ، وهذا الإسناد لا يجري دائماً على أسلوب الحقيقة ، بل قد يتم عن طريق المجاز ، بمعنى أن يتجوز المتكلم في بناء جملة أو تكوين عباراته وقد يتم عن طريق الحقيقة ، فمن الأبنية الحقيقية قولك : جاء محمد - ضرب زيد عمرا - ربح على في تجارته - جميعنا نساهنا - حيث نجد الفعل قد أسند إلى فاعله الحقيقية الذي فعله وقام به ، وانظر إلى قوله تعالى : (إِنْ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)^(١) ، وقوله عز وجل : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)^(٢) نجد أن الأفعال ينزل ، يعلم ، تؤتي ، تنزع ، تعز ، تذلل ، قد أسندت إلى فاعلها الحقيقية وهو الله تعالى ، ومن الأبنية المجازية قولك ربحت التجارة ، حمت السيوف النساء ، سار الطريق ، جرى النهر ، أذل الحرص أعناق الرجال ، تخطفهم الطريق ، جمعهم الطاعة وفرقتهم المعصية ، حيث أسندت الأفعال كما ترى إلى غير فاعلها الحقيقية ، فالتجارة لا تفعل الربح والسيوف لا تفعل الحماية والطريق لا يسير ولا يتخطف والنهر لا يجري والحرص لا يفعل الإذلال والطاعة لا تفعل الجمع والمعصية لا تفعل التفريق ولذا كان الإسناد في هذه الأمثلة إسناداً مجازياً ، وانظر في قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ نَسِيَ مَوَازِينَهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)^(٣) ، وقوله عز وجل : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَخْلَوْا الضَّلَالَةَ بِالْمُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)^(٤) . تلاحظ

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦

(٤) سورة البقرة آية ١٦

(١) سورة لقمان آية ٣٤

(٣) سورة الفارعة آية ٦٠

أنه قد أسندت «راضية» اسم فاعل إلى ضمير العيشة ، والعيشة تكون مرضية لراضية وأسند الربح إلى التجارة ، والربح هو صاحبها وليست هي ، فالإسناد في الآيتين إسناد مجازي .

ويزعم بعض الباحثين أن المجاز العقلي من ابتكارات الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وليكن عندما ترجع إلى أصول البلاغة في التراث العربي لدى الدارسين الأوائل ، تراهم قد اهتموا بدراسة هذا الأسلوب وأشاروا إليه كما أشاروا إلى غيره من مسائل البلاغة وفتوتها : وإن لم يسموه بهذه التسمية . فقد أشار إليه سيوريه عند حديثه عن بيت الخنساء :

تراب ما غفلت حتى إذا ذكرت فإنما هي إقبال وإدبار

إذ يقول : « فجعلها الإقبال والإدبار مجاز على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليك قائم » (١) . ونحدث عنه أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن في أكثر من موضع ، إذ يقول عن الآية الكريمة (فَمَوْ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ) : وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها (٢) .

ويقول عن الآية : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ رِجْسًا كُفُّوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُهَيَّيْرًا) (٣) : « مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أى : يبصر فيه ، ألا ترى أن البصر إنما هو في النهار ، والنهار لا يبصر ، كما أن النوم في الليل ، ولا ينام الليل ، فإذا نيم فيه قالوا : ليلة نائم ونهاره صائم ، قال جرير :
لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما أبل المطى بنائم (٤) »

(١) الكتاب ١/ ١٦٩ .

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٧٩ .

(٣) سورة النمل آية ٨٦

(٤) مجاز للقرآن ٢/ ٩٦ .

ويعلمو الحديث عن أسلوب المجاز العقلي عند الفراء ، إذ أشار إليه في الآيات : (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وفي قول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكامى

فالمعنى : لا معصوم اليوم من أمر الله ، خلق من ماء مدفوق ، في عيشة مرضية ، واقعد فإنك أنت المطعوم المكسور^(١) .

كما تحدث عنه في قوله تعالى : (فَمَا رَیَحَتْ تِجَارَتُهُمْ) إذ يقول : وربما قال قائل : كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر ؟ وذلك من كلام العرب : ربح يبعك وخسر يبعك ، فحسن القول بذلك ، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة ، فعلم معناه ، ومثله من كلام العرب : هذا ليل فائم ، ومثله من كتاب الله : (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) وإنما العزيمة للرجال ،^(٢) فهنا نراه يضيف جديدا إلى دراسة هذا اللون وهو أن يكون المخاطب عالما بموضع التجوز عارفا بالإسناد الحقيقي الذي عدل عنه ، وهذا يتم عن طريق السياق وقرائن الأحوال ، فلو قلت : خسر عبدك ، علي أن العبد نجارة يقع فيها الربح والخساره ، لا يعلم أنك متجوز في الإسناد إلا إذا أتت قرينة دالة ، كأن تقول ربحت أغنامك ولبلك وخسر برك ورقيقك ، وذلك لأن العبد قد يكون تاجرا وهذه إشارة دقيقة من الفراء .

وتحدث الجاحظ عن المجاز العقلي إذ يقول : وسمع الحسن رجلا يقول :

(١) انظر معاني القرآن ٢/١٥ ، ١٦ .

(٢) معاني القرآن ١/١٤ .

طالع سهيل وبرد الليل ، فذكره ذلك وقال : إن سهيلا لم يأت بحر ولا برد قط . ولهذا الكلام مجاز ومذهب ، وقد كرهه الحسن كما ترى ، وكره مالك ابن أنس أن يقول الرجل للقيم والسحابة : ما أخلقها المطر ! . وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس ، كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية ، احتاطوا في أمورهم ، فنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى تعلق ، (١) فالجأظه هنا يشير إلى وجود أسلوب المجاز العقلي في اللغة ، وإلى قضية خلق الأفعال التي شغلت المسلمين في عصره ، فالمتمثلة اعتقدوا أن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ، وأهل السنة يعتقدون أن الأفعال كلها مخلوقة لله . وليس هذا موضع مناقشة تلك الأمور الاعتقادية وإنما ينبغي أن تعلم أن قولك : قام زيد ، ليس مجازا عقليا ، بل هو حقيقة وزيد فاعل للقيام بتأثير الله عز وجل فيه ، وفرق بين الخلق بمعنى : الإيجاد وتأثير وبين الخلق بمعنى القيام بالفعل بأمر الله ، بمعنى : أن العرب إنما وضعت ، قام ، لفعل العبد الواقع بخلق الله تعالى ، فالقيام معنى قائم بزيد ، ووصف له ، وله فيه كسب وتحصيل ، وهذا يكفي ليكون الإسناد حقيقيا ، فالإسناد الحقيقي ثلاثة أقسام :

١ - ما يراد وقوعه من فاعله حقيقة بمعنى التأثير ، وذلك يخص الله تعالى بقولنا : خلق الله ورزق وأعطى وأحيا وأمات .

٢ - ما يراد وقوعه حكما مثل : قام زيد وذهب عمرو .

٣ - ما يراد به مجرد الاتصاف مثل : مرض زيد ، وبرد الماء (٢) .

وهكذا نرى العلماء قد شغلوا بأمر المجاز العقلي وبوجوده في اللغة ، فنرى ابن قتيبة يتحدث عنه ويذكر شواهد في معرض حديثه عن المجاز ووجوده

(١) الحيوان ١/٣٤١ .

(٢) انظر شروح التامخيس ١/٢٢٨ .

في القرآن الكريم وتفنيده مطاعن الطاعنين إذ يقول : « وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أن المجاز كذب ، لأن الجدار لا يربد والقرية لا تسأل ، وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا ، كان أكثر كلامنا فاسدا . لآنا نقول : نبت البقن وطالت الشجرة وأينعت الثمرة وأقام الجبل ورخص السمر . والله تعالى يقول : (فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ) وإنما يعزم عليه ، ويقول تعالى : (نَمَّا رَیَحَتْ نِجَارَتُهُمْ) وإنما يريح فيها ، ويقول : (وَجَادُوا عَلَى تَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) وإنما كذب به . . . (١) .

ويقول المبرد في قول الشاعر :

حملت به في ليلة مزودة كرها وعقد ناطقها لم يحال

« مزودة : ذات زود وهو الفرع ، فمن نصب « مزودة » ، فإنما أراد المرأة ، ومن خفض فإنما أراد الليلة ، وجعل الليلة ذات فرع لأنه يفرع فيها . قال الله تعالى : (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) والمعنى : بل مكرهم في الليل والنهار . . . (٢) ، وكذا تحدث عنه ابن فارس وابن جني وعبد الجبار وغيرهم وأشاروا إلى شواهد وأمثلة في اللغة . ولما جاء عبد القاهر لحل هذه الشواهد وفصل القول فيه ووضع له تلك التسمية « المجاز العقلي » ، أو « المجاز الحسكي » ، وفرق بينه وبين المجاز اللغوي ، وشأن عبد القاهر في حديثه عن أسلوب المجاز العقلي ، شأنه في تناوله لغيره من فنون البلاغة ومساائلها ، فهو يتأثر بمن سبقه ويمتاز بالتحليل وعرض الشواهد وتفصيل القول . فمن الخطأ أن يقال : إن عبد القاهر هو الذي ابتكر هذا المجاز ، ولعل القائل بهذا وهو يغالي ويسرف في إثبات مدى تأثر عبد القاهر بأرسطو فيما يعرض من مسائل البلاغة - لعله

(١) نأويل مشكل القرآن ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) السكامل ٧٩/١ .

لما لم يجد أرسطو قد تحدث عن المجاز العقلي ، جعله من اختراعات عبد القاهر
وابتكاره (١) .

هذا وبطلاني البلاغيون على المجاز العقلي تسميات كثيرة منها : المجاز في
الإسناد ، لكثرة وروده في النسب الإسنادية على نحو ما سترى ، ومنها ، مجاز
الملازمة ، ليشمل النسب الإسنادية وغيرها ، ومنها ، المجاز الحكيم ، نسبة
إلى حكم العقل ، أو إلى الحكم الذي هو النسبة بين المسند والمسند إليه ومنها
، المجاز النسبي ، لوقوعه في النسبة كما قلنا . ويسميه بعضهم بالمجاز في الإثبات ،
والبعض بالمجاز في الجملة وآخرون بالمجاز التركيبي ، وأشهر هذه التسميات :
، المجاز العقلي ، لرجوعه إلى تصرف العقل وحكمه .

وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن الإسناد الحقيقي قبل أن
يتناولوا هذا المجاز ، لأن معرفته تبنى على معرفة الحقيقة العقلية
والإحاطة بها .

يقول الخطيب في تعريفه للحقيقة العقلية : « هي إسناد الفعل أو ما في
معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر » (٢) .

وما في معنى الفعل يشمل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم
التفضيل والمصدر . فإنها تدل على الحدث مجرداً من الزمن ، أما الفعل فإنه
يدل على الحدث المقتن بالزمن ، ولذا كانت الأسماء المذكورة فيها معنى الفعل
حيث تدل على الحدث وهو جزء من معنى الفعل ، ولا تدل على الزمن وهو
جزء آخر من معنى الفعل .

(١) انظر مقدمة نقد النثر ٢٩ .

(٢) الإيضاح ٥٤/١

وقوله : « إلى ما هو له » ، يعنى أن تسند الفعل أو فى معناه إلى فاعله الذى هو له وفعله حقيقة أو حكماً كقولك : خلق الله الخلق وأحيا الأرض وأبدع السموات ، فالتة هو الفاعل الحقيقى لهذه الأفعال ، هو المؤثر فى إيجادها ، وكقولك : قام زيد وذهب عمرو ومرض خالد وبرد الماء ، فزيد وعمرو فاعلان للفعلين المذكورين حكماً بمعنى أن لهما كسباً وتحصيلاً فيهما ، وهذا يكفى لأن يكون الإسناد حقيقة ، وخالد والماء ، قد اتصف كل منهما بالفعل الذى أسند إليه وهذا أيضاً كافى ليكون الإسناد حقيقة . فالفاعل إما أن يكون هو الذى فعل الفعل حقيقة وأثر فى إيجادها وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون فاعلاً للفعل حكماً بمعنى أن يقوم به بأسر الله وتأثيره فيه ويكون له فيه كسب وتحصيل ، وإما أن يكون متصفاً بالفعل . وفى كل ذلك يكون الإسناد حقيقة كما فى الأمثلة .

وقوله : « عند المتكلم فى الظاهر » : قيد فى التعريف يفيد أن المفعول عليه فى الإسناد هو اعتقاد المتكلم وما يبدو للمخاطب من ظاهر حاله ، وبهذا يدخل فى الحقيقة العقلية الأقوال التى تطابق الاعتقاد دون الواقع ، والأقوال الكاذبة التى لا تطابق الواقع ولا الاعتقاد ، كما يدخل فيها ما تطابق الواقع والاعتقاد معاً ، وما تطابق الواقع دون الاعتقاد ، فالحقيقة العقلية أربعة أقسام :

الاول : ما تطابق فيه الإسناد الواقع والاعتقاد معاً ، كقول المؤمن : شفى الله المريض . أثبت الله النبات ، فشفاه المريض وإنبت النبات لله تعالى فى الواقع وهو كذلك فى اعتقاد المتكلم المؤمن .

الثانى : ما تطابق فيه الإسناد اعتقاد المتكلم وخالف الواقع كقول الجاهل شفى الطبيب المريض . وأثبت الربيع النبات فاعتقاد الجاهل أن شفاء المريض من الطبيب وأن لإنبت النبات من الربيع ولكن الواقع بخلاف ذلك وينافضه

إذ الشفاء من الله والطبيب سبب له ، والإنبات من الله تعالى والربيع ظرف له. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الدهريين : (وَمَا يُهْمُكُنَّا إِلَّا الدَّهْرُ) (١) فالدهري يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذي بهلك وهذا اعتقاد باطل لأن الواقع يدفعه والمؤمن عندما يسند الأفعال إلى الدهر أو الأيام ، فإنه لا يعتقد أنها الفاعل ، بل يكون متجاوزاً كما سنرى .

الثالث ما طابق فيه الإسناد الواقع وخالف اعتقاد المتكلم وذلك كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه : « إن خالق الأفعال كلها هو الله » . فإسناد خالق الأفعال إلى الله إسناد حقيقي ، يطابق الواقع ، ولكنه يخالف اعتقاد المعتزلي إذ اعتقاده أن الأفعال الاختيارية تسند إلى العبد لا إلى الله تعالى ، ولا يمكن حمل هذا على المجاز لأن المخاطب لا يعلم حال المتكلم الخفية ، فإن علمت هذه الحال أو وجدت القرينة الدالة على أن إسناد الفعل لغيره ما دوا له ، كان الإسناد مجازياً .

الرابع : ما خالف الإسناد فيه الواقع والاعتقاد معاً ، وذلك كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالماً بها دون المخاطب كأن يقول نجم فلان ودو لم ينجح ، فهذا القول يخالف الواقع ويخالف اعتقاد القائل ، وإنما كان من قبيل الإسناد الحقيقي لأن المخاطب لا يعلم أنه كذب ، والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة تدل على أنه كاذب .

هذا ونلاحظ أن الخطيب قصد قصر الإسناد الحقيقي على الفعل وما في معناه ، وكان الإسناد الذي لا يكون المسند فيه فعلاً ولا ما في معنى الفعل نحو: زيد أخى وعمرو أخوك ، ليس من الحقيقة العقابية ، ولذلك كان تعريف عبد القاهر للحقيقة العقلية أدق وأصوب إذ عرفها بقوله : « كل جملة وضعت

على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه .^(١) فلم يقيد الإسناد بالفعل ولا ما في معناه ، كما صنع الخطيب .

• • •

أما المجاز العقلي فقد عرفه الخطيب القزويني بقوله : هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأويل^(٢) .

ونلاحظ أيضاً أنه قصر التجوز في الإسناد على الفعل وما في معناه وهو أعم من ذلك على نحو ما سنرى . والإسناد هنا في المجاز ليس إلى ما هو للمسند ، أي : ليس إلى الفاعل الحقيقي ، بل هو إلى ملابس للمسند غير ما هو له ، وهذا هو الفرق بين الإسناد الحقيقي والإسناد المجازي ، فالخبر في إسناد الفعل إلى ما هو له ، والمجاز إسناده إلى ملابس له ، وعند إسناد الفعل إلى ملابس لا بد أن يكون هذا الإسناد بتأويل ، وإلا كان الإسناد حقيقة ، فقول المسلم : شفى الطبيب المريض مسنداً الشفاء إلى الطبيب ، لا يقوله إلا وهو متأول ومعتقد أن الطبيب سبب للشفاء وليس فاعلاً له ، ولذا كان إسناده مجازياً ، أما قول جاهل : شفى الطبيب المريض ، فهو غير متأول بل يعتقد أن الطبيب فاعل الشفاء ، ولذا كان الإسناد حقيقة ، فالمراد بالتأويل في تعريف الخطيب : القرينة التي تدل على أن المتكلم قد تجوز في الإسناد ، وسيأتيك حديث عن هذه القرينة ، أما الحديث الآن فهو عن ملابسات الفعل ، أو علاقات المجاز العقلي والبلاغيون ينظرون في تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابس إلى ما بين الفعل والفاعل المجازي من تعلق وارتباط ، أو إلى ما بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي ، فقولك : سار الطريق وقوله عن من قائل : (فَمَا رَجَحَتْ تَجَارِيهِمْ) ، هنالك ارتباط وتعلق بين « سار » و « الطريق » ، باعتبار الطريق

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٦

(٢) الإيضاح ١/ ٥٦

مكان للسير ، كما أن هناك تعلق بين ربح ، والتجارة باعتبار التجارة مفعولا يقع عليها الربح ، وهناك أيضا تعلق وارتباط بين الطريق والذاس ، وبين التجارة والمشتريين ، باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما . ولك أن تنظر في تحديد الملاسة إلى أيهما شئت ، لأنه إذا كانت هناك ملاسة بين الفعل والفاعل المجازي لزم أن يكون هناك ملاسة بين الفاعلين الحقيقي والمجازي كما هو واضح - وإليك بيان هذه الملاسات :

١ - إسناد المبنى للفاعل إلى المفعول ، كما في قوله تعالى : (أُرَايِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ قَمًا رَّيْحَتٌ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) ^(١) فالتيجارة ليست هي الفاعل الحقيقي للفعل ربح ، وإنما أسند إليها لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها ، والأصل : فاربح المشترون في تجارتهم ، والتجوز هنا بإسناد الربح المنفي إلى التجارة ، أفاد المبالغة في خسراتهم ، فالذي خسر ليس هم ، وإنما هو التجارة ، وهي تجارة غريبة من نوعها حيث اشترى هؤلاء الضلالة ودفعوا الهدى ثمناً لها ، وتلك تجارة لا يرتاب عاقل في بوارها ، ولذا بولغ في تأكيد الخسران بإسناد عدم الربح إلى التجارة ذاتها ، والذي لم يربح هم المتاجرون فيها ومن ذلك قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) ^(٢) ، ففاعل راضية ضمير يرجع إلى العيشة والعيشة مرضية لا راضية ، إذ الأصل : في عيشة رضى صاحبها بها ، فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها ، ويفيد هذا التجوز المبالغة في العميم الذي أعده الله تعالى للمؤمنين في الجنة فرضوا به وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها ، ونحبها ويحبها فهي عيشة دائمة باقية ، لأنها مبنية على الألفة والمحبة ، ولو كانت مبنية على التنافر مادامت ، وتأمل

(١) سورة البقرة الآية ١٦

(٢) سورة النازعة الآية ٧

التعبيرين : المؤمن في عيشة راضية ، والكافر في عيشة نازرة ، نجد أن التجوز في الأول ينفي بالدوام والبقاء حيث الرضا والآفة ، أما التجوز في الثاني فينفي بالفرقة والابتعاد حيث النفور والكرهية ، ولذا كان أمر الحبيب عليه الصلاة والسلام بأن نحسن جوار النعمة إذ يقول لبعض أرواحه : أحسنى جواب نعمة الله فإنها قلما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم ، فتأمل المجاز في قوله : نفرت النعمة ، وما يوحي به من الكراهية التي تستلزم الزوال والمفارقة . . . وخذ قوله تعالى : (فَالْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِنْهُ خَائِقًا خَائِقًا مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)^(١) ، نجد أن دافق ، قد أسند إلى ضمير الماء ، والماء مدفوق وليس دافقا ، فالمبالغة بين دافق والماء ، مبالغة بين الفعل ومفعوله ، والتجوز في الإسناد هنا قد جمل المدفوق دافقا مبالغة في سرعه اندفاعه . . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَابُتَىٰ أَزْكَبُ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَأَوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِفُنِي مِنْ أَلَمِ الْإِنْسَانِ لَا حَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ)^(٢) ، فقد أسند دءاصم ، اسم فاعل إلى ضمير المفعول ، إذ المعنى : لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه ، وذلك مبالغة في نفي العصمة عن كفر وتولى . . . وانظر إلى قول الخطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل ابغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فهو يهجو ويطلب منه أن يدع المكارم ولا يسعى لطلب المعالي وأن يظل قاعداً فهو المطعوم المكسو الذي يطعمه غيره ويكسوه وقد أسند شاعر طاعم وكاس ، إلى ضمير المفعول مبالغة في تحقيره والخط من شأنه والاستهزاء به . . . ونقول : دسركاتم ، أي : مكتوم وذلك مبالغة في كتمانته وإخفائه ، إذ الأصل : كتم الرجل السر ، فلما أريد المبالغة في حفظ السر

(٢) سورة هود آية ٤٢ ، ٤٣

(١) سورة الطارق آية ٥ ، ٦

وكتمه ، أسند الفعل إلى مفعوله ففعل : سر كاتم ، تجوزا في الإسناد ، فقد بلغ السكتان مبلغا صار السر فيه كاتما لا مكتوما . .

٢ - إسناد المبنى للمفعول إلى الفاعل . . . كما في قوله تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)^(١) ، فقد أسند اسم المفعول ومستورا ، إلى ضمير الحجاب والحجاب ساتر أى : فاعل الستر ، وليس مستورا ، فالملازمة بين اسم المفعول : مستورا ، وبين نائب الفاعل ، الحجاب ، ملازمة بين الفعل وفاعله ، إذ الحجاب فاعل للستر لا مفعول ، والتجوز في الإسناد أفاد المباينة في قسوة قلوبهم وشدة جحودهم ، فقد زادت مكابرتهم وطغى عنادهم حتى وصل حدا لم يعود وافيهم مستورين بالحجاب ، بل صار الحجاب هو المستور بطغيانهم وجحودهم . . ومعنى الآية : إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا في الإضلال والهداية بينك وبين الكفرة الذين يشكرون البعث حجبا بمنهم عن الحق ، وذلك بالختم على قلوبهم ووضع الغشاوة والاضطية على سمعهم وأبصارهم ، وقد جعل الحجاب المانع الساتر مستورا - كما بينا - لإبراز شدة جحودهم وقسوة قلوبهم ولبيان أنهم بلغوا في العناد والمكابرة مبلغا عظيما . ومن ذلك قوله تعالى (جَفَّاتِ عَدْنُ الْآتِي وَعَدَّةُ الرَّحْمَنِ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا)^(٢) ، فقوله : مأتيا ، اسم مفعول وقد أسند إلى ضمير الوعد الذى هو فاعل في الحقيقة ، لأن الوعد آت وليس مأتيا ، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المباينة في لإنجاز وعد الله وتحقيقه حيث جعله مأتيا إليهم وكان هناك من يحمله ويأتى به إلى المؤمنين ، ساعيا به إليهم . . وانظر إلى قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَانُوا مَعَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْتُونَ الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْتُورًا)^(٣) ، وقوله عن وجل :

(٢) - سورة مريم ٦١

(١) سورة الإسراء ٤٥

(٣) سورة الأحزاب ١٥

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) ^(١) ، تجد أن «مسئولا» قد أسند إلى ضمير العهد ، و«سئلت» قد أسند إلى ضمير الموءودة ، والعهد لا يسأل بل المسئول صاحبه ، وكذا الموءودة لن تسأل ، بل واندها هو الذي يسأل ، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في وجوب الالتزام بالعهد وشدة الوعيد والتهديد لمن يئد البنات . . . ونقول : «سيل مُفْتَقَم» . «بالبناء للمفعول» ، والمفتم هو المملوء ، والسيل في الحقيقة مالى ، للراوى ، فالوادى هو الذى يُفْتَم أى يمتلىء بالماء . والإسناد الحقيقى : «أفتم السيل الوادى» ، ولكننا تجوزنا في الإسناد فأسندنا «مُفْتَم» اسم المفعول إلى السيل الذى هو الفاعل الحقيقى ، وكان حقه أن يسند إلى الوادى فيقال : «واد مفتم» ، وقد أفاد هذا التجوز شدة المبالغة في فيضان الماء وامتلاء الوادى به ، حتى أصبح الماء مملوءا مائلا . . .

٣ - إسناد الفعل المبني للفاعل إلى مصدره . . كما في قوله : «فلان ثارت ثورته» وغضب غضبه وسحر سحره وشعر شعره وجد جده ، فقد أسند الفعل المبني للفاعل في هذه الأمثلة إلى مصدره ، والأصل : «ثار فلان ثورة» وغضب الغاضب غضباً وسحر الساحر سحراً وشعر الشاعر شعراً وجد الجاد جداً ، ولكنهم تجوزوا فأسندوا ما حقه أن يسند إلى الفاعل ، إلى المصدر ، وذلك تحقيقاً للمبالغة في الأفعال المذكورة . . ومن ذلك قول أبى فراس الحمداني :

سند كرنى قومي إذا جد جدهم وفي الليل الظلام يفتقد البدر

فقد أسند المبني للفاعل وجد ، إلى المصدر جدهم ، إسناداً مجازياً للمبالغة بين الفعل ومصدره ، وأفاد هذا الإسناد المبالغة فيما نزل بالقوم وحل بهم من خطوط جسام ، أخذوا يستمدون لها ويفتقدون الغائب ويطلبونه ، كما يفتقد البدر ويطلب عند اشتداد الظلام ؛ وخاصة إذا كان الغائب من المدافعين عن الأحساب ، الذائدين عن الحمى ، أمثال أبى فراس .

٤ - إسناد المبني للفاعل إلى الزمان .. كما في قولك : نهاره صائم وليله قائم ، فالليل لا ينام والنهار لا يصوم ، وقد أسند إليهما اسم الفاعل : وقائم وصائم ، لأنهما زمانان للقيام والصيام ويفيد هذا التجوز المبالغة في تمام الصيام وكالقيام بوضوح أهدافهما في سلوك المسلم الصائم القائم .

ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيـسك بالأخبار من لم تزود

حيث أسند الفعل « تبدي » إلى زمانه « الأيام » على سبيل المجاز العقلي ، والأصل سيبدى لك الله في الأيام ، ومنه قول الآخر :

هي الأمـور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

فالزمن ليس فاعلاً للسرور ولا للإساءة ، ولكنه لما كان السرور واقعاً فيه وكذلك الإساءة ، فقد أسند إليه على سبيل المجاز العقلي لعلاقة الزمانية ، وقول جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى فتمت وما لي لـ المطوى بنائم

حيث أسند اسم الفاعل « نائم » إلى ضمير الليل ، والأيـل ليس فاعلاً للنوم ولكنه زمان ينام فيه النائمون .. وانظر في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَمِدُونَ)^(١) ، وقوله عز وجل (تَسْكُنُونَ لَكُمْ لِكْفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)^(٢) تجد أن اسم الفاعل « مبصراً » ، قد أسند إلى ضمير النهار والفعل لا يفعل الإبصار ، بل هو زمان يبصر الناس فيه ، وكذا الفعل « يجعل » قد أسند إلى ضمير اليوم ، واليوم زمان يقع فيه الفعل ، وحقيقة

(١) سورة يونس الآية ٦٧

(٢) سورة المزمل الآية ١٧

الإسناد : يوما يجعل الله فيه الولدان شيئا فأسند الفعل إلى زمانه على سبيل
المجاز العقلي . .

٥ - إسناد المبني للفاعل إلى المكان . . كما في قولهم : طريق سائر ونهر
جار ، أسندوا السير إلى ضمير الطريق ، والجري إلى ضمير النهر ، والسائر هم
الناس ، والذي يجري هو الماء ، والطريق مكان للسير ، والنهر مكان لجري
الماء ، فأسند الفعل إليهما تجوزاً ، ويفيد هذا المجاز المبالغة في قوة اندفاع
الماء وشدة فيضانه وكثرة ازدحام الناس في الطريق ، حتى ليخل السامع أن
النهر هو الذي يجري ، وأن الطريق هو الذي يمضي . . ومن ذلك قوله تعالى :
(وَعَسَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا) ^(١) ، فالأنهار اسم للأمكنة والوديان التي تجري فيها المياه ،
وقد أسند إليهما الجريان على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية . وتكمن
بلاغة المجاز في الآية في أن المياه لكثرة فيضانها وشدة جريانها ترى وكأن
محليها هو الذي يجري ، وكأن الجري قد تجاوز الماء إلى مكانه . . وعندما
تقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجنة وما أعد فيها من نعيم تجد
الجري فيها قد أسند إلى الأنهار لا إلى المياه ، لهذا السر البلاغي .

وانظر إلى قوله تعالى : (وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَاقًا) ^(٢) حيث أسند
الإخراج إلى الأرض وهي مكان الأثقال والأصل وأخرج الله منها أنفخالها ،
وفيد هذا التجوز في الإسناد : التحويل والتلفظ من شأن ذلك اليوم ، وشدة
قذف الأرض وإلقاء ما بداخلها من أثقال ، وكأها هي التي تخرج وتقذف
تلك الأثقال . . وتخذ قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُسْكَنُ لَهُمْ جَنَّاتٌ آمِنًا) ^(٣) ، تجد
أن اسم الفاعل آمنا ، قد أسند إلى الضمير العائد إلى الحرم ، والحرم مكان
للأمن ، والأصل : حرماً آمناً أهله ، فأسند الأمن إلى الحرم مبالغة في كمال
النعمة ، نعمة الأمن التي تفضل الله بها على سكان حرمه .

(٢) سورة الزلزلة آية ٢

(١) سورة التوبة آية ٧٢

(٣) سورة القصص آية ٥٧

وانظر إلى قول الشاعر :

وكل امرئ يولى الجميل محبوب
وكل مكان ينبت العز طيب

فقد أسند الفعل ينبت إلى ضمير المكان ، والمكان لا يفعل الإنبات
والأصل : ينبت الله فيه ، وإلى قول الآخر :

ملكنا فمكان العفو منا سجية فلما ملككم سال بالدم أبطح

فهو يفخر بأن قومه لما قدروا عفووا وصفحوا ، بينما المخاطبون عندما
قدروا أمر فوا فى سفك الدماء حتى سالت بالآبطح وهو انسيل لووسع فيه
دقائق الحصى ، وقد أسند الشاعر د سال ، إلى الآبطح مبالغة فى كثرة الدماء
التي أريقَت من جزاء الحكم الظالم ، وأصل الإسناد : سالت الدماء
بالآبطح ...

٦ - إسناد المبني للفاعل إلى السبب .. كقولنا : بنى الأمير المدينة
وحقيقته : بنى العمال المدينة بأمر الأمير ، فإسناد البناء ، إلى الأمير بجاز
عقلى علاقته السببية ؛ لأن الأمير سبب البناء ، وهو بنى . يعنى عناية الأمير
واهتمامه بشأن المدينة ، حتى كأنه فاعل البناء .. ونقول : محبتك جاءت بى ،
وسرتنى رؤيتك ، فنسب المجئ إلى المحبة وهى سببه ، والسرور إلى الرؤية
وهى سببه أيضا مبالغة فى قوة المحبة وكثرة السرور الناجم عن الرؤية .

ومنه قول أبى نواس :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

فقد أسند زيادة الحسن ، إلى الوجه وهو سببها ، مبالغة فيما أودعه الله
فيه من دقائق الحسن والجمال .. وانظر إلى قول الآخر :

فلا تسألنى واسألى عن خليقتى إذ ارد عافى القدر من يستعيرها

فالشطر الثاني من البيت كناية عن شدة الجذب ، وذلك إذا كان المراد بعافى القدر : بقية المرق الذى يوجد فى القدر ، فيه يكون سببا فى أن يرد صاحبها من يطلب إعارتها ، لشدة ما هم فيه من جذب وتخط . أما إذا كان المراد بعافى القدر : الضيف ، فإن البيت يكون عندئذ كناية عن الكرم ، إذ نسب الضيف فى رد المستمير حيث يرى القدر منصوبة له فلا يطالبها . . والشاعر قد أسند رد ، إلى ، عافى القدر ، ، وعافى القدر لم يفعل الرد وإنما تسبب فيه وحقيقة الإسناد : إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيتها فهو مجاز عقلى علاقته السببية . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَذَكَرْهُ فَإِنْ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) ، أسند النفع إلى ضمير الذكى وهى سببه ، والأصل : ينفع الله بسببها المؤمنين . . وتأمل الآيات : (إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا سِجْمًا يُضَاعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)^(٢) . . (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ)^(٣) . . (فَأَوْقِدْ لِى يَا هَآمَانُ عَلَى الْعِثْنِ فَأَجْعَلْ لِى صَرْحًا)^(٤) . . (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)^(٥) . تجد أن الأفعال بها قد أسندت إلى أسبابها ، فقد أسند ، يذبح ، ويستحيى إلى فرعون وهو الأمر بهما وليس فاعلها الحقيقي ، وأسند البناء والإيقاد إلى هامان ، وهما يفعلان بسببه ، وأسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه . . وتلاحظ أن المسند فى الآيات الثلاث الأخيرة هو فعل الأمر أو النهى : ابن . . أوقد . . اجعل . . لا يخرجن . . وبهذا يتضح لك أ المجاز العقلى كما يقع فى الخبر يقع فى الإنشاء .

٧ - إسناد الفعل إلى الجنس وهو فى الحقيقة مسند إلى بدنه ، كما فى

(٢) سورة القصص آية ٤

(٤) سورة القصص ٣٨

(١) سورة الذاريات آية ٥٥

(٣) سورة غافر آية ٢٦

(٥) سورة طه آية ١١٧

قولهم : بنو فلان قتلوا فلانا ، والقاتل واحد منهم . . وكما في قوله تعالى :
(فَتَعَقَّرُوا النَّاقَةَ وَعَتَرُوا عَنْهُ مِنْ أَهْلِ رَبِّهِمْ)^(١) ، فقد أسند العقر إلى جميعهم
وهو لبعضهم كما جاء في آية أخرى : (فَتَكَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)^(٢)
ولإسناد الفعل إلى الجميع وهو لبعض بنى . بأنه قد تم بعلمهم ووقع
برضاهم^(٣)

٨ - إسناد الفعل إلى الجارحة التي هي آلهته كقولهم : أبصرته عيني . .
وسمعته أذني . . وعرفه قلبي . . وقاله لساني . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَلَا تَكْفُرُوا
الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ)^(٤) ، فقد أسند اسم الفاعل وآثم ،
إلى القلب وإنما الآثم هو الشخص ؛ وذلك لأن كتمان الشهادة أن يضمها
الشخص ولا يتكلم بها ، فلما كان إنما مقترفا بالقلب أسند إليه . ، لأن إسناد
الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ^(٥) . .

٩ - إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقي ، كما
في قوله تعالى : (إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ قَدْ ذُنِبْنَا إِنَّهَا عَنِ الْغَائِبِينَ)^(٦) ، فقد أسندت
الملائكة التقدير إلى أنفسهم والمقدر هو الله وحده ، وذلك لأن لهم مزيد
اختصاص وقربى من الله عز وجل . .

هذا ولم يتحدث الخطيب القزويني عن الملايسات الثلاث الأخيرة ، حيث
ذكر من ملايسات المجاز العقلي الملايسات الست الأولى فقط ، وقد اف لفه كثير
من الدارسين بعده . . وعندما نرجع إلى تعريفه للمجاز العقلي نجد أنه قد قصره

(٢) سورة القمر آية ٢٩
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٣
(٦) سورة الحجر آية ٦٠

(١) سورة الاحراف آية ٧٧
(٣) انظر الكشف ٩١/٢
(٥) انظر الكشف ٤٠٦/١

على إسناد الفعل وما في معناه ، كما وضخنا ، وقد ضاق هذا التعريف عن صور كثيرة من صور التجوز في الإسناد . . من ذلك :

١ - النسبة الإضافية كما في قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ اسْقُضُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُؤٌ الْآثِلِ وَالْفَهَارِ)^(١) . والتقدير : بل مكرم في الليل والنهار ، فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار وهما زمان له ، وكان حقه أن يضاف إلى الناس ، كما في التقدير ومثله قوله عز وجل : (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِيهَا)^(٢) ، والتقدير : وإن خفتم شقاق الزوجين في الحالة التي بينهما . . فقد أضيف الشقاق إلى الظرف « بين » ، على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المسكانية ، وكان حقه أن يضاف إلى الزوجين كما في التقدير .

٢ - النسبة الإيقاعية ، بمعنى أن يقع الفعل المتعدي على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة وقرينة مانعة ، وسميت نسبة إيقاعية ، لأن الفعل المتعدي واقع على مفعوله المجزأ ، انظر إلى قوله تعالى : (وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ السُّفَرِيِّ)^(٣) نجد أن الأصل : ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم ، وقد وقع الفعل « تطيعوا » ، على المفعول « أمر » ، على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية ، إذ لا تقع الطاعة على الأمر ، وإنما تقع على صاحب الأمر . . وخذ قوله تعالى : (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا)^(٤) فقد وقع الفعل « فجر » ، على الأرض ، وهو في الأصل للعيرن إذ المعنى ، وفجرنا عيون الأرض ، فهو مجاز عقلي علاقته المسكانية وقد أفاد هذا المجاز المبالغة في فرار الماء واندفاعه ، وكان الأرض قد صارت كلها عيوناً . . فبما أن إسناد الفعل إلى غير

(٢) سورة النساء آية ٥٥

(٤) سورة القمر آية ١٢

(١) سورة سبا آية ٣٣

(٣) سورة الشعراء آية ١٥١

ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذلك إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه مجاز أيضا . .

٣ - النسبة الوصفية ، وذلك بأن يوصف الشيء بوصف صاحبه كقولنا : الكتاب الحكيم ، والأسلوب الحكيم ، وضلال بعيد ورجل عدل ، فالحكمة في الحقيقة ليست وصفاً للكتاب ولا الأسلوب ، وإنما هي وصف لصاحبهما وكذا البعد ليس وصفاً للضلال ، بل هو وصف للضال ، والعدل ليس وصفاً للرجل ، وإنما وصف لأفعاله . فالأصل أن يقال : رجل ذو عدل ، كما يقال : رجل ذو رأي ، ورجل ذو خلق . . فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، فكذا وصف الشيء بغیر ما حقه أن يوصف به . .

٤ - الإسناد بين المبتدأ والخبر كما في قوله تعالى : (وَآيَاتٍ الْبَرِّ مَنْ) اتَّقَى ^(١) والأصل : وليكن ذا البر من اتقى . . أو وليكن البر من اتقى ، فقد أسند من اتقى ، إلى البر ، إسناداً مجازياً لعلاقة الإقناعية أو المفغوية ، لأن من اتقى فاعل والبر مفعول له . . ومن ذلك قول الخنساء في وصف الناقة :

ترتع ما غفلات حتى إذا اذكرت فإنما هي إقبال وإدبار

يقول عبد القاهر في تجزية المجاز العقلي في هذا البيت : دوماً طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء - البيت . . وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجاوزت في نفس الكلمة ، وإنما تجوزت في أن جعلتها أكثر ما تقبل وتدبر والغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرها ، كأنها قد تجسست من الإقبال والإدبار . . وأعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل

قوله عن وجل : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)^(١) ، ومثل قول النابغة الجعدي :

وكيف تواصل من أصبحت خلالها كأي مرحب^(٢)

وقول الأعرابي :

حسبت بغام راحلني عناقا وما هو ويب خُبرك بالعناق^(٣)

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير :
فإنما هي ذات إقبال وإدبار ، ذلك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين
في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد في المعنى ، كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو
المبتدأ إذا دل الدليل عليه إلى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به ،
وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء ، لأننا جعلنا المعنى قيمه الآن ، كالمعنى
إذا نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار ، أفسدنا الشعر على أنفسنا
وخرجنا إلى شيء غسول ، وإلى كلام عامي مرذول وكان سبيلنا سبيل من يزعم
مثلا في بيت المتنبي :

بدت قرأ ومالت خطوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالا

أنه في تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : بدت مثل
قر ومالت مثل خطوط بان وفاحت مثل عنبر ورنّت مثل غزال ، في أنا
نخرج إلى الغثالث ، وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها^(٤) وهذا تحليل دقيق لبيان
المجاز العقلي في البيت وإبراز ما يفيد من المبالغة. وأن الناقبة كأنها قد نجت
من الإقبال والإدبار ، وأنت إذا رمت تقدير مضاف لتبين الإسناد الحقيقي ،

(١) سورة يوسف آية ٨٢

(٢) الحلالة : الصداقة . وأبو مرحب : الظل ووجه التشبيه هو الزوال وعدم الدوام

(٣) بغام لناقبة : صورتها . والعناق : أي المذ . والويب : الويل ، والخطاب في

قوله : « حسبت » للذئب الذي حسب صوت ناقته صوت عناق ، ولذا قال له : ويب
غبرك ، فتوعدده بلونه لأن الذئب لونه أغبر .

(٤) دلائل الإعجاز ٢٩٢ .

فقلت : « فإنما هي ذات إقبال وإدبار » ، ضاعت هذه المبالغة ، وفقدت
حلاوة الشعر ، كما تضع أيضا وتفقد إذا أولت المصدر باسم الفاعل فقلت :
فإنما هي مقبلة ومدبرة .

ولما كان تعريف الخطيب للمعجاز العقلي لا يتسع لمثل هذه النسب ، فإنما
نفضل عليه تعريف عبد القاهر له ، إذ عرفه بقوله : « كل جملة أخرجت الحكم
المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأويل » (١) ، وسبب ترجيحنا
لتعريف عبد القاهر ، أنه لم يحدد الإسناد بالفعل وما في معناه كما صنيع الخطيب
ولم يحدد أنواع العلاقات التي تسوغ الإسناد ، فانسع المجاز العقلي عنده لكل
إسناد ولكل ملاسة .

° ° °

قرينة المجاز العقلي : لا بد للمجاز سواء أكان مجازاً عقلياً أم مجازاً لغوياً ،
من وجود قرينة دالة تبين المجاز وتوضح عدم إرادة المعنى الأصلي في المجاز
اللغوي ، وعدم إرادة الإسناد الحقيقي في المجاز العقلي ، فالقرينة في المجاز العقلي
هي الأمر الذي يوضح أن المسند قد أسند إلى غير ما حقه أن يسند إليه ،
وأن المتكلم قد تجاوز في بناء الكلام وتأليف العبارة ، وهذه القرينة إما لفظية
ولما غير لفظية .

انظر إلى قول أبي النجم العجلي :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبها كله لم أصنع
من أن رأيت رأسي كـ رأس الأضلع . فميز عنه فنزعا عن قنزع
جذب الليالي أبطى أو أسرع .

أفناه فيل الله للشمس اطلعى حتى إذا وارك أفق فارجمي (٢)

(١) الأسراب ٢/ ٢٥٧ .

(٢) القنزع : الشعر المتجمع في نواحي الرأس والأضلع : الذي سقط شعر مقدم
رأسه . وجملة أبطى أو أسرع : حال من الليالي بتقدير القول أى مقولاً فيها ذلك .
وجذب الليالي : مضياً . وارك : غيبك .

تره قد أسند الفعل « ميز » ، إلى جذب الليالي ، إسنادا مجازيا من إسناد الفعل إلى سببه أو زمانه ، والقرينة هي قوله : « أفماه قيل الله » ، وهي قرينة لفظية توضح عقيدة الشاعر ، وأنه مؤمن حيث أسند إفناه شعر الرأس إلى الله تعالى ، وما دام كذلك ، فإنه يكون قد تجاوز في كلامه الأول وهو إسناده : « ميز » ، إلى جذت الليالي ، . . . ومثله قول الصلتان العبدى ينصح ابنه عمرا :

أشاب الصغير وأفنى الكبير	مر كر الغداة ومر العشى
نروح ونغدو لحاجاتنا	وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المهر حاجاته	وتبقى له حاجة ما بقي
ألم تر لقمان أوصى ابنه	وأوصيت عمرا ونعم الوصى
فلتنا أننا مسلمون	على دين صديقنا والنبي

فالبیتان الآخران ببرزان عقيدة الشاعر ، إذ يريد بوصية لقمان قوله تعالى : (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ)^(١) والبيت الأخير ينصح عن إيمانه وأن ملته الإسلام . وتلك قرينة لفظية تدل على أن الشاعر قد تأول ولم يرد الحقيقة عندما أسند « أشاب وأفنى » ، إلى تعاقب الليل والنهار . وتقول : « هزنى الأيام وشيبنى الدهر والله وحده المستعان » ، فيكون الجملة الأخيرة : « والله المستعان » ، قرينة لفظية تدل على أن إسناد « هز » ، إلى « الأيام » ، و « شيب » ، إلى « الدهر » ، مجاز عقلي ، وليس إسنادا حقيقيا . أما القرينة المعنوية ، فهي أمر غير لنظي يدل على أن المتكلم متأول في إسناده ولم يرد الحقيقة ، بل أراد المجاز ، انظر إلى قوله تعالى : (إِنَّ قُرْعُونََ عَمَلًا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَكُمَا شَيْئًا يَنْصَمِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)^(٢) نجد أن إسناد الفعل : « يذبح » ، إلى « قرعون » ، مجاز عقلي لعلاقة السببية ، إذ قرعون لم يفعل الذبح بل أمر به وفعله جنوده بأمره فهو سبب لوقوع الفعل وليس فاعلا حقيقيا ، والقرينة

(٢) سورة القصص آية ٤ .

(١) سورة لقمان آية ١٣ .

هنا معنوية وهى استجالة صدور الفعل من « فرعون » عادة ، وإن أمكن ،
ذلك عقلا . ومثله قولك : بنى الأمير المدينة ، وهزم الأعداء . فإسناد البناء ،
وهزيمة الأعداء إلى الأمير مجاز عقلى ، قرينته استجالة وقوع الفعل منه
عادة ، وإن أمكن عقلا . وقد تكون القرينة استجالة وقوع الفعل من الفاعل
عقلا كقول الشاعر :

إذا المرء لم يحتل وقد جد حده أضاع وتلقى أمره وهو مدبر
فإسناد الفعل « جد » إلى المصدر مجاز عقلى قرينته استجالة قيام الفعل
بمصدره استجالة عقابية . ومثله قولهم : محبتك جاءت بنى إليك . وأقدمنى بلدك
حق لى على فلان . إذ يستحيل عقلا قيام المحبة ، والإفدام بالحق . وقد
تكون القرينة المعنوية هى صدور الكلام من المؤمن ، كقول النبى صلى الله
عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يأم » (١) ، وقوله عليه
الصلوة والسلام لإحدى أزواجه : « أحسنى جوار نعمة الله فإنها قلما تفرت
عن قوم فكادت ترجع إليهم » ، فرقوع الفعل منه صلى الله عليه وسلم ، قرينة
على أنه لم يرد الإسناد الحقيقى وأنه قد تأول عندما أسند الإنبات إلى الربيع
والقتل إلى ما ينبت الربيع والنفور إلى النعمة وكذلك الرجوع ، فالإسناد كما ترى
مجازى ، وقرينته صدور الكلام من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

ما الفرق بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى : وبما سبق يتضح لك أن المجاز
العقلى يجوز فى الإسناد ، أى فى النسبة بين المسند والمسند إليه ، فقولك : أنبت
الربيع ، ليس التجوز فى « أنبت » ، ولا فى « الربيع » ، وإنما فى إسناد الإنبات
إلى الربيع ، أما المجاز اللغوى فهو تجوز فى الكلمة لا فى الإسناد ، فقولك :
رأيت أسداً يتكلم ، المجاز فى لفظ الأسد حيث نقل من الحيوان المفترس إلى
الرجل الشجاع . يقول عبد القاهر : « وما طربق المجاز فيه المحكم قول الخنساء »

(١) حبطاً : الحبط انتفاخ البطن ، يقال : حبط بطنه إذا انتفخ يحبط حبطاً
انظر لسان العرب مادة : حبط .

ترتع ما غفلت حتى إذا اذكرت فإنما هي إقبال وإدبار
وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتسكون قد تجوزت في
نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدر ولغلبة ذلك
عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجسمت من الإقبال
والإدبار . وإنما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت
الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذي وضعها له في اللغة ، ومعلوم أن ليس
الاستعارة بما أرادته في شيء . (١) .

هذا والمجاز العقلي المتصرف فيه هو العقل ، إذ هو الذي يقيم الروابط
واصلات بين أجزاء الكلام ، ولذا سمي مجازاً عقلياً ، أما المجاز اللغوي
فمرجهه إلى واضع اللغة . إذ هو الذي وضع مفرداتها ، وحدد معاني المفردات ،
فكان التجوز في تلك المفردات بنقلها من معنى إلى معنى ، تصرف لغوي في
نطاق ما حددته اللغة ووضعت معانيه ، ولذا سمي التجوز في المفردات مجازاً
لغوياً . وبعض العلماء يرون أن الواضع - واضع اللغة - كما وضع مفرداتها
وضع كذلك تراكيبها ، وهؤلاء يسمون التجوز في الإسناد ، مجازاً لغوياً ،
كالتجوز في المفردات ؛ لأن كليهما تجوز في نطاق ما وضعت اللغة وحددته .
ولا أرى داعياً للخوض في مثل هذه الخلافات ؛ إذ لا يجنى الدارس من وراء
معرفة الوقوف عليها ثمرة تذكر .

صور المجاز العقلي : وينقسم المجاز العقلي باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما
إلى أربعة أقسام وهي :

١ - أن يكون طرفا الإسناد ، أي المسند والمسند إليه مستعملين استعمالاً
حقيقياً . والتجوز إنما هو في الإسناد فقط ، كقولك أنبت الربيع النبات ،
فمكل من . أنبت ، و الربيع ، يستعمل في معناه الحقيقي الذي وضع له ،
والمجاز في إسناد الإنابت إلى الربيع ومثله قولنا نسلتان العبدى :

أشباب الصغير ، وأفنى الكبير .
كر الغداة ومر العشى
وقول الآخر :

وشيب أيام الفراق مفارقة وأنشز نفسي فوق حيث تكون
يريد أن أيام الفراق رفعت نفسه عن مكانها في الجسم وبلغت بها الحلقوم .
وواضح أن أجزاء الكلام من مسند ومسند إليه مستعملة في معانيها الحقيقية ،
والجواز إنما هو في الإسناد فقط ، في إسناد د أشباب وأفنى ، إلى د كر الغداة
ومر العشى ، ، وإسناد د أشباب وأنشز ، إلى د أيام الفراق ، وقرأ الآيات
الكريمة : (وَإِذَا نُفِيتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) . (وَأُخْرِجَتْ
الْأَرْضُ أَنْقَاطًا) ، (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) ، (يَوْمًا يَجْمَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)
تجد أن الجواز في إسناد الزيادة للآيات ، والإخراج للأرض والرضا للعيشة .
والجمل لليوم ، أما طرفا الإسناد فلا جواز فيهما ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج :
يارب قد فرجت عنى غمى قد كنت ذا هم وراعى نجم
ه فنام ليلى وتجلي همى ه

فقد أسند النوم إلى الليل إسناداً مجازياً لعلاقة الزمانية ، أما النوم والليل
فمستعملان فيما وضعنا له . . وقول الآخر في الرناء :

فتى كان يعطى السيف في روع حقه إذا ثوب الداعى وتشقى به الجزر
فتى كان يذنيه الغنى من صدقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
وصفه بالشجاعة والكرم حيث كان يضرب بالسيف في سال الشدة
ويجيب الداعى الذى يشوب أى يرجع صوته حتى يسمع فيجيبه بالشجاعة
ويغيثونه ، وكانت الجزر تشقى به إذا كان يجرها لضيوفه . وقد أسند الشاعر
الإدنا . إلى الغنى والإبعاد إلى الفقر إسناداً مجازياً لعلاقة السببية ، أما طرفا
الإسناد فقد استعملنا فيما وضعنا له ، استعمالاً حقيقياً .

٢ - أن يكون المسند مجازاً لغوياً ، والمسند إليه مستعملاً فيما رضع

له استعمالاً حقيقياً ، كقولك : أحياء الأرض الربيع ، فالمسند د أحياء ، مجاز
أغوى حيث استعير الإحياء الإنبات . والمسند لإياه د الربيع ، مستعمل فيما
وضيح له . ومن ذلك قول المتنبي :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل ما يحيي التيسم والجدا

حيث يصف المدروح بالشجاعة والكرم ، فهو يحصل المال بشجاعته
وقوته ، ثم ينفقه على الضعفاء والمحتاجين كرماً وسخاء ، وقد أسند الشاعر
د الإحياء ، إلى د الصوارم والقنا ، و«القتل» إلى التيسم والجدا إسناداً مجازياً ،
وكل من القتل والإحياء مستعمل في غير ما وضع له استعمالاً مجازياً ، حيث
استعير القتل د الإنفاق ، والإحياء لجمع المال وتخصيله بقوة السلاح ، أما
المسند لإيهما د الصوارم والقنا ، د التيسم والجدا ، فمستعملان فيما وضعما
له استعمالاً حقيقياً . ونقول د أهلك الناس الدينار والدرهم ، . فالمسند د أهلك ،
إلى د الدينار والدرهم ، مجاز عقلى علاقته السببية ولفظ د أهلك ، المسند ،
ليس حقيقة ، بل مجاز عن الفتنة ، إذ الإهلاك مسبب عن الفتنة ، فهو مجاز
مرسل علاقته السببية وقد أسند إلى الدينار والدرهم إسناداً مجازياً ، فالتجوز
واقع في الإسناد ، وفي المسند ، في الإسناد مجاز عقلى وفي المسند مجاز لغوى .
وانظر في قوله تعالى : (رَبُّ إِنِّي وَهَنُ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)^(١)
حيث أسند اشتعل ، إلى الرأس ، إسناداً مجازياً لعلاقة المكانية ، إذ الرأس
مكان للاشتعال والذي يفعل الاشتعال حقيقة إنما هو الشعر ولفظ المسند
د اشتعل ، مجاز لغوى ، إذ المراد به : ظهور شيب الرأس ، فاستعير الاشتعال
للظهور ، وتفيد هذه الاستعارة عموم الشيب وإحاطته بجميع الرأس ، كما تفيد
المفاجأة في ظهور الشيب ، فهو اشتعال وليس ظهوراً ، وتفيد أيضاً حب زكريا
عليه السلام - لهذا الشيب حيث أحس به إحساساً مشرقاً مضيئاً ، لا تكاد

(١) سورة مريم آية ٤ .

نراه في شعر الشعراء الذين يصورون ظهور الشيب بالراس تصويراً حزيناً
مؤلماً إذ يكون سبباً في فراق الأحبة وإبتعادهن . انظر إلى قول القائل :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحكك المشيب برأسه فبكى

وقول الآخر :

فالت قتيلة ماله قد جللت شيباً شواته

وقول الثالث :

له منظر في العين أبيض ناصع ولا يكتنه في القلب أسود أسفع^(١)

تجد أنهم يشعرون بالشيب شعوراً حزيناً كئيباً ، لأنه يؤذن بتولى الشباب ،
ويعلم عن فراق الحبيبات . ونعود إلى المجاز العقلي لننظر في شواهد هذه
الصورة التي وقع التجوز فيها في المسند وفي الإسناد ، فمنها قولهم : د سال بهم
الوادي ، استعير السيلان للسير ، ثم اشتق منه سال بمعنى سار على سبيل
الاستعارة التبعية ، وأسند د سال ، إلى د الوادي ، إسناداً مجازياً لعلاقة
المكانية ، وبفقد هذا التجوز المبالغ في سرعة سير القوم وكان الممكن قد
فاض بهم ودفع ، ومثله قول القائل :

أخذنا بأطراف الأحاديث بينما رسالت بأعناق المطى الأباطح

وقول الآخر :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصـاره بوجه كالدانير

ففي إسناد السيلان ، إلى د الأباطح ، وإلى د شعاب الحى ، مجاز عقلي
علاقته المكانية ، والمسند د سال ، مجاز لغوي حيث استعير د السيلان ، للسير ،

(١) الأبيض الناصع : شديد البياض . والأسود الأسفع : هو الأسود المائل إلى
حمرة ، وقد استعير الأسود الأسفع لما يحدثه الشيب من الهم والحزن .

ولا يخفى عليك بلاغة المجاز في البيتين ، فقد أبرز شدة اندفاع المطى في الأباطح ، وسرعة اندفاع الأنصار إلى الداعى ، وكأن الشعاب قد فاضت بهم ودفعتهم إليه ، وكان الأباطح هى التى تسيل وتمضى لا الإبل ، وما من شك فى أن المجاز اللغوى قد ساهم فى تحقيق هذه المبالغة بنصيب وافر .

٣ - أن يكون المسند إليه مجازا لغويا والمسند مستعملا فيما وضع له استعمالا حقيقيا ، كقولك : أنبت شباب الزمان الثبات فالمسند أنبت ، مستعمل فيما وضع له استعمالا حقيقيا ، والمسند إليه شباب الزمان ، مجاز لغوى ، حيث استعير الزمن الربيع والسناد الإنجاب إل شباب الزمان ، مجاز عقلى علاقته الزمانية ... وانظر إلى قول ابن خفاجة الأندلسى :

ولنى إذا ما شافنى لسمامة رنين وهزنى لبارقة ذكرى
لأجمع بين الماء والمار لوعة مقولة ريبا ومن كبد حرى

تجد أنه قد أسند الشوق إلى الرنين لسمادا مجازيا ، لأن الرنين باعث الشوق وليس بفاعله ، والرنين فى البيت مستعار لهدبل الخمام وسجده وترجيده .
ونخذ قول الفرزدق :

سقامها خروق فى المسامع لم تكن علاضا ولا مخبوظة فى الملاغم^(١)

فهو يتحدث عن إيلهم المهملة فى الصجرء ، والنى ترد الماء فلا يمنهما مانع .
وخروق المسامع : مجازى الصوت فى الأذن ، يقال : جرى حديثه فى خروق المسامع أى : سمعه الناس ، ومنه قول القائل :

وكيف ترى إيلى بعين ترى بها سواها وما طهرتها بالمدايع
وتلتذ منها بالحديث وقد جرى حديث سواها فى خروق المسامع

(١) الملائط : صفة العنق ويطلق على السمة فى عنق البعير مجازا مر - لا من إطلاق الحمل على الحال وقد كثر هذا حتى صار كأنه حقيقة مخبوظة : موصومة والملاغم : الأشداق وما حولها .

أى : وقد جرى حديث سواها في أذنك ، وقد استعمل الفرزدق خروق المسامع مجازاً مرسلًا في شهرة الذكر وبعد الصيت ، من إطلاق المحل على الحال ، وفي إسناد السقى إلى خروق المسامع مجاز عقلي علاقته السببية ، لأن خروق المسامع بمعنى الذكر وبعد الصيت سبب في السقى ، وليست فاعله وهذا التجوز وضح السبب وأبرزه حين خيل أنه هو الذى سقى الإبل (١) :

٤ - أن يكون كل من المسند والمُسند إليه مستعدلاً في غير ما وضع له استعمالاً مجازياً ، فيكون في الجملة ثلاثة مجازات ، مجاز عقلي في الإسناد . ومجازان لغويان في كل من المسند والمُسند إليه . وقد مثل البلاغيون لهذا بقولهم : أحيا الأرض شباب الزمان ، حيث استعير الإحياء للإنبات شباب الزمان للربيع وفي إسناد أحيا ، إلى ، شباب الزمان ، مجاز عقلي علاقته الزمانية ، ومن ذلك قولنا : دأحيانا مصابيح الإسلام ، ودأحيانا نبراس من الله ، فقد استعيرت الحياة للهداية ، ومصابيح الإسلام للعلماء ، والنبراس ، للقرآن ، وفي إسناد الحياة إلى كل من المصابيح والنبراس مجاز عقلي ، في كل جملة ثلاثة مجازات مجازان لغويان في كل من المسند والمُسند إليه ، ومجاز عقلي في الإسناد .

استلزام المجاز العقلي الحقيقية : ما من ريب في أن المجاز العقلي يستلزم الحقيقة العقلية ، فكل تجوز في الإسناد له في التقدير فاعل حقيقي ، وإذا أسند إليه المسند صار الإسناد حقيقة ، غير أن الفاعل الحقيقي تارة يكون تقديره واضحاً يدرك بيسر وسهولة كقولك : شفى الطبيب المريض وأنبت الربيع النبات ، وكقول الفرزدق :

يحمى إذا اختط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أراعل (٢)

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٩١ .

(٢) اختط السيوف : استات . وأراعل : من راعل النبات فهو أراعل إذا تهدأت أغصانه . والمعنى : أن الضرب بطير سواعد المضروب ويقطع لحمة فيدعه مدلى كما تتدلى الأغصان المتهدلة .

وقول الله عز وجل : (أُرَائِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ)^(١) . فالفاعل الحقيقي فى مثل هذه الشواهد واضح وجرى به الاستعمال العربى حيث قالوا : شنى الله المريض ، وأنبت الله النبات ، وريج الناس فى تجارتهم ، ونحسى نساءنا بضرب شديد أرعل . ذو . وتارة يكرن الفاعل الحقيقى خفيا لا يدرك إلا بالتأمل والنظر ، كقولهم : سرتنى رؤيتك وأمتعنى حديثك ، ومحبتهك جاءت بى وأقدمنى بلدك حتى على فلان . وكقول أبى نواس :

وجوه عندنا تحكى يدارة وجهها القمر
يزيدك وجهها حسنا إذا ما زدته نظرا

وقول الآخر :

أنتك عاندا بك مندك لما ضاقت الحيل
وصيرنى هواك وبى كطيني بضرب المائل^(٢)
فإن ظفرت بكم نفسى فما لا قيته جمل
وإن قتل الهوى رجلا فإنى ذلك الرجل

فالفاعل الحقيقى فى هذه الشواهد هو الله تعالى إذ التقدير : سرتنى الله وأمتعنى وجاء بى وأقدمنى بلدك بسبب رؤيتك وحديثك ومحبتهك وحتى على فلان ، وكذا التقدير فى البيتين : يزيدك الله حسنا بسبب النظر إلى وجهها ، وصيرك الله بسبب هواه ، ولما كان الإسناد الحقيقى فى مثل هذه الشواهد لم يجر به الاستعمال العربى ، وأن الإسناد المجازى قد كثر وجرى على ألسنتهم ، خفى الإسناد الحقيقى ، وصار لا يخطر على البال ولا يدرك إلا بشئ من التأمل والنظر . وقد ذكر الحقيقة الثابتة التى تقرر أن الله تعالى هو خالق الأفعال كلها ،

(١) سورة البقرة آية ١٦ .

(٢) الطين فى الأصل : الهلاك وقد استعير هنا لما وصل إليه من سوء الحال

فى هواه .

هذا واستلزام المجاز العقلي الحقيقية العقلية قد أجمع عليه البلاغيون واتفقوا
ولكن بعضهم خفي عليه كلام عبد القاهر في هذا الصدد فاعتقد أنه يشكر أن
يكون لكل فعل فاعل حقيقي يصار إليه عند التقدير ، وكلام عبد القاهر
لا يفيد هذا ، إذ يذكر أن من أساليب المجاز العقلي ما يمكنك أن ترجع بالإسناد
فيه إلى الفاعل الحقيقي ، مثل نام ليلي وتجلي همى ، وقوله تعالى : (فَمَا رَیَّتْ
تِجَارَتَهُمْ) وقول الشاعر :

تجوب له الظلماء عين كأنما زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر
فمن السهل معرفة الفاعل الحقيقي في مثل هذه الشواهد ، إذ يقال : : نمت
في إيلي وربحرا في التجارة ، وتجوب الجمل الظلماء بعينه ، وهناك أساليب من
المجاز العقلي لم يألفها الاستعمال مسندة إلى ماحقها أن تسند إليه ، مثل : أقدمني
بلدك حق لي عليك ، وقوله :

وصيرني هواك وبني الحية يضرب المثل
وقول الآخر :

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظراً

يقول عبد القاهر : : إنك لا تستطيع أن تزعم أن ، اصيرني ، فاعلا
قد نقل عنه الفعل فجعل للموى ، كما فعل ذلك في : : ربحت تجارتهم ، :
ولا تستطيع كذلك أن تقدر ، ليزيد ، في قوله : : يزيدك وجهه ، فاعلا غير
الوجه . . . ، (١) ، ومراد عبد القاهر بعدم الاستطاعة أنه لم يؤلف الاستعمال
الحقيقي في مثل هذا ولم يجر على السنة القوم ، بل الذي ألف وكثر استعماله
وجرى على السنة هو الاستعمال المجازي . . . وقد أخذ هؤلاء الذين خفي
عليهم كلام عبد القاهر بقدرهم لما ذكر من شواهد فاعلا حقيقية ما ثم يقولون :
إن أي مسند إليه يرضى العقل صحة إسناد هذه الأفعال إليه يكون الإسناد

معه حقيقة^(١) . . . وعبد القاهر لم ينكر هذا كما رأينا ، وقد وضعنا مراده . .
ولا نرى للخوض في مثل هذه الخلافات فائدة توجب ، ولذا ننصح الدارس
بعدم الخوض فيها وأن يتجاوزها إلى ما هو مفيد ومثمر . .

إنكار المجاز العقلي : وقد أنكر السكاكي المجاز العقلي ورجعه إلى
الاستعارة المكنية ، فقال في نحو : أنبت الربيع البفل . إن الربيع استعارة
مكنية ، حيث شبه الربيع بالفاعل الحقيق وهو الله تعالى في تعاقب الفعل بكل
منهما ، ثم حذف المشبه ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإنبات ، وإنبات
الإنبات للربيع استعارة تخيلية ، وبهذا يخرج السكاكي المجاز العقلي عن علم
المعاني ويضعه في علم البيان مع صور الاستعارة المكنية ، والذي دفعه إلى هذا
كما قال - الرغبة في تقليل الأقسام ، ومن أجل تلك الرغبة أنكر أيضا
الاستعارة التبعية وأدخلها في المكنية . . . ومن أنكروا المجاز العقلي أيضا
يحيى بن حمزة العلوي ، صاحب الطراز ، حيث عده من المجازات المركبة
اللاغوية ، إذ يقول : دأبم أن هذه المجازات المركبة التي ذكرناها ومثلناها
بقوله تعالى : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)^(٢) ، وقوله تعالى : (مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ)^(٣) ، وقوله تعالى : (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)^(٤)
وغير ذلك من الأمثلة ، فإنها كلها مجازات لغوية استعملت في غير موضوعاتها
الأصلية ، فلأجل هذا حكمنا عليها بكونها لغوية ، وبياننا هو أن صيغة دأبت ،
وأخرج ، ودأخذ ، وضعت في أصل اللغة بإزاء صدور الخروج والنبات
والأخذ من القادر الفاعل . فإذا استعملت في صدورها من الأرض ، فقد
استعملت الصيغة في غير موضوعها ، فلا جرم حكمنا بكونها مجازات
لغوية ،^(٥) وما لا ريب فيه أن تقليل الأقسام مما يفيد الدارس وينفع الباحث ،

(٢) سورة الزلزلة آية ٢

(٤) سورة يونس آية ٢٤

(١) انظر نهاية الإيجاز

(٣) سورة البقرة آية ٦١

(٥) الطراز ١/٧٥ ، ٧٦

بشرط ألا يؤدي هذا التقليل إلى تجاهل الخصوصيات ونحن عندما نقرأ صور
المجاز العقلي، وننظر في شواهد نرى لها مذاقا يختلف وخصوصيات تبتدئ من
مذاق الاستعارة الممكنية وعن خصوصياتها، وكذا القول في المجاز المركب،
وفي الاستعارة التبعية، ولا يخفى عليك هذا عندما تنظر في قوله تعالى: (فَمَا رَیَحْتُ نِجَارَتَهُمْ) وقوله عز وجل (فَهُوَ فِي رِیَاسَةِ رَاضٍ) وفي
قول الفرزدق:

سقاها خروق في المسامع لم تمكن علاطا ولا غبوظة في الملاغة

وقوله أيضا:

يحمي إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أراعل

وقول الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألقت كل نائمة لا تنفع

وقول الحبيب صلي الله عليه وسلم: خير الناس رجل ممسك بذيئ فرسه
كلما سمع هيفة طار إليها . . . وقولنا المتردد أراك تقدم رجلا وآخرا
أخرى . . . وقول ابن ميادة:

ألم تك في بمنى يدك جعلتني فلا تجعلني بعدها في شمالكا

وقول الآخر:

فإن تعافوا العدل والإيمان فإن في أيدينا نيرانا

حيث ترى أن الخصوصيات التي اقتضتها المجاز العقلي في الآيتين
السكرينيتين، وفي بيتي الفرزدق، تختلف عن الخصوصيات التي اقتضتها
الاستعارة الممكنية في بيت أبي ذؤيب، والاستعارة التبعية في الحديث الشريف،
والاستعارة التمثيلية في القول المذكور وفي بيت ابن ميادة . . . والاستعارة
التصريحية في البيت الأخير . . . ويتضح لك هذا عندما تدرس هذه الألوان

في علم البيان ، والمهم الآن أن تعرف أن مذاق المجاز العقلي يختلف عن مذاق تلك الألوان ، ففي الآية الأولى أفاد إسناد الربح إلى التجارة المبالغة في تأكيد سببية التجارة في الربح ، وفي الآية الثانية نجد أن إسناد الرضا إلى ضمير العيشة أفاد كمال المبالغة في رضاهم بها وانسجامهم فيها ، وفي البيت الأول للفرزدق أفاد إسناد السقي إلى خروق المسامع ، تأكيد هذه السببية بمعلمها فاعلا للسقي ، وكذا القول في يحمى نساءنا ضرب ، وهكذا تجرد للمجاز العقلي مذاقا لا تجده في الألوان الأخرى ، فلا مجال لإنكاره إذا ورده إلى المجازات المركبة ، أو رجعه إلى الاستعارة المكتوبة رغبة في تقليل الأقسام ، لأن تقليل الأقسام : إذا تنافى مع الخصوصيات التي يقتضيها المقام ، فلا عبرة لهذا التقليل ، ولا يصح الأخذ به . .

هذا وقد دفع الخطيب القزويني إنكار السكاكي للمجاز العقلي دفعا شديدا ورده بردود قوية وذلك حيث يقول : « وفيما ذهب إليه نظر ، لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله تعالى (فَمَوْ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ) صاحب العيشة لا العيشة وبما في قوله : (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِي) فاعل الدهق لا المني ، لأن مبنى الاستعارة بالكناية عنده أن المشبه بصير من أفراد المشبه به ، والاتصاف بالإضافة في نحو قولهم : فلان نهاره صائم ، لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح والا يكون الأمر بالإيقاد على الطين . في الآية : (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الْقَالَيْنِ) - هَامَانَ مع أن النداء له - بل يكون الجنوده الذين شبه بهم - وأن يتوافت جواز التركيب في نحو قولهم : أنبت الربيع البقل وسرنتي رقيبك على الإذن الشرعي ، لأن أسماء الله تعالى توقيفية . . ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم : فلان نهاره صائم ، فإن الإسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن اللان . لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة وبوجب حمل على التشبيه . . (١) .

بلاغة المجاز العقلي ودقة مسلكه :

ويمكن بلاغة المجاز العقلي فيما يقدمه من المبالغة في التعبير ، وإيجاز القول ، وإثارة الخيال عندما يستند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي . كما يرجع بلاغة المجاز العقلي إلى أنه يفتح أمام المتكلم الميدان للتفنن في القول ، وتلوين العبارة ، وإخضاع الكلام لما يريد ، وتشكيل البناء حسبما يهدف إليه ويرى ، فهو يلجأ إليه لنفي تهمة ، أو لتخلص من جريمة ، أو لتحقيق مقصد من المقاصد ، حيث يجد في إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي ميداناً رحباً لتحقيق هذه المقاصد . ولذا يقول فيه عبد القادر . . وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة . ومادة الشاعر المفاخر والمكاتب البليغ ، في الإبداع والإحسان ، والانساع في طرق البيان ، وأن يحى بالكلام مطبوعاً مصنوعاً ، وأن يضعه بعيد المرام ، قريباً من الأفهام ،^(١) ويتضح لك هذا من خلال تأملك لشواهد وأمثلة . . انظر في قوله تبارك وتعالى : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَاطًا) نجد أن الفعل قد أسند إلى مكانه ، وفي هذا الإسناد تخييل محرك ومثير . إذ يصور لنا الأرض فاعلة جاهدة ، تخرج أنقاطاً وتقذف بنفسها ما بداخلها ، فلا تبقى في باطنها شيئاً . وتأمل الشواهد التي أسند فيها الفعل إلى سببه أو إلى زمانه أو مكانه نحو : بنى الأمير ونهاره صائماً وليلاً قائم وطريق سائر : . لاحظ ما فيها من الإيجاز ونقل الالفاظ ، إذ المراد : بنى العمال بأمر الأمير وصام الناس في النهار وقام العابد الليل ومضى السائرون في طريقهم ، وهذا عن إفادة الإيجاز نجد التجوز في تلك الأمثلة قد أفاد المبالغة في وقوع هذه الأفعال وشدة دلتها على البناء وتأنيدهم كالصوم وتنام القيام وسرعة السير في الطريق . . وكثيراً ما يلجأ المتكلم إلى المجاز العقلي لتحقيق مقصد من المقاصد كما نرى في قوله : فلان قتله جملة وقضى عليه غروره ، وهم يريدون بهذا تبرأ

القائل من جريمة قتله ، ونفى التهمة عن قضى على غيره ، وذلك بإسناد القتل إلى جهل المقتول ، وقضى ، إلى غرور المقضى عليه وتكبره وعجزه . فقد وجدوا في المجاز العقلي تحقيقاً لهذا المقصد .

ومن هذا ما روى أن عمار بن ياسر - رضى الله عنه - لما قتل يوم صفين وكان في جند علي - كرم الله وجهه - ، اضطرب أهل الشام لهمهم بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « عمار تقتله الفئة الباغية » ، فقال لهم معاوية : - رضى الله عنه - : « إنما قتله من أخرجه » ، فقد وجد معاوية - رضى الله عنه - في المجاز دفعا للتهمة عن جماعته وإزالة لاضطراب الناس وارتياحهم . ومنه أيضا ما ورد أن زياداً عندما كان والياً على الكوفة من قبل معاوية ، اتهم حُجْر بن عدى وأصحابه بالخروج على معاوية ، وأشهد على ذلك سبعين من وجوه الكوفة ، ثم أرسلهم إلى معاوية مع شهادتهم بهذا الخروج فقتل معاوية حُجْرًا وسجبه ، فلما حج معاوية ، مر على أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، فاستأذن عابها فلما أذنت له وقعد سألته : « أما خشيت الله في قتل حُجْر بن عدى وأصحابه ؟ » أجاب : « لم أقتلهم ، وإنما قتلهم من شهد عليهم . فقد وجد في المجز ما يدفع به عن نفسه تهمة قتل حُجْر وأصحابه . »

هذا والمتكلم يحتاج في استخدامه لهذا المجز أن يهيم به العبارة له . فليس كل شيء - كما يقول عبد القاهر - يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز ، بل تجدك في كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيم به الكلام ، وتصلحه لذلك بشيء تنوخواه في النظم ، وكلاهما المتكلم العبارة لهذا المجاز تجده قد صار أوقع في النفس والطف ، وآكد وأبلغ . انظر إلى قول الشاعر :

تناسى طلابُ العمارية إذ نأت بأسجع مرقال الضحى قاق الضفر
إذا ما أحست الأفاعى تحبزت شواء الأفاعى من مُثَلَّةِ سُور

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير مألأى ولا صفر^(١)

تجده قد أسند تجوب ، إلى العين ، والأصل : تجوب الجمل بعينه
الظلماء ، ولكنه عدل إلى المجاز فأسند الفعل إلى آله ، ثم هيا البيت وتوخى
من النظم ما يجعل المجاز اللطيف وأوقع في النفس . إذ تراه نكر العين ليتسنى
له وصفها بالجملة الواقعة بعدها ، ولو قال : تجوب له الظلماء عينه ما تمكن
من وصفها بتلك الجملة ، وعندما نكر العين وقطعها عن الإضافة إلى الجمل
وصلها به بقوله دله ، فبدون الضمير في دله ، يصير الكلام لا علاقة
له بالجمل (٢) .

وانظر في قول الفرزدق :

يحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعل

تجده قد قدم الشرط : إذا اخترط السيوف ، على الفاعل والمفعول
فأبرز بهذا صعوبة الموقف وشدة الحال . ثم إن بناء الفعل للمجهول واختارط ،
قد أشار إلى سرعة مل السيوف بالندفاع وتهور ، وتأمل القولين : يحمى
نساءنا ضرب إذا اخترطنا السيوف ، ويحمى إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب
تجد أن تقديم الشرط والمجئ به معترضا بين الفعل وفاعله ، قد هيا العبارة
للمجاز العقلي فدق ولطف ، ووقع في النفس موقعه ، وخذ قول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ذكرت فأنبأها هي إقبال وإدبار

(١) الأسجع من الإبل : الرقيق المشفر . ومرة قال : سريع المدو والصفر :
الحزام فهو فاق الصفر من شدة الضمور . وشواء الأفاعى : جلودها . وتميزت :
انقبضت . والمثلة السمر : الأخفاف ولها من السير على الحجارة والسمر منها أقواها .
وصفر : خالية ، وتجوب : تقطع وتنفذ .

(٢) انظر الدلائل ٢٩٠ .

تجدد أن أسلوب القصر قد هباً المجاز العقلي أحسن نهى حيث قصرت
النافذة على الإقبال والإدبار ، وقارن بين : هى إقبال وإدبار ، وإنما هى
إقبال وإدبار ، فستتضح لك قوة المبالغة المنبعثة من أسلوب القصر . ثم
تأمل قول كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

تجدد أن اختيار هذا الجزء من الإبل والأعناق ، قد أضنى على العبارة
جمالاً وأبرز وجلى ما يفهمه المجاز العقلي من تخيل وتصوير الأباطح متحركة
تدفع به هذه المطى دفعا وتسيل بها سيلانا ، وذلك لأن حركة الإبل عندما
تسرع فى السير تظهر تمام الظهور فى أعناقها ، ويتضح لك هذا عندما تقارن
بين قولك وسالت بالمطى الأباطح وبين ما قاله كثير :

.. وسالت بأعناق المطى الأباطح ..

وهكذا تجد المجاز العقلي فى حاجة إلى تهينة العبارة وتوخى النظم ، وأن
الشاعر أو المتكلم عندما يراعى هذا فيتوخى من النظم ما يلائم المجاز ويهين
العبارة له ، فإنه يقع فى النفس موقعه ، ويحقق ما يقصده الشاعر من الإيجاز
والمبالغة والتخييل . . .

الفصل الثاني

أحوال المسند إليه

المسند إليه هو أحد أجزاء الجملة - كما عرفت - إذ تتكون الجملة من مسند ومسند إليه وأحد المتعلقات - إن وجد - كالمفعول والظرف والمصدر والجار والمجرور .. وسنتناول في هذا الفصل أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتعريف وتنكير وإتباع وتقديم وتأخير ... ثم نتبع ذلك بأحوال المسند وأحوال المتعلقات في الفصلين التاليين .. وفي ختام هذا الجزء سنعرض لظواهر أسلوبية تشمل كل أجزاء الجملة المذكورة .

حذف المسند إليه : لا بد لكل حذف يقع في اللغة من وجود أمرين بدونهما يكون الحذف عبثاً وضرباً من الخذيان ، وهذان الأمران هما :

١ - وجود القرينة الدالة التي تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه .

٢ - وجود سر بلاغي يدعو إلى الحذف ويرجعه على الذكر .. وهذه الأسرار كثيرة ، ولا يمكن استقصاؤها والإحاطة بها ، ولذا يقول عبد القادر في إبراز فوائد الحذف وبيان قيمته البلاغية : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد الإفادة ، وتجهدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأنتم ما تكون بياناً إذا لم تبين .. وهذه جملة قد تنسكرها حتى تحجب ، وتدفعها حتى تنظر ، وأنا أكتب لك بديناً أمثلة عما عرض فيه الحذف ، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه ، وأقيم الحجة من ذلك عليه .. » (١) ، وأخذ يعرض

كثيراً من مرادف الحذف المبتدأ والمفعول مبيناً دقة الحذف فيها ومن بته وفضله على الذكر، وموضحاً أن تقدير المحذوف والنظر إليه واعتباره في الكلام يعد تمكناً وبذهب بمزية الحذف وبضيق رونقه تكلف أن ترد ما حذف الشيء وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت وأن رب حذف عن قلادة الجهد وقاعدة التجويد إنك ترى نصبة الكلام وهيئة زوم منك أن تنسى هذا المبتدأ أو تباعده عن وهمك، وتجهده ألا يدور في خلدك، ولا يعرض لحاظك وتراك كأنك قد وقاه ترقى الشيء بكره مكانه، والثقل يخشى هجومه . . ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحنة كيف تذهب إن أفت رمت التكلم به فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وأنس من النطق به (١).

هذا ونستطيع أن نقول إن هناك ثلاث مزايا تراها كاملة وراء كل حذف يقع في اللغة وهي: الإيجاز، وإثارة وتحريك خيال المخاطب وأحاسيسه ليدرك من العبارة ما طوى ذكره وسكت عنه، والاحتراس عن العبث ببناء على الظاهر؛ لأن ذكر الكلمة التي أفهم عليها الدليل وأشار إليها السياق وأرشدت إليها قرآن الأحوال، يعد عبثاً بمقتضى البلاغة، وإن كان لا يسمى عبثاً عند التحقيق، ولذا قيده بقولهم: «بناء على الظاهر»

وعندما نمعن النظر ونتأمل الشواهد التي طوى فيها المسند إليه نجد أن أهم الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذفه تنحصر فيما يلي:

ذكر عبد القاهر أن حذف المسند إليه المبتدأ، يكثر عند ذكر الديار والأطلال، ويترد كذلك عند المـحـ والفتخر وعند المنجاء أو الرنا. إذ تراهم

يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام ويستأنفون كلاماً آخر ، وهم إذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ . .
ويمرض عبد القاهر كثيراً من الشواهد لهذا نحو قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليل عوائده وهاج أهواك المكنونة الطال
ربيع قواء أذاع للمعصرات به وكل حيران سار ماؤه خضيل^(١)
أراد : ذلك ربيع قواء خضيل المبتدأ ...

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة :

هل تعرف اليوم رسم الدار والطلال كما عرفت بجفن الصيقل الخلال
دار لميعة إذ أهلى وأملهم بالكاسية نرعى المار والغزلا^(٢)
كانه قال : تلك دار .. ونحوه قول ذى الرمة :

إلى لوائح من أطلال أحورية كأنها خيال موشية قشب
ديارمية إذ مى تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب^(٣)
أراد : تلك ديار أو هذه ديار ...

وبما ورد من ذلك في مقام المدح ونحوه قول الشاعر :

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاموا

(١) قواء : موحش قفر . وللمعصرات : السحاب . وكذا الحيران والارى وخضيل : كثير .

(٢) الصيقل : السيف المستول . والخال : مبردها خلة وهي جفن الشيف المبطن بالجلد ونحوه والكانسية : موضع .

(٣) اللوائح : ماتبين ولاح . وأحوية : بيوت مجتمعة مبردها : حواء . وموشية : منقوشة . وقشب : جدد .

بناء مكارم وأساءة كلام دعاؤهم من السكب الشفاء (١)

وقول عمرو بن معد يكرب :

وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد د تنمروا حلقا وقد (٢)

وقول الآخر :

سأشكر عمرا إن تراخت مني
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
أيادى لم تمنن وإن هى جلت
ولامظهر الشكوى إذا النزلت
وقوله :

أضأت لهم أحسابهم ووجودهم
نجوم سماء كلما انقض كوكب
دجى الليل حتى نظام الجزع ثاقبه
بدا كوكب تأوى إليه كواكبه (٣)
وقول الأقيسر الأسدى فى هجاء ابن عمه :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه
حريص على الدنيا مضيع لدينه
وايس إلى داعى الندى يسريع
وايس لما فى بيته بمضيع

أرادوا : هم بناء مكارم .. هم قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. هو قتي ..
هم نجوم سماء .. هو سريع وحريص ..

وعبد القاهر كما عاده يحملك إلى الذوق لتدرك سر بلاغة الحذف فى تلك

(١) السكام : الجرح . والسكب : داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب ، وكانوا
يمتقدون أن دم الشريف إذا نظر فى فم المصاب بداء السكب ، فإنه يشبهه .

(٢) كعب ونهد : قبيحتان . وتنمروا : تشبهوا بالبور . والقدر : الجلد تصنع منه
بعض الدروع . والحلق : جلق الدروع .

(٣) الجزع : خرزفيه بياض وسواد .

الشواهد ، ويطلب منك أن تقارن بين الجمل وقد قدرت المحذوف وبين ما قاله الشاعر لتدرك بعد ما بين الكلامين وتعرف أن تقدير المحذوف قد أفسد المعنى الذى أراده الشاعر .

وأز يدك أن حذف المبتدأ عند ذكر الديار والأطلال يحقق معنى أراده الشاعر وهو كراهته أن تنسب تلك الرسوم والأطلال والدمى والآثار التى تغيرت وتبدلت وأذاعت بها المعصرات فصارت تلوح لك كالخلل الموشية ، وكانت من قبل دياراً لله والفرح . كراهته أن تنسب تلك الديار التى بدلت إلى اسم حبيبته فيقال : تلك ديارمية . وذلك ربع ليلى ، ونظير هذا أن ترى صديقاً حميماً لك قد رسب فى الامتحان ولم يوفق فيقول محدثاً عنه : رسب . . لم ينجح ، ولا تذكر اسمه كراهية أن تضيف الرسوب إليه . . وقارن كما يقول عبد القاهر بين : ديارمية ، وبين تلك ديارمية ، فستجد أن ذكر اسم الإشارة قد جعل ديارمية تنسب إليه وهو مشار به إلى الرسوم والدمى التى عصفت بها الرياح فصارت تلوح لك كالخلل الموشية القشب ، أما طيه والسكرت عنه فيجعل الديار دياراً باقية بذكر بانها وحياتها ، ذكريات اللعب ولهو الشباب وحياة الحب والعشق .

وشئ آخر وراء هذا الحذف وهو أن الشاعر عند ذكر الأطلال والديار والمنازل التى بدلتها الأيام وغيرها الزمن ، يكون ممتلئاً بالحنين ، متوتراً بالحس ، حزينا كئيباً ، وتلك حال تقتضى الحذف ، وتدعو إلى طى الكلمات وإيجاز القول .

أما حذف المبتدأ فى مقام المدح ونحوه ، عندما يقطع الشاعر المعنى مستأنفاً معنى آخر ، فأرى أن من الحذف عندئذ هو رغبة الشاعر فى تميز هذا المعنى ، وظهورها صغرفاً متباينة وألواناً مختلفة وأجناساً متغايرة وحذف المبتدأ وطيه فى تلك الجمل المستأنفة ، يحقق هذه الرغبة ، إذ يجعل الجمل

المستأنفة مستقلة بمعانيها ، غير مرتبطة بما قبلها ، وعليك أن تقارن بين قولهم
 بناء مكارم .. فوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. فتى غير محجوب الغنى .. نجوم
 سماء كلها .. سريع إلى ابن العم ، وبين قولك : هم بناء مكارم .. هم قوم .. هو
 فتى .. هم نجوم سماء .. هو سريع إلى ابن العم .. فستجد أن ذلك الضمير
 المسند إليه ، قد ربط بين المعاني المسندة إليه ، وبين المعاني السابقة ، إذ
 يرجع إلى المتحدث عنهم فيجعل تلك الأوصاف التي يراد وصفهم بها واحدة
 مرتبطة يندمج بعضها في بعض ، وهذا ما لا يريده الشعراء في هذا المقام ، إذ
 أرادوا بخذفه من صدر الاستئناف ، تميز المعاني المستأنفة عن المعاني السابقة
 وكأها - كما قلت - ضروب متباينة وأجناس متغايرة ، وإضافة تلك المعاني
 إلى المتحدث عنهم على هذا النحو مما يفيد كمال المبالغة في المدح أو الفخر أو
 الرأاء أو الهجاء .. إلخ .

وشىء آخر وراء حذف المسند إليه في هذا المقام ، وهو أنه ينبغي بمدى
 انفعال الشاعر ، وامتناً نفسه بتلك المعاني ، فيقبضها صنبوراً مختلفة ، وألواناً
 متميزة .

ومن الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذف المسند إليه : « ضيق المقام »
 ويرجع ذلك إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن ، وألم ، أو ملل وسأم ،
 أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شيء ، أو إلى سماعه أمراً غريباً يدعو
 إلى التعجب ويشير الاستغراب ... انظر إلى قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ
 مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا : لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُمْ بِفُلَامٍ عَاقِبٍ . فَأَقْبَلَتْ أَمْرًا أَنَّهُ
 فِي صَرَقَةٍ فَتَسَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ ^(١)) ، فقد حذف المسند
 إليه وتقديره : « أنا عجوز عقيم » ، وسر بلاغة حذفه ، يرجع إلى تعجبها من
 بشارة الملائكة ، واستبعادها أن تلد وهي عقيم وقد وصلت حد الكبر وصار

بعلها شيخا كبيرا ، وكان المقام وما هي فيه من تعجب واستغراب واستبعاد
يضيق بالمسند إليه ويقتضى طيه وحذفه... وتأمل قول الشاعر :

قال لي : كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

تجد أن ضيق المقام بسبب ما هو فيه من حزن وألم قد اقتضى حذف
المسند إليه ، وتقديره ، قلت : أنا عليل وحالي حزن دائم وسهر طويل ..
وتسمع من ينادى مستغيثا : حريق أو غريق ، والتقدير : هذا حريق ، وهذا
غريق ، فضيق المقام بسبب خشية المنادي أن تفوت فرصة الإنقاذ ، جملة
يطوى المسند إليه ، ويبادر بذكر المسند .. والحذف لضيق المقام يقع كثيرا
في اللغة ، ومنه في غير المسند إليه ، قوله تعالى : (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ
عَلَيْنَا رَبُّكَ)^(١) في قراءة من قرأ بترخيم المنادي ، فقد قالوا في سبب هذا
الترخيم : إنهم لشدة ما هم فيه من عذاب وتآلم ، عجزوا عن إتمام الكلمة ،
وكان المقام لا يسمعهم لنداء مالك ، فحذفوا آخر الاسم ترخيبا : يا مال ..
وقوله عز وجل : (يَوْفَ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ
كَتُبتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)^(٢) ، فقد حذف حرف النداء ، وهذا الحذف يشير
إلى ما صار إليه حال الزور ، وقد رأى براءة يوسف ، وأيقن بثبوت التهمة
على امرأته ، وأنها هي التي أرادت السوء ، وكان الكلمات لا تسمعنه حتى يتم النداء
فطوى هذا الحرف ، ثم أجمل القصة كلها في اسم الإشارة « هذا » ؛ لأن المقام
مقام ضيق وحزن ، فهو يقتضى الإيجاز وطى الكلمات .. وانظر إلى قول
الحارث يخاطب امرأته وقد أخذت تحته على أخذ ثأر أخيه من قومه :

قومي هم قتلوا أميم أخى فإذا رهيت يصيبني سهمي

(١) سورة الزخرف ٧٧

(٢) سورة يوسف ٢٩

فحال الشاعر حال حزينه مؤلمة ؛ لأن قاتلى أخيه هم قومه فكيف ينـ
منهم ، لأنه إن رمى بصليبه سهمه . . وتأمل إضافة القوم إلى ياء المتكلم ،
وقومى ، وما يكن وراء هذه الإضافة من أحزان وآلام ، تلك الحال قد
اقتضت من الشاعر إيجاز القول وطى الكلمات ، حذف حرف النداء ورخم
المنادى ، إذ الأصل د قومى هم قتلوا يا أميمة أختى ، وتأمل أيضا قوله :
وهم قتلوا ، وما يفيد تقديم المسند إليه وإيلائه الخبر الفعلى من تأكيد القتل
وقصره عليهم ، فهذا القصر ينبعث منه ما يمزق نفس الشاعر ويوجع قلبه ويضيق
صدره ، فقد استطاع الشاعر أن يصور آلامه وأحزانه ، وأن يبرز مبعث أساه :
د قومى . . هم قتلوا . . ومن ثم اقتضى المقام الحذف وإيجاز القول . وعد إلى
المسند إليه . فانظر إلى طيه فى قوله تعالى : (هَالِكُمُ الْغَيْبِ وَالْشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ
الْمُتَعَالَى) ^(١) تجد أنه قد طوى لأن المسند المذكور : د عالم الغيب ، لا ينصرف
إلا له د سبحانه وتعالى ، ولذا قال البلاغيون : إن سر حذف المسند إليه
فى الآية هو تعيينه للمسند المذكور ، وهو هنا متعين حقيقة إذ علم الغيب
لا يكون إلا له تعالى ، وقد يحذف لتعيينه ادعاء ومبالغة كما فى قوله تعالى :
(وَأَقْبَدَ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ • إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَقَارُونَ فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ) ^(٢) ، أى : هذا ساحر كذاب ، لحذفوا
المسند إليه لتعيينه - فى اعتقادهم - المسند المذكور د ساحر كذاب ، وغلبة
هذا المسند عليه وشهرة اتصاف موسى به - فى اعتقادهم - ، إلى حد أنه
إذا أطلق لفظ د ساحر ، أو د كذاب ، انصرف إليه وكأنه قد تعين له ادعاء
ومبالغة . . ومن ذلك قولنا . د عادل فى حكمه ، نريد بهذا عمر الفاروق رضى

(١) سورة الرعد آية ٩

(٢) سورة غافر ٢٣-٢٤ .

الله عنه ، فقد حذف المسند إليه في هذا القول لتعيينه للوصف المنكر
مبالغة في عدالته ، وذلك لشهرته رضى الله عنه بالعدل . . فني الحذف دلالة
على أنه قد بلغ في الاتصاف بهذه الصفة حد الكمال . . وقد يحذف المسند
إليه لتعيينه عمداً كقولك اصدقك : . . حضر ، تريد شخصاً معهوداً لك وله ،
فقد طويت المسند إليه في هذا القول لتعيينه الاتصاف بالمسند المذكور عمداً ،
إذ ينصرف ذهن صدقك إليه عند سماعه لقولك حضر . . وتأمل تلك
الأمثال : رمية من غير رام . . قضية ولا أبا حسن لها . . شذشنة أعرفا من
أخزم ، تجد أنها قد وردت بحذف المسند إليه ، إذا التقدير : تلك رمية . .
هذه قضية وتلك شذشنة . . وعندما تضرب هذه الأمثال ينبغي عليك
أن تلزم حذف المسند إليه اتباعاً للاستعمال الوارد ، لأن الأمثال
لا تتغير .

ومن حذف المسند إليه : بناء الفعل المفعول ، إذ يحذف الفاعل ويقام
مقامه غيره ، ووراء هذا الحذف أغراض كثيرة ، منها الخوف على الفاعل
الحقيقي ، كما في قول الشاعر :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زارمن الأسد

والخوف منه كقولك : . . سرق المتاع ، تريد : سرق اللص .

واحتقاه كما في قول الشاعر :

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة لمبلغك الراشى أغش وأكذب

وضيق المقام كقول الآخر :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى

ولا فرسى مهنر ولا ذبه غنر

والجمل به كقولك : قتل المجرم والعلم به كقول الشاعر

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَمْ نَعِشْ أَلَمًا مُنَعِمْنَا بِهَا مِنْ جِئِمَةٍ وَذُحُوبٍ

وكقوله عز من قائل : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)^(١) . وتأمل قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٢) ، نجد أن الفعل قد بنى للمفعول في قوله : قِيلَ .. غِيضَ .. قُضِيَ ، للعلم بالفاعل الحقيقى وهو الله "تقدير . ووراء حذف الفاعل سر آخر وهو الإشارة إلى سرعة الإجابة والامتثال وأن هنالك قوة خارقة قد اختلطفت السماء فأنجم . و زال . وانظر في قوله عز وجل : (فَمَلَبُوا هَٰؤُلَاءِ فَأَنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)^(٣) ، نجد أن وراء حذف المسند إليه دقائق ولطائف أهمها الإشارة إلى قدرة الخالق فهو الغالب وليس موسى ؟ بل لقد أوجس موسى في نفسه خيفة عندما رأى حبالهم وعصيهم ونخيل إليه ، من سحرهم أنها تسعى ، فقوله تعالى : « غلبوا ، بالبناء للمجهول إشارة إلى قدرة الله القاهر وتبنيها على أن الغلبة كانت بتدبيره وصنعه ، وهذا يظل موسى في مرتبة العبودية العاجزة التي لا تصنع شيئا خارقا ، وإنما يجر به الله تعالى على يديها . وتأمل قوله تعالى : (وَأَلْقَى السَّحَرَةُ) وإشارته إلى سرعة امتثالهم لأمر الله وكأن قوة القهار قد نزع العناد والكفر من رهوسهم فأنكبوا ساجدين ، مؤمنين برب العالمين . وقد يحذف المسند إليه اظهوره ظهوراً لا ايس فيه ، انظر إلى قوله تعالى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)^(٤) وقوله عز وجل : (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ)^(٥)

(١) - سورة الجمعة آية ١٠ . (٢) - سورة هود آية ٤٤ .

(٣) - سورة الأعراف آية ١١٩ و ١٢٠ . (٤) - سورة القيامة آية ٢١ .

(٥) - سورة الواقعة آية ٨٣ .

تجد أنه قد طوى المسند إليه وتقديره : إذا بلغت الروح التراقي والحلقوم ، وطيه في الآيتين لظهوره ظهوراً ببنياً ، إذ لا يبلغ الحلقوم والتراقي عند الموت إلا الروح والنفس ، وشئ آخر وراء الحذف في الآيتين وهو الإشارة إلى ما عليه الروح من وشك المفارقة وكان إسقاطها من العبارة يؤذن بذهابها وزوالها . ومن ذلك قول حاتم :

أماوي ما يغني الثراء عن الفقه ، إذا حشم جنتي يوماً وضاق بها الصدر

أراد : إذا حشم جنت النفس ، خذفت النفس لما بيننا من أن طيها من العبارة بوحى بوشك زوالها وانتقالها إلى بارئها . ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل : (إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) ^(١) فالمراد : حتى توارت الشمس ، خذفت لظهورها ظهوراً تاماً ، ولا يذان الحذف بالمواراة والاختفاء ، وكان إسقاطها من العبارة ينبيء بالغروب والاختفاء . وتأمل قوله تعالى : (وَانْقَدُوا حَتَّى تُفَارِقُوا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْجِعُنَّ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَسَاسِكُمْ شُفَعَاءَ لَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) ^(٢) ، وقوله عز وجل : (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنْدُهُمْ حَتَّى حِينٍ) ^(٣) ، تجد أن المسند إليه قد حذف في الآيتين والتقدير : لقد تقطع ما كان بينكم من علاقات موهومة . ثم بدا لهم الأمر وهو السجن وحذف المسند إليه يشير إلى عدم الاعتداد به وسقوطه فتلك علاقات واهية وأمور واهية لا اعتداد بها ، وهذا أمر ساقط جائر وضح لهم بعد ما رأوا الآيات فكيف يستجرونه عندئذ ؟ ، الحذف في الآيتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه ، وكان إسقاطه من العبارة ينبيء بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذرى العقول السليمة والفكر السديدة .

(٢) سورة الأنعام ٩٤ •

(١) سورة ص آية ٣٢ •

(٣) سورة يوسف آية ٣٥ •

هذا ويذكر البلاغيون من أغراض حذف المسند إليه : تعجيل المسرة
بسرعة لإيراد المسند والمبادرة بذكره كقولك مخاطبك : انظر دبنار، تريد :
هذا دبنار ، فحذفت المسند إليه تعجيلا للمسرة بذكر الدينار ، ومثله أن
يبادرك أخوك بقوله : حفل مقام . يريد ذلك حفل . ومن تلك الأغراض
أيضا : تأني الإنكار عند الحاجة كقولك في شأن إنسان يطفئ ويتكبر : لئيم
فاجر غادر ، ولا تصرح بذكر اسمه لئلا تأني لك الإنكار إذا ما واجهك فتقول
له : ما قصدتك بقولي . . ومنها تحقير المسند إليه وصون اللسان عن النطق به
كما في قوله تعالى : (أَذِنَ الَّذِينَ يُنَاقِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
قَدِيرٌ)^(١) ، فحذف المسند إليه في قوله : د يقاتلون ، ظلّموا ، تحقير له
وصونا للسان عن ذكره أما حذفه في قوله : د أذن ، فالتعظيم والإجلال ،
للعلم به تعالى . . ومن الحذف تحقيرا وصيانة للسان قول بعضهم في ابن عم
له موسى سأله فتمعه ولم يعطه واطم وجهه :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى يسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه وليس لما في بيته بمضضيع

فقد حذف المسند إليه تحقيرا له وصونا للسان عن التلفظ به وقد ذكرنا
سرا آخر وراء الحذف في البيت فارجع إليه وتبينه ، وفي معنى صون اللسان
عن النطق بالمسند إليه يقول الشاعر :

ولقد علمت بأنهم نجس فإذا ذكرتهم غسلت في

ومنها تعظيم المسند إليه وصونه عن اللسان ، كما في قوله تعالى :
(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن تَبْلِكَ)^(٢) ، فقد
حذف لفظ الجلالة تعظيما له . ومن ذلك حذف أسماء المدوحين كما في
قول الشاعر :

(٢) - سورة البقرة آية ٤ .

(١) سورة الحج ٣٩ .

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تاوى إليه كواكب

وارجع إلى ما قلناه من أسرار أخرى في مثل هذا البيت ، وبعد من هذا
القبيل إخفاء الشاعر لأسماء صواحيبه حتى لا تتردد على ألسنة الغير ، وإيثاره
أنه ينطق بأسمائهم وحده بعيدا عن الناس ، كما يدل على هذا المعنى قول الشاعر:

ولإياك واسم العامرية إننى أثار عليها من فم المتكلم

وقول ذى الرمة :

أحب المسكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم

إلى غير ذلك من الأسرار والدقائق التى تراها وراء حذف المسند إليه
والتي لا يمكن الإحاطة بها - كما ذكرت - ، لأن الذى يرشد إليها هو السياق
وقرائن الأحوال ، فما يبدو للمتلأمل الواعى ذى الذوق السليم والطبع القويم .
من دقائق كامنة وراء حذف المسند إليه وطيه فى الأساليب الجيدة ، فهو
ذاك الذى تبين له .

ذكر المسند إليه :

قد توجد فى الكلام القرينة القوية التى تدل على المسند إليه لو حذف
ولكن المتكلم لا يحذفه بل يذكره على الرغم من وجود تلك القرينة القوية
وذلك ليحقق غرضاً من الأغراض الآتية :

١ - زيادة التقرير والإيضاح كما فى قوله تعالى (أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ
رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(١) ، ففى إعادة ذكر المسند إليه : ه وأولئك
هم المفلحون ، زيادة تقرير وإيضاح وإبراز لمكانة هؤلاء المؤمنين الذين
آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ وَأَبْقَوْا بِأُلْدَارِ

الآخرة وما فيها من جزاء ، فاستحقوا تلك المكانة السامية : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، فقد أدى تعريفهم باسم الإشارة ، وإعادة ذكره ، إلى زيادة إيضاح وتقرير تلك المعاني السامية المنسوبة إليهم وعلى هدى من ربهم . . . هم المفلحون . . . ومن ذلك قوله تعالى :
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ^(١) ، ففي إعادة ذكر المسند إليه : « الروح » زيادة تقرير وإيضاح ، إذ تجدد في ارتباطها بخبرها ما يثبت معنى الجملة في النفس ويجمع أطرافها في القواد ، فيزداد المعنى إيضاحاً وتقريراً ومثله قوله تعالى : (أولئك الذين كفروا بربِّهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) ^(٢) ففي إعادة ذكر اسم الإشارة : « أولئك » ما يبرز تلك المعاني المنسوبة إليهم ويزيدها إيضاحاً .

وترى ذكر المسند إليه لهذا الغرض يكثر في مقام المدح والفخر والعتاب والرثاء ونحو ذلك ، حيث يذكر الشاعر اسم الممدوح أو اسم من يعاتبه أو يرثيه ، ثم يعيد ذكره مع كل خبر يريد أن يضيفه إليه ، فتبدو المعاني بهذا في صورة واضحة ومؤكدة . . . انظر إلى قول عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معدة إذا قُبِّبَ بأبطحها بنايما
بأنا النعمون إذا قَدَّرنا وأنا المهاسكون إذا أُتِفنا
وأنا العاصمون إذا أُطِعنا وأنا الغارمون إذا عُصِينا
وأنا الهاكون بما أردنا وأنا الغازلون بحيت شينا

تجد أن تكرار ذكر المسند إليه : « أنا » قد أبرز تلك المعاني التي افتخر بها الشاعر والتي قد علمتها القبائل من معد ، ووراء هذه النون المشددة يكن

النغم الموسيقي الذي حلا للشاعر أن يتغنى به مفتخرا . . ، وتأمل قول الخنساء
في رثاء صخر :

وإن صخرأ لكافيتا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشتو لنجار
وإن صخرأ لتأتم الهداة به كما أنه علم في رأسه نار

تجد أن تكرارها لاسم صخر قد أبرز تلك المعاني التي أضافتها إليه
في صورة مقررة مؤكدة ، كما أن في ترديد هذا الاسم ما يخفف آلامها
ويداوى جراحها ، وشيء آخر وراء ذكر المسند إليه وتكراره في البيتين ،
يشعر به الدارس الواعي ، ويدركه المتأمل الدقيق ، وهو إبراز هذا الاسم
في الوجود وتخليده في الأذهان فهو وإن كان قد طوى من الحياة ، إلا أنه
مذكور في العقول دائما ومخلد في الأذهان أبدا . . . وانظر في قول ابن الدمينه
معاتبها صاحبه :

وأنت التي قطعت قلبي حرازة وقرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي كلفتني دلج السرى وجوت القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التي أحفظت قومي فكلمهم بعيد الرضا داني الصدود كظيم

تجد أن الشاعر كرر ضمير صاحبه في كل بيت مضيفا إليه تلك الأخبار،
فبدت في صورة واضحة مقررة ، وحقت ما أراده من العتاب واللوم . .

ومن أغراض ذكر المسند إليه الرغبة في إطالة الكلام وامتداد الحديث ،
كما في قوله : تعالى : (وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ : هِيَ عَسَائِي
أَتَوَكَّلَا عَلَيْهِمَا وَأَمُشُّ بِهِمَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَى)^(١) فقد كان
يكنى في الجواب أن يقول : عصا ، ولكن موسى - عليه السلام - رغبة منه
في أن يطول الكلام إذ هو في حضرة رب العزة جل وعلا ، ذكر المسند إليه

وهي ، ، وأضاف العضا إليه : دعصاي ، ثم أخذ يتحدث عن عصاه : ، أتوكأ
عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مأرب أخرى ، ، وأجل تلك المأرب
طمعاً في أن يسأل عنها فيجيب ، وهذا يزداد الحديث طولاً . .

وقد يذكر المسند إليه تالذاً يذكره وتردده ، ويحلوا هذا في مقام الغزل
وذكر الأجابة كما في قول الشاعر :

يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منسكن أم ليلى من البشر
وقول الآخر :

ألا ليت لبني لم تكن لي خلة ولم تلقني لبني ولم أد ما هيا

فقد كرر الأول اسم ليلي تالذاً بنطق اسمها والتغنى به وكرر الثاني اسم
لبني لنفس الغرض ، فحب الشاعر لاسم صاحبه يجعله يكثر من ذكره ويردده
تمتاً ، بل يذكر ويردد كل ما أشبه اسمها أو قاربها :

أحب من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهه أو كان منه مدانها

وهو عندما يردد ذلك ويستمتع به ، يختار الأماكن البعيدة الزائفة حتى
لا يسمعه أحد فيردد ما ردد :

أحب المسكن القفر من أجل أني به أغنى باسمها غير معجم

فهو يغار على صاحبه ويكره تالذاً الغير بتردد اسمها ، ولذا أحب ذلك
المسكن القفر ، بل توعد من يردد اسمها فقال :

ولياك واسم العامرية لأنني أغار عليها من فم المتكلم

وقد يذكر المسند إليه بغرض التسهيل على السامع حتى لا يتأني له
الإسكار بعدئذ ، انظر إلى قول الفرزدق في علي بن الحسين عندما أنكر هشام
ابن عبد الملك معرفته له :

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

فقد كرر المسند إليه مضيفاً إليه تلك الصفات تسجيلاً على المخاطب
المُنكر حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ ، وتلاحظ أن الفرزدق لم يعتد بإنكار
المُنكر فأورد له الخبر خالياً من التوكيد منبهاً به - هذا إلى وضوحه وظهوره
وأنه لا ينبغي لأحد إنكاره أو تجاهله ...

وذكر البلاغيون من أغراض ذكر المسند إليه كذلك : ضدّ التعويل
على القرينة كما إذا سئلت : من حضر ومن ذهب ؟ فتجيب الذي حضر وعمر
والذي ذهب خالد ، لأنك لو حذف المسند إليه فقلت : عمرو وخالد ، لم يفهم
السائل المراد لضعف القرينة عندئذ . . . والتنبية على غباء السامع كقولك
لسائل غبي لا يفهم إلا بالتصريح ، وقد سألك : من حضر ؟ فتجيبه الذي حضر
على . . . وإظهار تعظيمه أو إيمانه كقولك لمن ينتظر مقدم الأمير ، ويترقب
رؤية السارق أمير المؤمنين سيأتي . . . السارق اللثيم يتقدم أمامك الآن . . .
والتبرك بذكره كقولك في جواب من سألك : هل الله يرضى هذا ؟ ودل محمد
خاتم الأنبياء ؟ : الله جل جلاله يرضى هذا ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم
الأنبياء . إلى غير ذلك من الأغراض التي تجعل المتكلم يصرح بالمسند إليه
ويعمد إلى ذكره في الكلام .

تعريف المسند إليه : يرد المسند إليه معرفة ويرد ذكره واسم كل منهما
مقام يقتضيه وداع يستدعيه ، وسبب أن الحديث عن تنكير المسند إليه ،
ودواعيه أما تعريفه فقد يكون بنفس اللفظ دون حاجة إلى قرينة ، وذلك
في التعريف بالعلية ، وقد يكون بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، وذلك

في التعريف بالضمائر ، وقد يكون بقرينة حسية كتمريفه باسم الإشارة ، أو بذنبه معمودة كتمريفه بالاسم الموصول ، أو بحرف وهو المرفع بأل ، أو بإضافه معنوية وذلك عند التعريف بالإضافة . وإليك بيان هذه المعارف وما يمكن وراء التعريف بها من دقائق وأسرار .

التعريف بالضمائر : يؤتى بالمسند إليه ضميراً إذا كان الحديث في أحد المقامات الثلاثة : التكلم - الخطاب - الغيبة ، فإذا كان المتكلم يتحدث عن نفسه ، كان المقام لضمير المتكلم نحو : أنا فعلت كذا ، ونحن فعلنا ، وتكن وراء التعبير بضمير المتكلم معان دقيقة ومزايا لطيفة يدركها ذو الحس المردف والذوق السليم . انظر في قوله تبارك وتعالى : (فَلَمَّا أَنَاقَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَمْلَكَ إِنَّكَ بِالنُّودِ الْمُقَدَّسِ طَوْسَى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِيعْ لِمَا يُوْحَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)^(١) ، تجد أن التعبير بضمير التكلم : « إني أنا ربك » ، وأنا اخترتك ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، أمداد من الإيتاس والتلطف مالا يفهمه غيره ، خاصة وأن الله تبارك وتعالى ينادي موسى أول مرة فالمقام يحتاج لإنساناً وتلطفاً . وخذ قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(٢) وتأمل إشارته التعبير بضمير التكلم : « إنا نحن نزلنا » ، إنا له . ، وما وراءه من تأكيد الحفظ وبحث الطمأنينة في نفس المؤمن . ثم تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » ، وما وراء التعبير بضمير التكلم عن الاعتداد بالنفس ونيل الثقة وبحث الطمأنينة في نفوس المؤمنين وكذا القول في بيت المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلي أدبى وأسمعت كلماتي من به صميم

(٢) - سورة الحجر آية ٩ .

(١) سورة طه آية ١١ - ١٤ .

وقول بشار بن برد :

أنا المرء لا أخفى على أحد ذرت في الشمس للقاصي وللداني (١)

وقول عمر بن كلثوم :

ورثنا الجدد قد علمت مَقَدُّهُ نطاعن دونه حتى يبيضا

ونحن إذا عماد الحى خرت على الأحفاض نمنع من يابينا

لذا لا يخفى عليك ما يمكن وراء التعبير بضمير المتكلم في الأبيات من الفخر والاعتداد بالنفس .

وإذا كان المتكلم يخاطب إنسانا أمامه ، كان المقام للخطاب ، كقوله تعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٢) وقوله عز وجل : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) (٣) وقوله جلا وعلا : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (٤) ، ويكثر التعريف بضمير الخطاب في مقام العتاب واللوم ، لئلا يحلو للمتكلم أن يخاطب من يعاتبه وأن يردد ضميره مسنداً إليه ما يريد من لوم وعتاب ، على نحو ما نرى في قول أمامة الخنمية مخاطب ابن الدهينة :

وأنت الذي أخلفتنى ما وعدتنى وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى لهم غرضاً أرمى وأنت سليم

(١) المرء : المرقط ، وكان بشار يلقب بالمرءث ليرط كان يعلقه في أذنه وهو صغير . وذرت : طلعت ، كناية عن الشهرة والديوع ، يعصف نفسه بأه ذائع الصيت .

(٢) سورة القلم آية ٤ . (٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٤) سورة الضحى آية ٩ - ١١ .

فأجابها ابن المدينة :
 وأنت التي قطعت قلبي حزازة
 وقرقت فرح القلب فهو كسليم
 وأنت التي كلفتني دجج السرى
 وجوت القطا بالجلهتين جثوم
 وأنت التي أحفظت قسوى فكاهم
 بعبد الرضا داني الصدود كظيم

وأصل الخطاب أن يكون للمعين المشاهد ، وقد يعدل عن هذا الأصل
 لسر بلاغى ، فيخاطب غير المشاهد لإشارة إلى حضوره في ذهن وقربه من
 القلب ، وتعلق النفس به ، كما رأيت في الشواهد المتقدمة .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ
 أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (١) فتوجه المؤمن بالخطاب إلى المولى جل وعلا يمكن وراه
 ما ذكرنا من التقرب إليه تعالى وتعاقد الفؤاد به ودوام حضوره في نفس المؤمن .
 وقد يخاطب غير المعين كقولنا : وفلان لثيم إن أكرمته أهالك وإن أحسنت
 إليه آسأ إليك . . ، إذ لا يراد بالخطاب في مثل هذا القول مخاطب معين ، بل
 يراد به العموم ، ويمكن وراء ذلك معنى دقيق وهو الإشارة إلى شناعة اللؤم
 وقبح الصنيع وفضاعة الإساءة ، وأن هذا لا يختص بواحد دون آخر . . . ومثله
 قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
 وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول الآخر :

(١) سورة الفاتحة آية ٦ . ٥

إذا أنت لم تعرف لنفسك حتمها هو إذا كانت علم الناس أهونا
وقول الثالث :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فانت ومالك الدنيا سواء

فليس المراد بالخطاب في تلك الآيات مخاطباً معيناً ، بل أريد عموم الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب . . . وانظر في قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَارَ كُسُوفًا يُرْسَبُ لَهُمْ سُهُودٌ مِّنْ نَّارٍ يُصْرَبُونَ) ، نجد أن الخطاب في قوله : تَرَى ، قد أريد به كل من يتأتى منه الخطاب . وهذا ينبغي به أن الأمر من الموضوع بمكان وأن حال المجرمين وناعم فيه ، قد بلغ من الظهور لأهل المحشر مبلغاً يمنع خفاؤه ، فلا يختص به راء دون آخر ولا يخفى عليك ما يفيد حذف جواب دلو ، من شدة هذه الحال وظفائها ، كما لا يخفى عليك ما يريده الم نظم القرآن في من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذي أدى بهم إلى تلك الحال المخزية .

ومثل هذا تراه في قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الَّذِينَ نَادَوْا فَلَا أَوْتَ وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) (٢) وقوله عز وجل : (وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا) (٣) وتأمل قول الحبيب المصطفى : « بشر المشائين إلى المساجد في الظلمات بالنور التام يوم القيامة » ، تجده - صلى الله عليه وسلم - لم يرد مخاطباً معيناً وإنما أراد أن : كل من يتأتى منه الخطاب ينبغي أن يقوم بهذا التبشير ، وفي هذا غاية التكريم وتتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى المساجد في الظلمات .

وإذا كان المتكلم يتحدث عن غائب فينبغي أن يتقدم ذكره إما لفظاً
كقوله تعالى : (فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)^(١).

وقول الشاعر :

من البيض الوجوه بنى سنان لو انك تستضيء بهم أضاموا
هم حلوا من الشرف الممل إلى ومن حسب العشرة حيث شاموا

وتجد أن ضمير الغائب هم ، قد أشار إلى علو مكانتهم وبعد منزلتهم .

ولما معنى بأن يكون في حكم الملفوظ به كقوله تعالى : (اعْدُوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)^(٢) وقوله جل وعلا : (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اذْجِعُوا فَارْجِعُوا
هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)^(٣) ، فالضمير هو ، يعود إلى العدل والرجوع المفهومين
من قوله : واعدلوا .. فارجموا .. ، .

وقد يكون المرجع قربته يدل عليه كقوله تعالى : (حَتَّى تَوَارَتْ
بِالْحِجَابِ)^(٤) فالضمير المستتر هي ، يرجع إلى الشمس ، وقد دلت عليها
قرائن السياق والأحوال من ذكر العشى والتواري وفوات وقت الصلاة ..
وقد يكون المرجع متقدماً حكماً كما في ضمير الشأن نحو قوله تعالى : (فَلَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)^(٥) فالضمير في إنما ، يرجع إلى الإله ، ولا يخفى
عليك ما في ذلك من الإيضاح بعد الإيهام ، وأن لهذا أثره ووقفه في أنفس
المخاطبين .

التعريف بالعلية : ويؤتى بالمسند إليه معرفاً بالعلية لأغراض كثيرة
أهمها :

(٢) سورة المائدة ٨

(٤) سورة ص ٣٢

(١) سورة الأعراف ٨٧

(٣) سورة النور ٢٨

(٥) سورة الحج ٤٦

إذا أنت لم تعرف لنفسك حتمها هو أذا بها كانت على الناس أهورنا
وقول الثالث :

إذا ما كنت ذا قلب فتوع فأنت ومالك الدنيا سواء

فليس المراد بالخطاب في تلك الآيات مخاطباً معيناً ، بل أراد عموم
الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب . . . وانظر في قوله تعالى
(وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْغِرْنَا وَسْمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) ^(١) ، نجد أن الخطاب في قوله : تری
قد أراد به كل من يتأتى منه الخطاب . وهذا ينبىء بأن الأمر من الوضوح
بمكان وأن حال المجرمين وعامهم فيه ، قد بلغ من الظهور لأهل المحشر مبلغاً يمتنع
خفاؤه ، فلا يختص به راء دون آخر ولا يخفى عليك ما يفيد حذف جواب
ولو ، من شدة هذه الحال وفظاعتها ، كما لا يخفى عليك ما يريد به التنظيم القرآني
من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذي أدى بهم إلى تلك الحال
المخزية .

ومثل هذا تراه في قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَرَغُوا قُلُوبًا فَتًى وَأَخِذُوا
مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ) ^(٢) وقوله عز وجل : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا
وَمُلْكًا كَثِيرًا) ^(٣) وتأمل قول الحبيب المصطفى : « بشر المشائين إلى
المساجد في الظلمات بالنور التام يوم القيامة » ، تجده - صلى الله عليه وسلم -
لم يرد مخاطباً معيناً وإنما أراد أن : كل من يتأتى منه الخطاب ينبغى أن يقرب
بهذا التبشير ، وفي هذا غاية التكرير وتتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى
المساجد في الظلمات .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ)^(١) وقوله عز وجل : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)^(٢) وقوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)^(٣) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

٢ — أن يقصد إلى تعظيمه أو إلى إلهائه وتحقيره ، وذلك عند استخدام السكني والألقاب المحمودة أو المذمومة كقولك : « أبو الخير جارك وأبو المال جاء » . وأبو الجمل صديقك وأنف الناقة حضرة ، والعربي بطبعه ينفر من الألقاب المذمومة ويكره الانتساب إليها ويقبل إلى الألقاب المحمودة ويجب الانتساب إليه . . وقد كان لقب « أنف الناقة » مكروها ، ولا يجب أهله الانتساب إليه حتى قال الشاعر :

قوم هم الأنوف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
فصاروا بعد ذلك يفخرون بالانتساب إلى أنف الناقة . . وكان الرجل من نمير يفخر بنسبته إليها ويمد صوته عند النطق بهذه النسبة « نميري » ، فمتخرا بذلك فلما قال الشاعر :

فغض الطرف لما من نمير فلا كعبا باغت ولا كلابا
صار يكره وينفر من تلك النسبة .

٣ — أن يقصد إلى التبرك والتلذذ بنطق العلم كقولك : « الله ربي ومحمد نبي » . وكقول الشاعر متلذذا بليلاه :

بالله يا طيبات القاع لنا ليلاي منكم أم ليلاي من البشر
وقول الآخر مرددا اسم ليلاي ومتلذذا بهذا الترداد :

(٢) سورة الأنعام ١٢٤

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٣) سورة الرعد ٢

ألا ليت لبني لم تكن لي خلة ، ولم تلقني لاني ولم أدر ماهيا
ولذا يقول المتنبي معللا ذكره لأسماء آباء الممدوح :
أباشجاع بفارس عهد الدو لة فذا خسرو شهنشاها
أسماءيا لم نزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

٤ - أن يقصد إلى التفاؤل كقولك : سعد في دارك ، أو إلى النظير
كقولك : السفاح قادم . إلى غير ذلك من أغراض يقصدها المتكلم بتعريف
المسند إليه بالعلية .

١١ التعريف بالأسماء الموصولة : عندما يعرف المسند إليه بالاسم الموصول
ينبغي أن يكون المخاطب والمتكلم عالين بجملة الصلة ، فأنت لا تقول : الذي
تحدث الآن رجل فاضل ، إلا إذا كنت عالما بحديثه ، وكان مخاطبك أيضا
يعلمه ، ولذا يعتمد المتكلم إلى تعريف المسند إليه بالموصولة . إذا كان لا يعلم
هو أو مخاطبه من أحوال المسند إليه سوى جملة الصلة ، كأن يقول : الذي
كان معنا بالأمس رجل صالح ، وهو لا يعلم عن ذلك الرجل سوى وجوده
بالأمس معهما ، أو يعلم عنه ولكن المخاطب لا يعرفه إلا بهذه الصلة فقد وجد
المتكلم في جملة الصلة ما يمكنه من الحديث عن تحدث عنه ، حيث لا يعرف
إلا بها . ومن أغراض تعريف المسند إليه بالصلة : زيادة التقرير ، كما في
قوله تعالى : (وَرَأَوْنَهُ أَتَىٰ هِيَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ)^(١) بجملة الصلة : وهو
في بيتها ، أبرزت نزاهة يوسف - عليه السلام - وهي الغرض المسوق له الكلام ،
وزادتها تأكيداً وتقرباً ؛ لأن كونه في بيتها وهي متمكنة منه : وعلى الرغم
من ذلك أعرص ونأى وقال : (مَعَاذَ اللَّهِ) مما يؤكد نزاهته وإعراضه عن
تلك الفاحشة ، وفي الصلة تقرير أيضا المرادة وهي المسند ، لأن وجوده في
بيتها ، وانفرادها به ، مما يدعو إلى تمسكها منه ، وإقبالها على مرادته ، وتفنيها
في تلك المرادة ، وفيها أيضا زيادة تقرير للمسند إليه وهو : الذي ، وتأكيده

أنها هي الفاعلة دون غيرها ، ولو قيل : راودته امرأة العزيز أو زليخا ،
لا يمكن احتمال أن المرادة غيرها أو شبيهة بها . فالتعبير بالاسم الموصول نفي
أى احتمال يحتمل وأكد أنها هي الفاعلة للمرادة . ووراء التعبير بالموصول
في الآية سر بلاغى آخر وهو استهجان التصريح باسمها أو ينسبها إلى
العزيز ، لأن من تقبل على فعل الفاحشة ، تنفر منها النفوس وتذكره الألسن
التفوه باسمها ، وتأتى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن في الدولة ،
لأنه العزيز ، وهى بفعلها هذا صارت لا تستحق أن تنسب إليه . . . وما عرف
فيه المسند إليه بالصلة استهجانا للتصريح به قولنا : الذى يخرج من السبيبان
ناقض للوضوء ، والخارج هو البول والغائط وغيرهما وهو قدر ينفر اللسان
من النطق به وتأتى الأذن سماعه ، ولذا لجأنا إلى التعريف بالصلة تحاشيا للنطق
به وتلافيا لإسماعه المخاطب . . . وانظر إلى قول حسان رضى الله عنه في نعيته
نفسه مما نسب إليه من حديث الإفك :

فإن الذى قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرئى بى ما حل

وقوله فى بيت آخر :

فإن كنت قد قالت الذى قد زعمت فلا رفعت سوطى إلى أنامل

فقد استهجن أن يصرح بحادثة الإفك ، وأن يذكر انهم عاثشة رضى الله
عنها ، فعبّر بالاسم الموصول والذى ، وقد مكنته جملة الصلة من أن يشير إلى معنى
لطيف دقيق ، فتأمل : . . . قد زعمت . . . قد قيل ، فهو مجرد زعم ، وهو قول ساقط
غير منسوب إلى عاقل يستحق أن يذكر . . . وقد يكون التعريف بالصلة لتنبيهه
المخاطب إلى خطئه ، كما فى قول عبدة بن الطيب من قصيدة له فى وصية بنيه :

إن الذين تروئهم لإخوانكم يشقى غليل مدورهم أن تصرهموا

بجملة الصلة : . . . تروئهم لإخوانكم . . . تفيد : تنبيه الأبناء إلى خطئهم فيما
يرون وأنهم مخدوعون فى هؤلاء . حيث ظنهم لإخوانهم والواقع أن مدورهم

تتوقد سقدا عليهم ، ويتمنون هلا كههم ، ولو قال عبدة : إن قوم فلان
يشق غلبل صدورهم أن تصرعوا ، ما أفاد هذه الإفادة ، وخذ قوله تعالى :
(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ) ^(١) تجد أن جملة الصلة :
« تدعون من دون الله » ، تفيد تنبيه المشركون إلى خطئهم في عبادتهم غير الله
تعالى . وقد يكرن في التعريف بالصلة لإيماء إلى وجه بناء الخبر كما في قوله تعالى :
(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) ^(٢)
فإن الاستكبار عن عبادة الله الذي دلت عليه الصلة : « يستكبرون عن
عبادتي » ، قد أوما إلى وجه بناء الخبر ، وأنه من جنس العذاب والنكال :
« سيدخلون جهنم » ، ومثله قوله تعالى : (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ
عَظِيمٌ) ^(٣) وقوله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ
لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ أُزُلاً) ^(٤) وقوله جل وعلا : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَحْنُ نَكْفُرُ عَلَيْهِمُ اللَّائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا) ^(٥) ، وهذا
كثير في النظم الكريه ، ومنه شعرا قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

فقوله : « سمك السماء » ، يشير إلى أن الخبر من نوع الرفع والسمو ، وتقول :
الذي لا يتذوق الجمال ألف في البلاغة ، فتشير بهذا إلى سوء ما ألف وحقارته ،
كما يفهم منه إهانة من ألف والخط من شأنه . وقد يفهم من تحقير الخبر تعظيم
غيره كما في قوله تعالى : (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ) ^(٦)
فقد أومات الصلة ، كذبوا شعيبا ، إلى وجه بناء الخبر وأنه من جنس الخسران
والبورار ، ويفهم من هذا تعظيم شعيب الذي كذب ورفعة شأنه .

ومن أجل إيماء الصلة إلى وجه بناء الخبر عيب قول عبدة بن الطبيب :

- | | |
|----------------------|---------------------|
| (١) سورة الأعراف ١٩٤ | (٢) سورة غافر ٦٠ |
| (٣) سورة النور ١١ | (٤) سورة الكهف ١٠٧ |
| (٥) سورة فصلت ٣٠ | (٦) سورة الأعراف ٩٢ |

لأن التي ضربت بيتا مهاجرة بكثرة الجند غالت ودها غول^(١)
فتم جرت عادة الشعراء على أن البعد والحزن يلبس العاطفة ويضاعف
الشوق والحزن ، ولذا قال قائلهم :
لحكم التمسك البعد من داء الهوى بالبعد عنك فزدته أزمانا

وكم من شاعر قد اشتد غرامه واشتعل هيامه بعد رحيل القوم بفنائه
وابتهادها عنه . . أما عبدة فقد انقطع حبه وزال وده حولة بعد أن هاجرت
وأقامت بعيداً عنه ، وبيان ذلك أن جملة الصلة : « ضربت بيتا مهاجرة بكثرة
الجند » ، يوصى إلى أن وجه بناء الخبر هو اشتعال نار الحب وازدياد الود
الروحي بينهما ، ولكن الشاعر خالف هذا وبني الخبر بناء مغايراً إذ جعله
زوال الحب وانقطاع الود : « غالت ودها غول » ، وهذا يناقض ما جرت
عليه عادة الشعراء كما بينا . وربما يعتذر لعبدة أنه قد قال هذا البيت بعد
قولي الشباب وحلول الشيخوخة وفنور الصبوة ، وكأنه كان ينتظر هجرتها
ليقطع وده ولذا قال عقب البيت المذكور :

فعد عنها ولا تشغل عن عمل إن الصبا بعد الشيب تضليل .

وقد نظر السكاكي إلى هذا بفهم ما في البيت لإيماء إلى وجه بناء الخبر ،
بل لإيماء إلى تحقيقه . . ونظر الخطيب إلى عادة الشعراء بفهم الصلة في البيت
توصي إلى تقيض ما ذكره الشاعر^(٢) . .

وقد يقصد من التعريف بالموصولة إفادة معنى التفخيم والتحويل كما في قوله
تعالى : (فَتَشِيَّهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)^(٣) ، وقوله عز وجل : (إِذْ يَفْشَى

(١) غالت : أكلت والود مفعول به مقدم والفعل نازل مؤخر وهو حيران
خرافي . . . (٢) انظر مفتاح العلوم ٩٧ والإيضاح ٨٩/١

(٣) سورة طه الآية ٧٨

السَّدرَةُ مَا يَنْشَى (١) ، وقوله جل وعلا : (فَغَشَاهَا مَا غَشَاهُ) (٢) ،
فالاسم الموصول في هذه الآيات الكريمة ، فيه لبهام أدى إلى التفخيم والتهويل
ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت : غشيم من اليم أمور عظيمة
مبهم أمرها .. إذ يغشى السدرة خلائق عظيمة مهم أمرها في الجلال والكثرة ،
لو قلت مثل هذا ما أفدت ما أفاده الاسم الموصول من تفخيم وتهويل ، فقد
أفاد ما لا يكتنزه النعت ولا يحيط به الوصف .. وانظر إلى قول الشاعر في
وصف ما تفعله الخمر بعقل شاربها :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفي الزجاجة باقى يطلب الباقي

نجد أن الموصول : ما مضى ، أفاد تفخيم أمر الخمر وتهويل ما تفعله
بعقول شاربها ، ونفس وراء ذلك معنى لطيفا وهو التحذير من شرب الخمر
لما تصنعه بالعقل ، ولأن من أدمن شربها فلن يتركها إلا بعد فقدان عقله ،
فلو بقيت بقية من عقله لطلبته الزجاجة حتى تذهب به : وفي الزجاجة باقى
يطلب الباقي ، ومن ذلك في غير باب المسند إليه قول الخاسي :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعده

وقول أبي نواس :

واقعد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأسمت سرح اللحظ حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصاراة كل ذاك أنام

(١) سورة النجم الآية ١٦

(٢) سورة النجم الآية ٥٤

وقول كثير :

تجافيت عني حين لالي حيلة وخلفت ما خلفت بين الجراح
ولا يخفى عليك ما يفيد التعريف بالموصولية في الآيات من تهويل
وتفخيم... وقد يعرف المسند إليه بالموصولية لتشويق السامع إلى الخبر حتى
يتمكن في ذهنه فضل تمكن كما في قول أبي العلاء :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد
فقد تضمنت جملة الصلة أمراً غريباً جعلت السامع مشتاقاً إلى معرفة
الخبر والوقوف عليه ، فعندما يأتي الخبر يتمكن في نفسه فضل تمكن...
وقد يقصد بالتعريف بالموصولية إخفاء الأمر عن غير المخاطب كقول
الشاعر :

وأخذت ما جاد الأمير به وقضيت حاجاتي كما أهدى
وقد يقصد إخفاء اسم المتحدث عنه رغبة في هدايته واستمالة له نحو
الحق والهدى ، كما في قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَقِّ
الَّذِي أُبْشِرُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) ^(١) ، وقوله عز وجل :
(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ) ^(٢)
وقوله جل وعلا : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ يَبْغِي عِلْمَ وَيَتَّخِذَهَا حُزُوكًا) ^(٣) ، إلى غير ذلك من المقاصد التي يقصد إليها
البلاغي عندما يعرف بالموصولية...

التعريف بأسماء الإشارة : ويعرف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض
بلاغية كثيرة أهمها :

١ - أن يقصد تمييز المسند إليه أكمل تمييز ، لأن اسم الإشارة بطبيعة

(٢) سورة الحج الآية ٨

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٤

(٣) سورة لقمان الآية ٦

دلالاته يفيد تحديد المراد منه تحديدا ظاهرا وتمييزه وتمييزا تاما ، ولذا المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع ، تمام التميز ، وذلك عندما يكون معنيا بالحكم الذي يريد إضافته إليه ، وفي إبرازه وزيادة تأكيد كيدته .

انظر إلى قول ابن الرومي في مدح أبي الصقر الشيباني :

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه

من نسل شيبان بين الضال والس

نجد أن اسم الإشارة : « هذا » أفاد تميز المدح وحضوره في ذهن السامع محسوسا مشاهدا ، وبعد هذا التميز أضاف إليه الشاعر هذه الص التي تفيد تفردا في المحاسن وبلوغ الغاية في العزة والمجد فهو من نسل ش هاشم بين الضال وهو شجر السدر البري ، والسلم وهو شجر ذر شوك ، والأشجار بالبادية وهي مجد العرب وعزم ، وإضافة الشاعر هذه المآثر المدح بعد تميزه في الذهن واستحضاره أمام السامع يؤدي إلى تمسك النفس بفضله وتمكن ، وكأنه يتحدث أن يكون له ضريب أو نظير . .

وتأمل قول الفرزدق مشيرا إلى علي بن الحسين عندما تجاهله هشام

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا اتقى النقي الطاهر الع

هذا الذي تعرف البطحاء وضائته والبيت يعرفه والحمل والحر

إذا رآته قرش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي السكر

يكد يمسكه عرفان راحته ركن الخطيم إذا ما جاء يستل

فقد دفع الفرزدق لإنكار هشام بهذا الفيض من الإشارات التي أ ك ذبوع مناقب علي وشهرة مآثره ، حيث أضيفت إليه هذه المناقب و المآثر بعد كل تميزه ، وبعد صيرورة حاضرا في الأذهان ، مرتيا أمام الآء ومن لفادة اسم الإشارة لسكال التميز قول الشاعر :

١١ ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى في شأن القرآن :
 (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) فأتى باسم
 الإشارة الموضوع للقريب مؤذنا بقربه قربا يحقق الانتماع به والاسترشاد
 بهديه العظيم ، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق : وكلما
 كان الحادي قريبا ، كان أبحح لرسالة الله ، وأقطع لعدوا من ينصرف عن هدايته
 والاسترشاد به . . . وعهد إلى آيات الفرزدق في علي بن الحسين ، تجدد أن
 لم نأر له إليه بالقرب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به
 ومحبتهم له . . . ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى :
 (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْنِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)^(٢) ، فقد دلت
 الإشارة بالبعيد ذلك ، على حقارة المكذب ، وحرمانه من ساحة القرب
 وشرف الحضور . . . وتقول : ذلك الواشي رشي بي عند فلان ، فتحقره
 بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين . . . ومن إفادة التعظيم باسم
 الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى ، (أَلَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)^(٣)

أشار إلى القرآن بالبعيد ، ذلك ، لبيان بعد منزلته وعلو مكانته وأنه
 لا تدانيه منزلة ، فقد بلغ الغاية في السكال والهداية . . . وقوله تعالى :
 (فَذَلِكَ الَّذِي لُتُنَانِي فِيهِ)^(٤) ، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب حاضر
 لتظهر علو منزلته في الحسن ، ولتبرز عذوها في الافتتان به . وقوله جل وعلا :
 (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)^(٥) أفادت الإشارة
 تعظيم الجنة وبعد مكانتها . . . ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الفرزدق
 مفتخرا بأبائه ومشير إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم :

(٢) سورة الماعون ١ ، ٢

(٤) سورة يوسف ٣٢

(١) سورة الإسراء ٩

(٣) سورة البقرة ١ ، ٢

(٥) سورة مريم ٦٣

ولا يخفى عليك ما وراء الإشارة من تحقير وإهانة لمن خاض في هذه
الحادثة ...

٢ - القصد إلى تعظيم المسند إليه أو إلى تحقيره ، وهذا مقصد تهكمه
أسماء الإشارة أحسن تحقق وتقوم به خير قيام ، لأنك تعلم أن الإشارة
تكون للقريب ، فيقال هذا رجل ، والبعيد فيقال : ذلك ، والتوسط فيقال ذلك
وقد ينزل البعد أو القرب الممنوع منزلة القرب أو البعد الحسي ، وعندئذ تسمى
أسماء الإشارة تقييد ما تقييد من التعظيم أو التحقير ، فمن إفادة التحقير باسم
الإشارة المشار به لتقريب قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخِذُوكَ إِلَّا
هُزُّوا ، أَعْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)^(١) وقوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنْ يَنْخِذُوكَ إِلَّا هُزُّوا ، أَعْدَا الَّذِي بَذَرُوا آيَاتِنَا)^(٢) ، فقد
أشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم باسم الإشارة الموضوع للقريب ، وهذا تحقير له ،
وإعلانا عن رفضهم رسالته ، وأنه لا يميز به أن يذكر آياتهم بسور ،
لقربه ودنو منزلته .. وانظر إلى قول أشاعر متحدثا عن زوجه :

تقول وقد دقت نحرها يمينها أبعلي دنا بالرحا المتقاعس
فقلت لها لا تعجبي وتبيني بلائي إذا التفت على الفوارس

في إشارتها إليه بالقريب وهذا ، معاني الاستهفاف والتحقير ودنو
المنزلة ، ولذا رد عليها مبينا منزلته في ميدان القتال ، وبلامه عند الموقف
الصعب .. ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (وَمَا نُنِمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا نَوْمٌ
وَأَمَّا الْآخِرَةُ الْآخِرَةُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)^(٣) ، فقد أشار إلى
الدنيا بالقريب ، وما هذه ، تنديها على حقارتها وضعها في نفس المؤمن الذي
لا يلتقي لها بالاً .

(٢) سورة الأنبياء ٣٦

(١) سورة الفرقان ٤١

(٣) سورة العنكبوت ٦٤

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى في شأن القرآن :
(إِنْ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١) فإني باسم
الإشارة الموضوع للقريب مؤذنا بقربه قربا يحقق الانتماع به والاسترشاد
بهديه العظيم ، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق ؛ وكلما
كان الهادي قريبا ، كان أجمع لرسالته ، وأقطع لعذر من ينصرف عن هدايته
والاسترشاد به . . . وعهد إلى أبيات الفرزدق في علي بن الحسين ، تجدد أن
لمارته إليه بالقرب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به
ومحبتهم له . . . ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى :
(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْنِ فَنَذَلَكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)^(٢) ، فقد دلت
الإشارة بالبعيد ذلك ، على حقارة المكذب ، وحرمانه من ساحة القرب
وشرف الحضور . . . ونقول : ذلك الواشى وشى بي عند فلان ، فتهقيره
بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين . . . ومن إفادة التعظيم باسم
الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى . (اَللّٰهُمَّ . ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَبَّ فِيهِ)^(٣)

أشار إلى القرآن بالبعيد ذلك ، لبيان بعد منزلته وعلو مكانته وأنه
لا تدانيه منزلة ، فقد بلغ الغاية في السكال والهداية . . . وقوله تعالى :
(فَذَٰلِكَ الَّذِي يُمَنِّي فِيمَ)^(٤) ، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب حاضر
لتظهر علو منزلته في الحسن ، ولتبرز عذرها في الافتتان به . وقوله جل وعلا :
(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)^(٥) أفادت الإشارة
تعظيم الجنة وبعد مكانتها . . . ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الفرزدق
مفتخرا بأبائه ومشير إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم :

(٢) سورة الماعون ١ ، ٢

(٤) سورة يوسف ٣٢

(١) سورة الإسراء ٩

(٣) سورة البقرة ١ ، ٢

(٥) سورة مريم ٦٣

أولئك آباءى بختنى بمثلهم لإذا جمعتنا يا جبر المجمع

فقد أفادت الإشارة : أولئك ، تعظيم الآباء وسمو مكانتهم . وفى ذلك تعرض بالمخاطب ودنو آباءه وضعة شأنهم ، والأمر فى قوله (بختنى) للتعجيز . ومثله قول الخطيب :
 أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا

وإن عامدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا (١)

فقد أفادت الإشارة (أولئك) تعظيم المشار إليهم وبعد مكانتهم وعلو جدهم . . . ولكن يؤخذ على الشاعر ، استخدامه (إن) دون (إذا) فقلل بهذا بناء المجد والعمد والعقد . . . ولو استخدم (إذا) لكان أبلغ وأوفى للمدح . . . وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قوله تعالى : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) (٢).

٣ - وقد يقصد بالتعريف باسم الإشارة : التنبية على أن المشار إليه المذكور بعد أوصاف عديدة للشئ ، جدير من أجل تلك الصفات بما يذكر بعد اسم الإشارة . . . من ذلك قوله تعالى : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٣) . فقد تقدم وصفهم بالتقوى والإيمان بالغيب . وهو أعلى مراتب الإيمان ، ثم وصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفوا بذلك حق الله وحق الفقراء ، وهم يؤمنون بكل ما أنزل على أنبيائه ، ثم جاءت الإشارة (أولئك) لتفيد أنهم جديرون من أجل الصفات المتقدمة بما يذكر

(١) بنوا : يريد به ما يبنيه من المجد والكلام وينال : بنا : يبني : بنا ، فى المجد والشرف ، وبني : بنى بناء فى العمران . وعقدوا : أبرموا أمراً وعزموا عليه . .

(٢) سورة المؤمنون آية ٣ ، ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٥ .

عقبا من الهدى والفلاح . . وهذا كثير في النظم القرآني . . ارجع إلى قوله تعالى في سورة : المؤمنون ، : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) ^(١) . وفي سورة البقرة : (أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ) ^(٢) . وفي سورة الرعد : (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) ^(٣) وتأمل ما قبله وما بعده ليتضح لك ما قلناه . .

٤ - ومن أغراض التعريف بالإشارة : تجسيد المعنويات وإبرازها في صورة محسوسة مشاهدة ، على نحو ما ترى في قوله تعالى : (يُقَلَّبُ اللَّهُ الْأَنفِيلَ وَالتَّهَارَكَ) ^(٤) ، فالإشارة ، قد أبرزت التقليل في صورة محسوسة مرئية ، وليكنها بعيدة : ، ذلك ، ؛ لأنه لا يأخذ العظمة منها إلا النفوس المؤمنة القوية المهيأة للوعي والإدراك . . ومثله قوله تعالى : (نَأْكُلُوا : إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا) ^(٥) . لقد وعِدنا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) ^(٦) ، فقد أبرزت الإشارة البعث في صورة محسوسة مرئية . . وقوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُم مِّلَّةٌ تُرْزَقُونَ إِلَّا نَبَإُكُمْ مَا يَتْلُو بِلَاهِ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُم مِّنْ ذَلِكُمْ يَحْمِلُ يَوْمَئِذٍ رِّبِّي) ^(٧) . . وعد إلى الآيات التي ذكرناها في حادثة الإلك لئرى كيف أبرزت الإشارة تلك الحادثة في صورة مرئية مشاهدة . .

٥ - ومن مزايا اسم الإشارة أنك تجده في كثير من الأساليب يلخص الكلام إذ يستطيع به المتحدث أن يطوى جملا كثيرة بل وربما صفحات كاملة دون حاجة إلى إعادتها ؛ لأن اسم الإشارة يقوم مقام هذه الاعداد ويغنى عنها . . انظر إلى قوله تعالى في سورة الإسراء : (ذَلِكَ يَوْمًا أُزْحِي

(١) سورة المؤمنون آية ١٠ (٢) سورة البقرة آية ٢٧

(٣) سورة الرعد آية ٥ (٤) سورة النور آية ٤٤

(٥) سورة المؤمنون آيتا ٨٢ ، ٨٣ (٦) سورة يوسف آية ٣٧

(٩ - علم الماني)

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبُّنَا الْحَقُّ (١) نجد أن اسم الإشارة : وذلك ، قد أغنى عن آيات عديدة حوت كثيرا من الأوامر والنواهي . . وهذا كثير في النظم الكريم وفي الأساليب الرفيعة وهو لا يخفى على الناظر الدقيق والمتأمل الواعى . .

٦ — ومن مزايا اسم الإشارة أيضا أنه يقوم مقام أدوات الربط فيصل بين الجمل المستأنفة والجمل المتقدمة على نحو ما ترى في الآيات الكريمة : (وَإِذْ كُنَّا نَسْمَعُ أَلْسِنَهُ يَنْشَرُّ وَيَصْفَحُ وَذَآ السَّيْفُ وَكُلٌّ مِنَ الْآخْيَارِ . هَٰذَا ذِكْرُ وَإِنْ لِّلْمُتَّقِينَ لَحُسْنٌ مَّآبٍ (٢) . . (إِنْ هَٰذَا إِلَّا نَزْفٌ مَّا لَهُ مِنْ نَفَائِدٍ . هَٰذَا وَإِنْ لِّلطَّاغِيَةِ إِشْرٌ مَّآبٍ (٣) . . إلى غير ذلك من الأغراض والمزايا والمعاني اللطيفة الدقيقة التي تمكن وراء التعريف بأسماء الإشارة . . .

التعريف بالآلف واللام : يعرف المسند إليه بالآلف واللام لغرضين : أولهما : الإشارة إلى فرد من أفراد الحقيقة ، معهود بين المتكلم والمخاطب ، وتسمى اللام عندئذ . لام العهد الخارجي وتأتي على ثلاثة أنواع :

١ — لام العهد الخارجي الصريحى : وهى التى يتقدم لمَدْخولها ذكر صريح فى الكلام ، كما فى قوله تعالى : (أَفَلَا نُرَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورٍ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) (١) ، فلفظ المصباح والزجاجة ، كل منهما مسند إليه . وقد جاءا معرفتين ، بال ، إشارة إلى معهود خارج ، وهذا المعهود قد صرح به فى قوله تعالى : فيها مصباح . . فى زجاجة ، ، ولذا تسمى اللام ، لام

(٢) سورة ص آية ٤٨ ، ٤٩

(٤) سورة النور آية ٣٥

(١) سورة الإسراء آية ٣٩

(٣) سورة ص آية ٥٤ ، ٥٥

العهد الخارجى الصريحى . . ومنه قولك : غرست شجرة فأثمرت الشجرة وأبنت وآت أكلها . .

٢ - لام العهد الخارجى السكتانى ، وهى التى يتقدم لمداخلها ذكر كنهانى كما فى قوله تعالى : (رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِىْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ) (١) ، فلفظه : الذكر ، مسند إليه ، وقد عرف د بال ، إشارة إلى العهد الخارجى السكتانى ، حيث لم يصرح بلفظه ، وإنما كنى عنه بقوله تعالى : ما فى بطنى محرراً ، إذ أرادت ذكر أ كى تهبه لخدمة بيت المقدس ، أما دال ، فى د الأثنى ، فللعهد الخارجى الصريحى لتقدم مدخلها صريحاً فى قوله تعالى : د رب إنى وضعتها أنثى ، . .

٣ - لام العهد الخارجى العلمى ، كما فى قوله تعالى : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) (٢) ، فاللام فى : د الشجرة ، للعهد الخارجى العلمى حيث لم يتقدم لمداخلها ذكر لا صريحاً ولا كنهانياً .

٤ - ثانيهما : الإشارة إلى نفس الحقيقة ونسمى اللام ههنا لأم الحقيقة أو لام الجنس ، وترد أيضاً على ثلاثة أنواع :

١ - لام الجنس أو الحقيقة ، وهى التى يكون مدخلها مراداً به الحقيقة - نفسها ، كقولك : الرجل خير من المرأة ، أى : حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة ، فلام الجنس أغنت عن تفصيل يتعذر إذ لا يستطيع القائل أن يستقصى جميع أفراد الجنس فى تلك المفارقة ، كما أن التعريف بلام الجنس فى المثال

(٢) - سورة الفتح آية ١٨

(١) - سورة آل عمران آية ٣٦ ، ٢٧

المذكور ، لا ينافي أن بعض أفراد حقيقة المرأة ، خبر من بعض أفراد حقيقة الرجل ، ففي هذا إيجاز وإيجاه دقيق .. ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :
والخل كالماء يبدى لى ضائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

أراد جنس الخل و جنس الماء .. وانظر إلى قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ)^(١) ، نجد أن اللام في د الناس ، يصبح أن تكون لام العهد العلى ، أى : كما آمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ، ويصبح أن تكون لام الجنس ، أى : كما آمن جنس الناس ، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف ؛ لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون فى الإنسانية ، فالذين آمنوا هم جنس الناس ، ومعدن الإنسانية ، ومن عداهم ليسوا منها فى شىء^(٢) .

٢ - لام العهد الذهنى : وهى أن يأتى المعرف بالام الحقيقة أو الجنس مراداً به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عديته فى الذهن لاشتغال الحقيقة عليه ، كقولك للخاطبك : د ادخل السوق ، وليس بينك وبينه سوق معهودة فى الخارج .. وعليه قول الشاعر :

ولقد أمر على اللثيم يسبنى فاعف ثم أقول لا يعينى

فالمراد باللثيم فرد غير معين من أفراد الحقيقة ، وليس المراد به الحقيقة لاستحالة المرور على مالا وجود له ، ولا فردا معيناً من أفرادها ، إذ لا تتم به فى الخارج ، ومثله قول الأحر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللثيم تمردا

وقوله عز وجل : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)^(٣)

(٢) انظر للكشاف ج ١ ص ١٨٢

(١) سورة البقرة آية ١٣

(٣) سورة يوسف آية ١٣

فلفظه ، الذئب ، في الآية المراد به فرد من أفراد حقيقة الذئاب ، كما أن لفظي
والسكران ، واللائيم ، في البيت ، المراد بالاول فرد من أفراد حقيقة السكران ،
وبالثاني فرد من أفراد حقيقة اللئام .

٣ - لام الاستغراق : وهي التي يراد بمدخولها جميع الأفراد المندرجة
تحت الحقيقة عند قيام القرينة الدالة على ذلك ، وقد سميت لام الاستغراق
لاستيعابها جميع الأفراد ، والاستغراق إما حقيقي ، كما في قوله تعالى :
(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) ^(١) ، فاللام في الإنسان ،
للاستغراق للحقيقي لجميع أفراد جنسه ، ولذا استثنى الذين آمنوا فهم ليسوا
في خسران . . ومنه قوله تعالى : (هَالِكُمُ الْغَيْبِ وَالْغُفَى) ^(٢) ، أي : كل
غيب وكل شهادة ، ، قال ، فيهما الاستغراق الحقيقي ، إذ أريد بمدخولها
جميع الأفراد التي يتناولها اللفظ بحسب الوضع

ولما عرفت كقولك : امثل الطلاب رأى المعلم ، ، قال ، في الطلاب أريد
بها الاستغراق العرفي . لأن مدخولها أريد به جميع الأفراد التي يتناولها بحسب
العرف وما جرت به العادة ، لا جميع الأفراد حقيقة ، ومثله قولك : جمع
الأمير الصاغة ، فالمراد : جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته لحسب الصاغة
الدنيا ، قال في الصاغة ، للاستغراق العرفي .

التعريف بالإضافة : ويعرف المسند إليه بالإضافة لإفادة أغراض بلاغية
والدلالة على أسرار ومزايا عديدة أهمها ما يلي :

١ - إرادة الإيجاز كقولك : كتابي مفيد ، إذ الإضافة فيه هي أنخصر
طريق لإحضار المسند إليه ، كتابي ، في ذهن السامع فما من ريب في أن هذا
أنخصر من قولك : الكتاب الذي أملكه مثلاً . . وانظر إلى قول جعفر

(١) سورة المعمر آية ٢

(٢) سورة الأنعام آية ٧٣ .

الحارثي وكان مسجونا بمكة فزارته فتاته مع ركب قومها فلما رحلت عنه قن
وأصفا ألمه وأحزانه :

هوأي مع الركب اليماني مصعد جنيب وجناني بمكة موثق^(١)
تجد أن الإضافة في قوله : د هوأي ، هي أخصر طريق لإحضار المسند
إليه في ذهن المخاطب ، وقد اقتضى المقام هذا الإيجاز ، لأن الشاعر حزين
متألم ضائق الصدر لسجنه وفراق أحبته ومثل هذا المقام يلائمه الإيجاز وطى
الكلمات واختصار القول .

٢ - أن يكون التعريف بالإضافة مغنيا عن تفصيل يتعذر أو عن تفصيل
تركه أرجح لاعتبار ما ، فمن الأول قولك : أهن مصر كرام ، إذ يتعذر عليك
ذكرهم والإحاطة بهم . . ومثله قول الشاعر :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لما في غيل خُفَّان أشبل^(٢)

إذ يتعذر عليه الإحاطة ببني مطر واستقصاء أسمائهم ومن الثاني قول
الحارث بن ولة الجرمي - وقد مر بك - :

قومي هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت بصيبي سهمي

فالإضافة في قوله : د قومي ، أغنت عن تفصيل تركه أرجح ؛ لأنه لو فصل
فذكر القتل بأسمائهم لأوغر صدورهم عليه ، ولا يخفى عليك ما وراء الإضافة

(١) هوأي : المراد الذي أهوى فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول مجازا
مرسلا ، واليماني : جمع يمان وألفه عوض عن ياء النسب والمصدر : اسم فاعل من
أصعد بمعنى أبعد في السير ، والجنيب : المستبوع من جنب البعير إذا ناده إلى جنبه ،
وموثق : مقعد محبوس .

(٢) بنو مطر : قوم الشاعر أو قوم المدح . والفيل : الشجر الملتف . وخفان .
مأسدة قرب الكوفة ، والأشبل : أولاد الأسود مفردة شبل .

والاختصاص . د هم قتلوا ، وترخيم المنادى : د أميم ، ، من حزن وألم ومن
إبراز الجريمة قومه وتصوير لبشاعتها (١) .

٣ - أن تكون الإضافة متضمنة تعظيم المضاف كقوله تعالى : (وَأَنَّهُ
كَمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)^(٢) ، وقوله عز وجل : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)^(٣) ، وقوله جل وعلا : (وَبَعَثْنَا فِيهِمُ الرَّسُولَ قَالُوا
يَمْسُحُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَؤُلَاءِ)^(٤) ، فالإضافة إلى الله تعالى تشريف ما بعده
تشريف وتعظيم ما بعده تعظيم ، ولذا حق للشاعر أن يقول مفتخراً بعبوديته
لله الخالق تبارك وتعالى :

ومما زادني شرفاً وتبها وكدت بأخصى أطا الثريا
دخولي تحت قولك : ديا عباد ، وأن جعلت أحمد لي نبيا

أو تعظيم المضاف إليه كقولك : خادمي جاء . . . أموالي لا تعد ، فتفتخر
بأنك عظيم لك خادم ولديك أموال ، فالإضافة تضمنت تعظيم المضاف إليه
أي : د المتكلم ، .

٤ - أن يقصد بالإضافة تحقير شأن المضاف أو المضاف إليه كقولك :
أفعدا . الإسلام يتربصون به في أموال الناس لم تنفعه ، فلا يخفى عليك تحقير
المضاف في الأول والمضاف إليه في الثاني . . وقد اجتمع التحقير والتعظيم
في قول الشاعر :

أبوك حُبابٌ سارقُ الضيفِ بُردَه وَجَدَّيْ ياحَجاجُ فارسُ شُمرَا
فالإضافة في د سارق الضيف ، أفادت تحقير أبي الخطاب د حباب ، وفي
د فارس شمر ، أفادت تعظيم جد الشاعر .

(١) ارجع إلى ما نأناه في هذا البيت عند حديثنا عن حذف المسند إليه

(٢) سورة مريم آية ٣٠ .

(٣) سورة الجن آية ١٩

(٤) سورة الفرقان آية ٦٢

٥ - وقد يقصد بالإضافة إفادة معنى لطيف كما في قول الشاعر :

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة سهيل أذاعت غزلها في الأقارب
فقد جعل للخرقاء كوكبا وأضافه إليها لأدنى مناسبة وهي أنها لا تمتد
كسوة الشتاء إلا وقت طلوعه سحرا ، وهو لا يطلع سحرا إلا في الشتاء
وتسكن وراء تلك الإضافة معان دقيقة كالمداعبة والمزاح ، والسخرية
تلك المرأة الخرقاء الكسول ، وإثارتها وحشها على العمل وترك الإهمال

٦ - وقد يقصد بالإضافة الاستعطف والحث على الشفقة ، كما في قوله تعالى
(لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِيهَا وَلَا مَوْلُودٍ لَهُ يُولَدُ لَهُ) ^(٢) ، فقد أضيف
إليها وإلى الأب : بولدها .. بولده ، استعطفا لها وحشا على الإشفاق =
والكف عن مضرتة ، أو عن المضادة بينهما بأن يضر كل منهما الآخر =
لأن تلك المضرة ترجع في الأخير إلى ولدهما .. يقول الزمخشري : « فإن قا
كيف قيل بولدها وبولده ؟ ، قلت : لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف
الولد استعطفا لها عليه ، وأنه ليس بأجنبي منها فمن حقها أن تشفق على
وكذلك الولد ، ^(٣) .

تذكير المسند إليه : يأتي المسند إليه نكرة لإفادة أنه فرد غير
من أفراد جنسه ، أو لإفادة النوعية ، فإذا قلت : جاءني رجل ، صالح
القول لإرادة الإفراد ، أي : جاءني رجل لا رجلان ، صالح لإرادة النوع
أي : جاءني رجل لا امرأة ، وهذه الإفادة أصلية للنكرة ، وقد اتت
النكرة للدلالة على العدد ، وذلك إذا وصفت به كقولك : جاءني رجلان -

(١) الخرقاء : يريد : المرأة الخرقاء أي المهملة للكسول . وسهيل بدل
الكوكب ، وأذاعت غزلها في الأنازب : فرقته عليهم ليمازونها ويسمونها .

(٢) سورة البقرة ١٣٣ .

(٣) الكشف ج ١ ص ٢٧١

ورجلان اثنان، ومن ذلك قوله تعالى : (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنْ كُنَا مُوْاٰهٖ وَاحِدٌ)^(١) .. وقد تتمحض لإفادة النوعية أى الجنس ، كما فى قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئْتُ مِنْهُ)^(٢) فقد محض الوصف فى الأرض .. ويطير بجناحيه ، الذكرتين : دابة وطائر ، لإفادة الجنس .. هذا وقد يقصد بتمسكهم المسند إليه وجوه بلاغية كثيرة أهمها :

١ - القصد إلى أن المسند إليه فرد غير معين من أفراد حقيقة حيث لا يتعلق بتعريفه غرض ، كما فى قوله تعالى : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْمِى)^(٣) ، وقوله جل وعلا : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ)^(٤) ، فقد نكر المسند إليه فى الآيتين : رجل ، ، لأن القصد إلى إفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه ، إذ لا حاجة إلى تعريفه ولا غرض من تعيينه ، فالمراد أن يصل إلى موسى نبأ الاثنان لقتله ، وأن يعلم المخاطب أن قولا قد قبل وأن تنبيهها إلى ما فى قتل موسى من خطأ ، قد وقع ، ولا يخفى عليك ما وراء التمسكهم من تعظيم المسند إليه وإعلاء شأنه ، فقول كلمة الحق فى مثل هذه المجتمعات الفاسدة لا يصدر إلا من رجل عظيم الشأن جليل القدر ، كما لا يخفى عليك ما أفاده تمسكهم بالمفعول فى قوله تعالى : د اتقتلون رجلا ، من تعظيم لموسى عليه السلام .

٢ - القصد إلى تعظيم المسند إليه ، كما فى قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَآةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ)^(٥) ، فقد نكرت الحياة التى يحققها القصاص الإشارة إلى أنها حياة عظيمة .. وقوله عز وجل : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨

(٤) سورة غافر آية ٢٨

(١) سورة النحل آية ٥١

(٣) سورة القصص آية ٢٠

(٥) سورة البقرة آية ١٧٩

العنبر يسرا^(١)، أفا تنسكير اليسر وتكراره الدلالة على تفخمه وتعظيمه .
يقول الزمخشري : ، فإن قلت : فما معنى هذا التمسكير . . قلت : التفخيم ، كأنه
فيل إن مع العسر يسرا عظيما ، وأى يسر^(٢) . ومن ذلك قول الرسول صلى
الله عليه وسلم : إن من البيان لسجرا وإن من الشعر لحكمة ، أى سحرا عظيما
وحكمة رائعة . . . ومنه من غير باب المسند إليه قول المتنبي :

ألم بشىء والليالى كأنها تطاردنى عن كوند وأطارد

فقد نسكر د بشىء . ليشير إلى أن ما بهم به شىء عظيم تطارده الليالى عن
إدراكه ، ويطاردها ، فهو بهم بمعظم الأمور ويطارد الليالى من أجل نبيل
جلال الأشياء .

٣ - القصد إلى تحقيره ، كقولك : لك عدو لا يعتد به ، أى : عدو حقير
الشان ، لا يقام له وزن ، ولا يلقى له بال ، وكقول إبراهيم بن العباس
وكان واليا على الأهواز من قبل الواثق بال ثم عزل في وزارة محمد بن
عبد الملك الزيات فقال غبرا بنو الدهر عنه ونحلى الصاحب وتسلط الأعداء
وغياب النصير :

فلو إذ نبا دهر وأنبكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تسكون عن الأهواز دارى بنجوة ولكن مقادير خرت وأهور

فقد نسكر الدهر ليشير إلى أنه دهر منسكرك مجبول ، وليس هو الدهر
الذى كان يعده أيام ولايته على الأهواز ، ولذا نمتنى أن تسكون داره بعيد
عنها عندما تغير وتبدل الدهر ، وقابله ظاهر المجن . . كما نسكر صاحب
ليشير إلى حقارتة ولاقوه ، ثم تأمل بناء الفعل للمجهول وأنه لم يقل ، وأنكرت
صاحبيا ، ، حتى لا يسند لإنكار الصاحب إلى نفسه صريحا في اللفظ ، ولو كان
صاحبيا لشيئا حقيرا ، وتأمل تمسكير الأعداء وبناء الفعل للمجهول : دسلط
أعداء ، الإشارة إلى حقارتهم وضعة شأنهم ، وأنهم أداة في أيدي الغير وليسوا

الإصابة ، ثم تذكر العذاب وذكر ، الرحمن ، ولذا يكون التذكير العذاب
- في رأيه - للتقليل وليس للتعظيم والتهويل كما ذكر البلاغيون^(١) ..

٤ - - القصد إلى تكثيره ، كما في قولهم : د إن له لإبلا وإن له لغنما .
يريدون بذلك الكثرة ، أى : إبلا كثيرة وغبنا عديدة ، ومنه قوله تعالى :
(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا : إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَمُوتُ الْغَالِبِينَ)^(٢)
أفاد تذكير المسند إليه أنهم يريدون أجراً كثيراً ومكافأة كبيرة إن تحققت
لهم الغلبة على موسى - عليه السلام - وقد أجابهم فرعون بأن لهم ما طلبوا
وزيادة : (قَالَ : نَعَمْ وَإِنِّي لَمِّنْ بَيْنَ)^(٣) .

ومن ذلك قول الشاعر :

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

أفاد تذكير ، هم ، التكثير والتعظيم ، أى ، هم كثيرة عظيمة ، ولذا
قال : لا منتهى لكبارها .. أجل من الدهر ، ، فدل الأول على الكثرة
ودل الثاني على التعظيم والتفخيم .. ومنه قول الآخر :

وفي السماء نجوم لا عدد لها

وليس يكسف إلا الشمس والقمر

أراد : نجوما كثيرة .. وما أفاد التكثير والتعظيم معاً قوله تعالى :
(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ)^(٤) ، فالمقام مقام تسلية
لرسل - صلى الله عليه وسلم - وقد أفاد تذكير ورسل ، الإشارة إلى أنهم
رسل عظام كثير العدد ..

(٢) - سورة الأعراف الآية ١١٣

(٤) - سورة فاطر الآية ٤

(١) انظر للكشاف ج ٢ ص ٥١١

(٣) - سورة الأعراف الآية ١١٤

٥ - المقصد إلى إفادة التقليل ، كما في قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)^(١) ، أفاد تنكير
« رضوان » ، الإشارة إلى أن القليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم ،
فالمعنى : وشيء ما من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، لأن رضاه سبب كل
سعادة وفلاح ، فالعبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما
وراءه من النعيم ، ولذا كان المقصد من تنكير المسند إليه « رضوان » ، إفادة
التقليل ، أى : أقل قدر من رضاه الله خير من كل نعيم ، ولا يخفى عليك
ما وراء ذلك من تعظيم رضوان الله تعالى . . ومن ذلك قوله تعالى : (وَسَلَامٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)^(٢) ، فقد أفاد تنكير
المسند إليه : « سلام » ، التقليل ، لأنه من قبل الله تعالى : « ولقيل منه كثير
ومغن عن كل تحية » ، ولذا جاء معرفاً في قصة عيسى - عليه السلام - (وَالسَّلَامُ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)^(٣) ، لأنه ليس وارداً
من جهة الله بل هو من قول عيسى - عليه السلام - ولهذا الغرض ، تجد أن
السلام لم يرد من جهة الله تعالى في النظم الكريم إلا منكرات ، ارجع إلى
الآيات الكريمة : (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ . أَخِيطُ بِسَلَامٍ مِنَّا . .
سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينِ) . .

وبما أفاد تنكيره التقليل أيضاً قوله تعالى : (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفِتْحَةً مِنْ
عَذَابِ رَبِّكَ)^(٤) ، فقد أفاد التنكير وبناء المرة في « فتحة » ، التقليل ؛ أى :
فتحة قليلة ضئيلة ، ولا يخفى عليك ما في هذا اللفظ من التهمك والسخرية ؛ لأن

(٢) - سورة مريم الآية ١٥

(٤) - سورة الانبياء الآية ٤٦

(١) - سورة التوبة الآية ٧٢

(٣) - سورة مريم الآية ٣٣

النفح يستعمل في الخير كنفح الطيب ونفح الهواء العليل ، وقد استعملت هنا في الشر على حد قوله تعالى : (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ السَّكِرِيمُ) ^(١) ، وقوله جل وعلا : (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ^(٢)

٦ - الفصد إلى إفادة أن المسند إليه من نوع خاص متميز عما يعرفه المخاطب وبالله وبعده ، من ذلك قوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَصَلَّى سَمْعِهِمْ وَصَلَّى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً) ^(٣) فقد أفاد تنكير ، غشاة ، الإشارة إلى أنها نوع خاص من الغشاة متميز عن سائر الغشارات ، لا يعرفه الناس ، ولا يعرفونه فهو يغطي مالا يغطي شيء من الغشارات المعهودة ، ولا يخفى عليك ما يفيد منه التنكير بالإضافة إلى ذلك - من تعظيم وتهويل .

ومنه في غير باب المسند إليه قوله تعالى : (وَأَنبَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ) ^(٤) أى : على نوع من أنواع الحياة يكون زائدا ومبزا عن حياة الناس ، . وقوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) ^(٥) ، فالتنكير فيهما يحتمل النوعية بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء ، ويحتمل الأفراد ، أى خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف . وبما أفاد تنكير المسند إليه فيه النوعية بقوله تعالى : (وَأَكْثَمُ فِي الْفِتْنَةِ سَيِّئَةً) ^(٦) أى : حياة متميزة خاصة ، فانت كل حياة وأرست عليها ، وقد مر بك ما أفاده التنكير في هذه الآية أيضا من تعظيم وتهفيم لشأن تلك الحياة الخاصة . ومن ذلك قول عبد الله بن المعتز :

ولم أكن على إشتاق عيني من العدا لتجمع منى نظرة ثم أطرق

(١) سورة الدخان الآية ٤٩ (٢) - سورة آل عمران الآية ٢١

(٣) - سورة البقرة الآية ٧ (٤) - سورة البقرة الآية ٩٦

(٥) - سورة النور الآية ٤٥ (٦) - سورة البقرة الآية ١٧٩

فقد أشار بتذكير النظرة إلى أنها نظرة من نوع خاص ، نظرة ظالمة شرود ؛ ولذا وصفها بالجوح وأخير أنه لا يستطيع أن يردّها ويسيطر عليها إلا بعد زمن طويل تمتد ثم أطرق ، وذلك على الرغم من وجود الرقباء وإشفاقه منهم ، وهذا يوضح أنها نظرة متميزة تختلف عن النظرات المعهودة لدى البشر .

ومنه قول الآخر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من بدائها

أفاد تذكير الداء والدواء النوعية وأن لكل نوع من الداءات نوعاً خاصاً من الأدوية ، يصلح له لاجه ، ففى امتدى إلى ذلك النوع الخاص من الدواء وعولج به الداء شفى وعرف صاحبه إلا داء واحد وهو الحماقة فإنها داء أعيا الأطباء فلم يجدوا لها دواء .

٧ - وقد يقصد بتذكير المستند إليه : كراهة أن ينسب الفعل إليه معرفاً ، ويكون ذلك فى مقامات المدح والفخر التى تقتضى المبالغة فى الصفات ...

انظر إلى قول الشاعر :

إذا سئمت مهنده يمين أطول الخمل بدله شمالاً

فالمراد بيمين : يمين الممدوح ، ولكن الشاعر تذكرها فلم يقل : وإذا سئمت مهنده يمينه ، احترازاً من نسبة السآمة فى اللفظ إلى يمين الممدوح ؛ لأن فى ذلك الإسناد جفوة ينبو عنها حسن الشعر حيث يقل من شأن المبالغة فى صفة الشجاع التى تقتضى مقام المدح ، ويؤخذ على الشاعر استخدامه إذا ، التى تفيد تحقق وقوع الشرط ، ولو عبر بـ إن ، دون إذا ، لكان أبلغ فى هذا المقام حيث تفيد : إن ، ندرة وقوع الشرط كما سبأنى .

توابع المسند إليه : وقد يتبع المسند إليه بتابع كالوصف والبدل والتوكيد والعطف وذلك لغرض يقصد إليه البلاغى ، وشأن المسند إليه في هذا شأن غيره من أجزاء الجملة ، كما لا يخفى عليك أن الأحوال التي ذكرناها للمسند إليه تجرى أيضاً على غيره من أجزاء الكلام وإليك بيان هذه التوابع

١- الوصف : يوصف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل لدواع بلاغية كثيرة . . . منها أن يكون الوصف مفسراً وكاشفاً عن معنى الموصوف كما في قول أوس بن حجر يرثي نضالة بن كعدة :

أيتها النفس أجلى جزءاً إن الذى تحذرين قد وقعاً
إن الذى جمع الشجاعة والنجدة والبر والتقى جمعاً
الأمعى الذى يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعاً
أردى فلا تنفع الإشاحة من أمر لمره يحاول البدعاً

فقوله : « الأمعى » صفة كاشفة وموضحة للمسند إليه ، الذى جمع الشجاعة والنجدة والبر والتقى ، ولذا حكى أن الأصمعى سئل عن الأمعى فأشدد تلك الأبيات ولم يزد . . . وأقرأ قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)^(١) . فقوله « هلوعاً » حال من نائب الفاعل فهو وصف كاشف ومفسر وموضح لحقيقة الإنسان ، يقول الزمخشري : « هلوع سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، من قولهم دناقه هلوع » : سريعة السير وعن أحمد بن يحيى^(٢) قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر : ما هلوع ؟ قلت : قد فسرته الله تعالى (٣) .

(١) المارج ١٩ - ٢١ .

(٢) أحمد بن يحيى هو أبو لهباس ثعلب من أئمة اللغة والنحو .

(٣) لكشاف ٢/٥٨ وانظر الإيضاح ١/١٠٨ .

ومنها أن يكون الوصف مخصصا للموصوف ، ومعنى تخصيصه له : تحديده ورفع احتمال غيره في المعارف ، وتقليل الاشتراك في التكرارات كقولك : زيد التاجر حنظل ومحمد العالم ذئب . . ورجل فقير عندي وامرأة مؤمنة تزوجت . . ومنها أن يكون الوصف مشعرا بدمج كما في قوله تعالى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وقوله عز وجل : (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)^(١) ، وقوله جل وعلا : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ ذَلِيلٌ مَا عَفَتْكُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٢) . . أو بدمج كما في قوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)^(٣) . . أو بتأكيد لإظهار الفرح والسرور أو التأسف ونحو ذلك كقولك : أمس الدابر كان يوما عظيما . . ومنها أن يكون الوصف بياناً للموصوف ومحدد المراد منه ، كما في قوله تعالى (وَقَالَ اللَّهُ : لَا تَتَخَذُوا لِلْمَثَلِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ)^(٤) ، وذلك أن الاسم المنكرة الحامل للمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي سيق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكده قوله به على القصد إليه ، والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية ، وكذا إذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما الجنسية شفع بالصفة التي تبين ذلك . كما في قوله تعالى : (وَآ مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمَا إِلَهُكُمْ)^(٥) فقد شفع لفظ دابة ، دابة الأرض ، ولفظ طائر ، يبطير بجناحيه ، لبيان أن القصد بهما إلى الجنسية لا إلى العدد . وفي ذلك زيادة للمعنى التعميم والبرهنة ، كأنه

(٢) - سورة التوبة الآية ١٢٨

(١) - سورة الحشر الآية ٢٤

(٤) - سورة النحل الآية ٥١

(٣) - سورة النحل الآية ٩٨

(٥) - سورة الأمام الآية ٣٨

زين : وما من دابة قط في جميع الارضين السبع ولا طائر قط في جو السماء
من جميع ما يطير بجناحيه الا اُهم أمنا السكم . . . ومنها إفادة الترحم وطالب
المغفرة كما في قول الشاعر :

إلهي عبديك العاصي أنك مقرا بالذنوب وقد دعاك

فقد وصف العبد التائب المقر بالذنوب ، بالعاصي ، استعطافا وذلما
للمغفرة والرحمة . . .

هذا وعندما تقع الجملة صفة للشكرة يشترط فيها أن تكون خبرية ، لأنها
في المعنى حكم على صاحبها بالخبر ، فلا يستقيم أن تكون إنشائية ، أما قول
عبد الله بن روبة التميمي :

حتى إذا جن الظلام واختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط (١)

فمعناه : جاءوا بمذق يقال عند رؤيته : هل رأيت الذئب قط ؟ فالجـ لـ
الاستفهامية ليست صفة وإنما هي مقول للصفة المحذوفة كما هو واضح .

٢ - التوكيد : يؤكد المسند إليه وكذا المسند أو أحد المتعلقات ليجتدق
بهذا التأكيد أغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم . . . منها إبراز المؤكد وزيادة
تقرير المعنى في ذهن السامع كقولك : هو يعطى الجزيل هو يدفع الشدائد ،
فتقديم المسند إليه على خبره الفعلي في المثالين قد أفادنا كيد المعنى وتقريره
وإبراز المسند إليه لوقوعه في ابتداء الكلام فانشغل الذهن به وتطلع إلى
خبره ، وأيضا لتكرار الإسناد ، لأن الفعل أسند إلى الضمير المذكور مرتين ،
مرة باعتباره مبتدأ وأخرى باعتباره فاعلا (٢) . . . ومنها دفع توم التجوز ،
كقولك : قطع الأمير نفسه السارق ، فلم يقل : د نفسه ، لجاز أن يتوهم أن

(١) جن الظلام أنبل أوله ، واختلاطه : إما يكون بعد ذهاب نور النهار كله .
والمذق : اللبن الخلوط بالماء فهو مصدر بمعنى اسم المفعول . . . والشاعر يصف قرما
أضافوه فأطالوا عليه ثم أنوه بهذا المذق .

(٢) ارجع إلى تقديم المسند إليه ص ١٥٩ وما بعدها .

طلع غيرته بأمره على ما جرت به العادة في ذلك .. ومنها دفع توهم السهو لك : فنجحت أنا ، وأقبل زهير ، وجاءني محمد ، وقالت أنت هذا ل ، فهذا التأكيد يدفع توهم السامع أن المتكلم سها في إثبات الحكم مأموله . ومنها دفع توهم عدم الشمول كقوله : عرفني الرجلان ما ، وجاءني القوم كلهم ، فإليك لو قلت : عرفني الرجلان ، جاءني القوم ، تأكيد ، لتوهم أن أحد الرجلين هو الذي عرفك وأن بعض القوم قد جاء من لم يأت ، ولكذلك لم تعتد بمن لم يعرفك ولا بمن لم يأت فأطلقت الكل من البعض على سبيل المجاز . . فدفعا لهذا التوهم جاء التوكيد لإفادة دلالة العموم ، ومن ذلك قوله تعالى : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِدْرِيسَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)^(١) ، وقوله عز وجل : نَذَرْنَا لَكُمْ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى^(٢) ، وقوله جل وعلا . نَذَرْنَا آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرَ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلَّهَا فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ أَخْذًا مُّقْتَدِرًا^(٣) ، وقوله تبارك وتعالى : (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ لِإِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)^(٤) ولا يخفى عليك ما في الآيات من إشارة إلى عظم النعمة ، حيث أحل لهم كل الطعام ، كما لا يخفى من ما في الآيات الأخرى من إشارة إلى فظاعة تكذيب فرعون وقومه كذبوا بالآيات كلها ، وإلى فظاعة استكبار إبليس اللعين ، حيث سجد لكافة كلهم أجمعون إلا هو أبي واستكبر وكان من الكافرين ..

هذا وإن قل ، كل ، تارة يقع تأكيداً وذلك عندما يستخدم مع المعارف كما في إهدى المذكرة ، ومعنى وقوعها تأكيداً أن الشمول مفاد بدونها فهي تأتي كيداً ودفع توهم غيره . كما رأيت : وتارة يقع تأسيساً وذلك عند إضافتها لشكرات كما في قوله تعالى : (فَتَنَّمَاؤُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ

(١) سورة آل عمران آية ٩٣ . (٢) سورة طه آية ٥٦ .
(٣) سورة القمر آيات ٤١ ، ٤٢ . (٤) سورة الحجر آيات ٣٠ ، ٣١ .

بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ^(١)، وقوله عز وجل : (وَكُلُّ شَيْءٍ نَّصَلْنَاهُ نَفْصِيلاً)^(٢)،
وقوله جل وعلا : (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ
يَنْسِلُونَ)^(٣)، ومعنى وقوعها تأسيساً أنها هي التي تغيد الشعوب وتؤسسها ،
فقد لا يفاد صلاحاً إلا بها ، وهذا واضح في الآيات المذكورة ، إذ بدون ذلك ،
لا تجدد فيها شئراً . .

٣ - عطف البيان : ويقصد البلاغى إلى عطف البيان لأغراض بلاغية
أهمها : إيضاح المعطوف عليه باسم مختص به كقولك : قدم صديقك خالد ،
فقد عطف بيان للصديق وقد وضعه وبينه ، لأن المخاطب له أصدقاء كثيرون ،
فعندما تقول له : جاء صديقك ، لا يدري أيهم ، وعندما تقول : خالد . فقد
وضحت وبينت ، إذ حصرت المجيء في خالد دون غيره من الأصدقاء .

وقد يكون عطف البيان غير مختص بمنبوعه ولكن يحصل الإيضاح
والاختصاص بمجموعهما ، كما في قول الشاعر :

والمؤمن المائذات الطير بمسحها ركبأن مكة بين الفيل والسند
ما إن أنيت بشيء أنت تذكره إذن فلا رفعت سوطاً إلى يدي^(٤)
والمعنى : والله الذى آمن الطير الملتجئة للحرم والسالكه به للأمن من

(١) سورة المؤمنون آية ٥٣ (٢) سورة الإسراء آية ١٢

(٣) سورة الأنبياء آية ٩٦

(٤) والمؤمن : الثوار للفسم والمراد بالمؤمن : الله جل جلاله . والمائذات : جمع
عائذة من العوذ وهو الالتجاء إلى رب معلول به للمؤمن أو مشاذا إليه . . والطير :
عطف بيان على المائذات . . والفيل : بفتح الزين وسكون الياء ، والبند بفتح البين
والنون : موضعان في جانب الحرم فهما الماء . . وجواب القسم قوله : وما إن أنيت
بشيء . . وإن فيه : زائدة للتأكيد .

الاصطياد والأخذ ، وقد حصل لها ذلك ؛ إذ لا يجوز لأحد أخذها ، بل
الركبان القاصدون مكة المارون بين الغيل والسند تمسحها ولا تعرض لها . .
فالطير عطف بيان للمائدات وهو غير مختص بها ، لأن المائدات صادق على
الطير وعلى غيره مما يعود بالحرم ويؤمنه الله سبحانه وتعالى فيه . . . وعند
النأمل نجد أن عطف البيان في المثال الأول غير مختص أيضاً بمتبوعه ، لأن
الصدقة تطاق على خالد وعلى غيره . . . ولذا فالمهم أن يكون عطف البيان لأخص
من متبوعه حتى يتحدد ويتضح ذلك المتبوع في ذهن السامع عندما ينصرف
إلى تابعه . . . ومنها مدح المتبوع والدلالة على عظم شأنه كما في قوله تعالى :
(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ)^(١) فالبيت الحرام عطف
بيان للكعبة قصد به المدح والدلالة على عظم شأنها لا الإيضاح ، لأن
الكعبة أظهر من نار على علم ، فليست في حاجة إلى إيضاح وبيان ، وكان
البيت الحرام مدحاً وتعليماً ؛ لأن فيه دلالة على أن هذا البيت موصوف
بالحرمة والاحترام والمنع من كل امتحان وانتهاك . . . ومنها ذم المتبوع
والدلالة على حقارته ، كما في قوله تعالى : (وَاسْتَفْزَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ . . . وَرَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . . . يَتَجَرَّدُ وَلَا يُكَادُ
يُسْقَى)^(٢) ، فالصديد بيان الماء قصد به الذم والدلالة على حقارته وامتصاصه
وقبحه . . . وذلك حتى ينزج ذلك الجبار ويقال عن دناؤه .

٤ - البدل : ويقع الإبدال من المسند إليه أو المسند أو أحد المتعاقبات
لأغراض بلاغية يقصد إليها المتمكلم ويقتضيهما المقام ، أهمها : زيادة التقرير
والإيضاح كقولك : جاء زيد أخوك ، فأخوك بدل من زيد وقد دل على
تقريره وإبرازه ، لأن مفهومه هو مفهوم زيد ومنه قوله تعالى : (اخذنا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)^(١) فصراط الذين أنعمت عليهم ، بدل من الصراط المستقيم وفيه بيان وإيضاح وزيادة تقرير لتكون الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم بالإيمان والرضا . . . ومنها التفصيل بعد الإجمال والإيضاح بعد الإبهام ، كما في قوله تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا)^(٢) فنزوله : د يلقى أثاماً ، فيه إجمال للعتاب وقوله بعده : ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهكاً ، بدل من القول الأول وفيه تفصيل وإيضاح لما أجمل فيه ، ولا يخفى عليك ما للبيان والتفصيل بعد الإجمال من رقع في النفس ، لأنه عند الإجمال نتطلع النفس ونستشرف إلى التفصيل ، فعندما يأذن التفصيل يكون له وقع وأثره ، حيث أنى والنفس إليه متطلعة وله مترتبة .

ومنه قول الشاعر :

و كنت كذى رجلين : رجل صحيحة

ورجل ردى فيها الزمان فشات

ففي قوله : د ذى رجلين ، إبهام وإجمال أزاله ووضحه البديل في قوله :
« رجل صحيحة ورجل ردى فيها الزمان فشات . . »

ومثله قول الآخر :

بلغنا السماء بحمدنا وسناؤنا ولما لنرجو فوق ذلك مظاهراً

ففي قوله : د بلغنا ، إجمال وقد جاء البديل : د بحمدنا وسناؤنا ، انفصلاً وموضحة لهذا الإجمال . . ولا يخفى عليك أن البديل في البيت الأخير ، بدل اشتراك وفي الشواهد السابقة بدل مطابق .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٨ ، ٦٩ .

(١) سورة الفاتحة آية ٦ ، ٧

ومن بدل الاشتغال أيضا قولك : سلب عمرو ثوبه . . وأعجبنى المعلم عليه . . والغرض البلاغى من البدل فى المثالين هو الإيضاح والتفصيل بعد الإبهام والإجمال ، لأن قولك : سلب عمرو ، وأعجبنى المعلم . . فيه إبهام وإجمال يظل معه المخاطب متعلقا إلى إيضاحه ومستشرفا إلى تفصيله وعندئذ يأتى البدل : « ثوبه وعلمه » ، موضعا ومبيننا فيقع المعنى فى النفس موقعا حسنا ويثبت فيها وبرسخ . . ومن بدل البعض قولك : جاءنى القوم أكثرهم ، وفيه كما ترى ، زيادة إيضاح وتقريب ، وبيان لما فى المسند إليه اقترام ، من إجمال . . ومن الأغراض البلاغية للبدل ، التفتيد إلى المبالغة والتفنن فى بناء العبارات ، ويكثر هذا فى بدل الغلط كما فى قول البحرى :

المع برق سرى أم ضـ . . مصباح
أم ابتساءتها بالمناظر الضاحى

حيث أراد المبالغة فى وصف الابتسامة ومدى وقعها عليه فتفنن فى العبارة كما ترى . . وقوله أيضا فى وصف الإبل الانضاء :

كالقسي المنطافات بل الأسـ . . هم مبرية بل الأوتار

فقد قصد إلى المبالغة فى وصف الإبل المهازيل فتفنن فى التشبيه مرقيا عن طريق الإضراب من الدقيق إلى الأدق .

وبهذا يتضح لك أن نظرة البلاغى للتوابع تختلف عن نظرة النحوى فالبلاغى ينظر إلى ما ورامها من دقائق وأغراض ومزايا جمالية ، أما النحوى فينظر إلى أحكامها وكيفية استعمالها فى الكلام . ولذا نجد النحوى مثلا يسوى بين البدل المطابق وعطف البيان فيجملهما شيئا واحدا ، وليس الأمر كذلك عند البلاغى ، بل هما مختلفان ولكل منهما مقامات خاصة به وهما قصد يقصد إليهما على نحو ما رأيت فى الشواهد . .

هـ - عطف النسق : يستخدم البلاغي عطف النسق ليحقق أغراضاً بلاغية ومقاصد يقصد إليها ، وهذه الأغراض تراعى كامنة وراء حروف العطف ، وهي : الواو وثم والفاء ولا وبلى وليكن وحتى وأو ، وما بين تلك الحروف من فروق دقيقة ، فالواو لمطلق الجمع ، والفاء للترتيب مع التبعييب و ثم ، للترتيب مع التراخي وبلى للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر ، ودلا ، للعطف ونفى الحكم عما بعدهما وليكن ، عكس لا ، وحتى للتدرج إلى الأعلى أو إلى الأدنى ، وأو ، للتخيير أو الإباحة أو للشك أو للتشكيك . . . والبلاغي يستغل تلك المعاني - كما قلت - ليحقق أغراضاً بلاغية يهدف إليها ، نقول مثلاً : جاءني زيد وعمرو وخالد ، فنفيد تفصيل المسند إليه مع الإيجاز ، حيث أفادت الواو اشتراك زيد وعمرو وخالد في المجيء فنصلت المسند إليه وأغنت عن قولك : جاءني زيد وجاءني خالد وجاءني عمرو ، وهذا هو وجه الإيجاز في المثال . . . وتأمل قوله تعالى : (إِنِّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)^(١) تجد أن فرعون وهامان قد ذكرا منفصلين معطوفاً أحدهما على الآخر ثم عطف عليهما بقية القوم بإجمالاً ، وجنودهما ، وذلك لغرض بلاغي وهو أن فرعون وهامان كانا السبب في الخطيئة دون جنودهما . . . ونقول : جاء زيد وعمرو فتفيد تفصيل المسند المجيء ، مع الإيجاز والإنباء بالتعقيب . إذ المراد : جاء زيد ، وجاء عمرو بعده مباشرة ، ونقول : جاء زيد ثم عمرو فتوحي - إلى ما بين المجيئين من تراح بالإضافة إلى إفادة التفصيل والإيجاز . . . وكذا نقول : اشتدت العاصفة ثم هدأت مشيراً بالحرف ثم ، إلى امتدادها وآها لم تكن إلا بعد زمن طويل . . . وقد تريد التدرج بالمعاني علواً أو دنواً فتسعمل ، حتى ، في عطف تلك المعاني . . . انظر إلى قول الشاعر :

قهرناكم حتى السجدة وانهم نهابونا حتى بيننا الأصغر (١)

حيث ارتفع بقهرهم إلى أعلاهم : و حتى الحكمة ، ثم انخفض بهيبتهم إلى
ملا يخيف : و حتى بينما الأصغر ، وهذا معنى جميل ونوع رائع ، إذ بدأ
بالأدنى مرتفعاً بالقهر ثم انحدار بالإخافة منتهياً إلى أدنى ما يمكن أن يخيف ..
وقد يلجأ البلاغي إلى عطف الدق ليرد السامع عن الخطأ في الحكم إلى الصواب
بأخصر طريق فيقول مثلاً : جاء زيد لا عمرو ، لمن اعتقد أنها جاء معا أو
أن الذي جاء عمرو دون زيد . . وكذا نقول : جاء زيد لا عمرو وما جاء
زيد بل عمرو لمن اعتقد بجيئهما معا أو بجيء زيد دون عمرو . . وقد يراد
بالعطف التشكيك كما في قول الشاعر :

وفد زعمت لیلی بائی فاجر لنفسی نقاداً از علیم با فجر و رها

فتمد عطف ، باو ، ليشكك السامع وعندئذ ينظر في أمره ويتأمل حتى يصل إلى الخبير اليقين ويعرف أواخر الشعاع أم تبقى .

وقد يراد به الإيهام استعماله للمخاطب، وترغيبه له في الحق والاهتداء، كما في قوله تعالى : (وَإِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِنبَاءَكُمۡ كَمْ تَكُن فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(٢) ومنه قول الشاعر :

نعم، أو أنتم الأولي القوا الحق فيبدأ المبطلين وسحقا
فقد استخذت ، أو ، الإيهام حتى لا يواجه الضال بضلاله فيكون في
هذا تنفير له من قبول الحق والهداية.

وهذا يتضح لك أن البلاغى يجد فى معانى حروف الدطف وسائل لتحقيق
مآربه وإمراز أهدافه البلاغية السامية ، التى يهدف إليها وبقتصد .

(۱) الحکامة : جمع کبی وهو الفارس المقدام .

(۲) سورة سبأ الآية ۲۴

تقديم المسند إليه بضمير الفصل : وقد يعقب المسند إليه بضمير الفصل فيفيد ذلك القصر، أى قصر المسند على المسند إليه. كقولك : زيد هو المظالم وخالد هو الذى يجود بماله ، ومنه قوله تعالى : (أَلَمْ يَغْلَبُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)^(١) ، فالمعنى لا يقبل التوبة عن عباده إلا الله . . .
أر قصر المسند إليه على المسند ، كقولك : السكرم هو التقوى ، والحسب هو المال ، أى : لا كرم إلا بالتقوى ، ولا حسب إلا بالمال . . . وقد يكون ضمير الفصل مجرد التوكيد ، وذلك إذا كان القصر مفاداً بغيره بأن تكون الجملة معرفة الطرفين مثلاً ، كما فى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُرِّ الْقُوتِ الْمَتِينُ)^(٢) ، وقوله عز وجل : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ)^(٣) ، وقوله جل وعلا : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ النَّازِلُونَ)^(٤) . . . وسيتضح لك هذا عند دراستك لأسلوب القصر وطرقه فى الجزء الثمانى من هذا الكتاب .

تقديم المسند إليه : اهتم البلاغيون فى دراستهم لتقديم المسند إليه بدراسة تقديم على الخبر الفعلى فى النفى أو فى الإثبات نحو : ما أنا فعلت هذا ، وأما ما فعلت هذا ، وأنا فعلت . . . كما اهتموا بدراسة تقديم المذكرة ، ومثل وغيره ، والفاظ العموم نحو : كل وجميع ، ولعل اهتمام البلاغيين بدراسة هذه الأمور وإبرازها ، يرجع إلى ما يمكن وراءها من دقائق وأسرار ينبغى على الدارس الوقوف عليها والإحاطة بها . . . وإليك بيان ذلك :

تقديم المسند إليه فى النفى : إذا أدم المسند إليه فولى أداة النفى مثل : ما أنا فعلت . . . ما محمد صنع هذا ، أفاد التقديم عندئذ الاختصاص ، لأن

(١) سورة التوبة الآية ١٠٤ . (٢) سورة الداريات الآية ٥٨

(٣) سورة المائدة الآية ١١٧ . (٤) سورة الحشر الآية ٢٠

مثل هذا التعبير : ما أنا فقلت ، ما أنت قلت . ما هو بجود بمال . ما محمد صنع ، . . يفيد - كما نال عبد القاهر - ثلاثة أمور :

- ١ - نفي الفعل عن المسند إليه المقدم .
- ٢ - إثبات نفس الفعل المنفي .
- ٣ - وجود فاعل آخر غير المسند إليه المتقدم قد فعل هذا الفعل .

فعندما نقول : ما أنا قلت هذا الشعر . ما أنا بنيت هذه الدار . فأنت تنفي عن نفسك قول هذا الشعر ، وبناء تلك الدار ، وثبتتهما لفاعل آخر غيرك ، ولذا كان من الخطأ أن تقول : ما أنا قلت هذا الشعر ولا قاله أحد . ما أنا بنيت هذه الدار ولا غيري . ما محمد صنع هذا الشيء ولا غيره . لأن صدر الجملة أفاد بتقديمك المسند إليه ، أن الفعل قد انتفى عنه وأثبت لغيره ، وعجزها أفاد نفي الفعل المذكور عن الغير وهذا تناقض وتدافع ، إذ كيف تثبت الفعل للغير وتنفيه عنه في آن واحد . . إن العطف في الأمثلة المذكورة قد جعل الفعل يقع بغير فاعل وهذا محال ، فالصواب أن يقال : ما أنا قلت هذا الشعر بل قاله غيري . ما أنا بنيت هذه الدار بل بنّاها أحد غربي . ما محمد صنع هذا الشيء بل صنعه غيره .

فإن قلت : ألا يجوز أن تقول : ما قلت هذا ولا قاله أحد غربي . ؟ ما بنيت هذه الدار ولا بنّاها غيري . ؟ ما صنع محمد هذا الشيء ولا صنعه أحد غيره . ؟ فالجواب : يمنع من هذه الأقوال اسم الإشارة المذكور ؛ لأنك تشير به إلى معين قد وجد وفعل ، تشير إلى الشعر مقولاً وهذا الشعو ، وإلى الدار مبنية : هذه الدار ، وإلى الشيء مصنوعاً : هذا الشيء ، ولا يتأتى أن يكون المشار إليه ، الموجود أمامك ، لم يفعله أحد لا أنت ولا غيرك ، اللهم إلا إذا قيل : إن اسم الإشارة ، لم يشير به إلى شيء محقق مرئي ، بل أشير به إلى معنى في ذهن المخاطب . . إلى دعوى قد أدّاها . . وكأنه قد ادعى أن شعر أفل

وأن دارا بنيت وأن شيئا قد صنع ، فأنت تقول : هذا ، مشيرا إلى ما ادعاه
وقاله ، لا إلى شيء . مشاهدا ما يكاد وكألك تقول له : إن ما ادعيت لم يفعل
لا منى ولا من غيرى ، فأنت فى دعواك واعم ، وهذا الذى فى ذهنك
لا وجود له مطلقا ، إن أردت ذلك فما سألت عنه جائز ذلك أن تقوله .

ومن الخطأ أيضا أن تقول : ما أنا أكلت اليوم شيئا . ما أنا قلت شعرا
قط . فتجعل المنفى هكذا ماما . لأنه يقتضى الخيال وهو أن يكون ههنا إنسان
غيرك قد قال كل شعر فى الدنيا وأكل كل شيء يؤكل . ولكن الصواب فى
مثل هذا أن تقول : ما أكلت "يوم شيئا" . ما قلت شعرا قط ، لأن قولك
" ما فعلت " ، لا يفيد سرى نفي الفعل عنك فقط ، دون تعرض للغير لا ينفى
عنه ولا إيجاباته له . ومن الخطأ كذلك قولك : ما أنا ضربت إلا زيدا ، لأن
معناه : ما أنا ضربت أحدا إلا زيدا ، وهذا يقتضى أن يكون هناك أحد
غيرك قد ضرب جميع الناس ما عدا زيدا وهذا محال . فالصواب فى مثل هذا
أن يقال : ما ضربت إلا زيدا .

وبما جرى على هذا الأسلوب فى إفادة الاختصاص من التعبيرات الجيدة
والأساليب الرفيعة ، قول المنبئ :

وما أنا أسقيت جسمى به ولا أنا أضربت فى القلب نارا

فالمعنى : هذا السقم الحاصل فى جسدى وتلك النيران المشتعلة فى فؤادى ،
لم أفدلهما أنا ، بل فمهما غيرى ، ووراء هذا التركيب معنى لطيف وهو عجز
الشاعر أمام عواطفه المشجوبة التى أضنته وكأبه يقول : لو كان الأمر بيدي
لأنقذت نفسى ، ولكن لا طاقة لى بذلك . ، ومثله قوله أيضا :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله

ولكن لشمرى فبك من نفسه شعر

وهو ينفى أن يكون هذا الشعر البكائن قد قاله هو وحده وإنما قاله معه

غيره ، وهذا الغير هو الشعر نفسه لأنه شعر شاعر .. وتلا حظ أن المسند في كل ما ذكر من شواهد وأمثلة فعل ، فمل تلك الإفادة ، لإداة تقديم المسند إليه بعد النفي للنصر ، قاصرة على الخير الفعلي ؟ قال هذا بعض البلاغيين ، وقال آخرون : هي ليست قاصرة على الخير الفعلي . بل تتمدد إلى غيره ، وأن قولك : ما أنا ضارب زيدا . وما محمد بجاحد نعمة ربه . يفيد الاختصاص كما يفيد قولك : ما أنا ضربت . وما محمد . جحد نعمة ربه .

والذي أراه أن السياق هو الذي يحدد الإفادة . . ففي قوله تعالى :
(قَالُوا : يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا نَظُنُّكَ زِينًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
رَحْمَتُكَ لَرَجَعْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتِ أُغْزِ عَلَيْهِكُمْ
مِنْ اللَّهِ)^(١) ، فقوله تعالى : وما أنت علينا بعز ، أفاد الاختصاص بمعنى :
نفي العزة عن شعيب وإثباتها لهطه ، ولذا قال - عليه السلام - في جوابهم
منكرأ ذلك منهم : د أرحطى أغز عليهم من الله ، . . ومثله قوله تعالى :
(وَقُلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا كُونُوا لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبِعُ لِمَنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ
يُبرِّئُهُمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ خَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)^(٢)
فالخروج من النار منفي عن المسند إليه المقدم ، هم ، العائد إلى الكفار الذين
تبرأ بعضهم من بعض ، ومثبت لغيرهم وهم عصاة المؤمنين لأن المؤمن العاصي
لا يخلد في النار . . أما قوله عز من قائل : (وَفِي النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا
بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ)^(٣) ، وقوله عز
وجل : (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي)^(٤) ، وقوله تعالى :
(قَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِيُنَافِقَ رَجُلٌ بِكَاهِنٍ وَلَا يَتَّبِعُونَ)^(٥) ، فواضح أن

(١) - سورة البقرة ١٦٧

(٢) - سورة إبراهيم ٢٢

(١) - سورة هود ٩١

(٣) - سورة البقرة ٨

(٥) - سورة الطور ٢٩

تقديم المسند إليه : دو ما هم مؤمنين ، وما أنا بصرخكم وما أنتم بصرخي .
 فما أنت بعمدة ربك بكامن ولا مجنون ، لا يفيد الاختصاص ، بل يريد
 فقط تأكيد كيد نفى المسند عن المسند إليه بالمقدم . ولهذا ينبغي علينا ألا نغفل
 دور السياق رائره في تحديد الإفادة في مثل هذه الأساليب وأن ننظر إليها
 في سياقها ، فما يحكم به السياق ويقضى فهو ذلك . كما أنه ينبغي أن تبنى الأحكام
 البلاغية على الأكثر والغالب ولا تبنى على القطع والإطلاق . لا أننا عندما
 نتأمل التراكيب الجديدة نرى أن ما قطع البلاغيون بإفادته للقصر وهو تقديم
 المسند إليه على الخبر الفعلي بعد النفي نحو : ما أنا فعلت ، نراه منخرما وقابلا
 للرد : (انظر إلى قوله تعالى : (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونِ
 عَنْ أَجْوَهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِمْ
 بَغْتَةً تَتَنَجَّيَهُمْ فَلَا يُسْتَطَاعُونَ رَدُّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) (١) نجد أن قوله
 دولا هم ينصرون ، قد أفاد الاختصاص ، إذ انصر في هذا اليوم منى عن
 الكفرة مثبت لغيرهم وهم المزمعون فالثقة عز وجل ينصرهم في ذلك اليوم ويتجلى
 عليهم بدعة ، وهذا يتفق مع ما قاله البلاغيون . . أما قوله تعالى : دولا هم
 ينظرون ، فالتقديم فيه يفيد التأكيد وتقوية الحكم ، ولا يفيد الاختصاص ،
 لأنه لا أخذ ينظر حين تأتبه الساعة . وهذا يتعارض مع ما قاله البلاغيون .
 ولذا نقول ينبغي أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ، لا على
 القطع والإطلاق (٢) .

فإذا قدم المسند إليه على أداة النفي نحو : أنا ما فعلت وأنت ما قلت ومحمد
 لا يصنع هذا والمؤمن لا يرضى الضيم ، أفاد هذا التقديم إما الاختصاص وإما
 التوكيد وتقوية الحكم . . والسياق هو الذي يحدد المراد ، انظر إلى قوله
 عز وجل : (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (٣) . وقوله

(١) سورة الانبياء الآية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) انظر خصائص التراكيب ١٧٩ . (٣) سورة يس الآية ٧ .

تعالى : (فَعَمَّيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُهُمْ لَا يَبْتَاسُ آلُونِ) ^(١) وقوله جل وعلا : (إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ^(٢) تجدد أن التقديم في هذه الآيات الكريمة قد أفاد من التأكيد وتقوية الحكم ما لا يفيدته تأخير المسند إليه ، وتأمل قولك : ، فلا يؤمنون ، وما عليه النظم الكريه فـ فهم لا يؤمنون ، ، فستدرك ما قد أفاده تقديم المسند إليه في النظم القرآني من تأكيد نفي الإيمان عن هؤلاء . . وقد يفاد بهذا التقديم القصر كقولك : أنا لا أقبل الظلم . . المؤمن لا يسعى في الشر ، إذا كنت تريد نفي الفعل عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره .

تقديم المسند إليه في الإثبات : وتقديم المسند إليه في الإثبات يفيد كذلك أحد الأمرين المذكورين ، إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص ، حسبما يحدد السياق وقرائن الأحوال ، فقولك : محمد يفعل الخير ، صالح لإفادة التأكيد فهو أكد من قولك : يفعل محمد الخير وصالح لإفادة الاختصاص ، إذا كنت تريد أن فعل الخير مقصور على محمد المقدم ومنفي عن غيره . . وتقول : أنا فعلت كذا . . أنا أطعم الفقير . . تريد أنك وحدك تفعل هذا أو أنك تفعله دون فلان ، فيكون التقديم مفيداً للقصر الحقيقي أو القصر الإضافي ، واقرأ قوله تعالى : (وَيَمِيزُ بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَبْلُغُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) ^(٣) وقوله عز وجل : (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بِهِ غَيْرُهُمْ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنْتَبَهَرَكُمُ فِيهَا فَاسْتَنْفِرُوا لَهُمْ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحِيمُ) ^(٤) وقوله جل وعلا : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُنَشَّطًا)

(١) سورة الأنفال الآية ٢٣-٢٤

(٢) سورة القصص الآية ٦٦

(٣) سورة هود الآية ٦٦-٦٧

(٤) سورة التوبة الآية ١٠١

مَعَانِي تَفْشِيرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ^(١) . وقوله عز من قائل
(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا حَمَلَكُ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا)^(٢) . وقرأ في سورة الفحل : (وَاللَّهُ
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... وَاللَّهُ خَاقِكُمْ
فَمَنْ يَعْقِلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ... وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ
ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا)^(٣) . نجد أن العمل يختص بالاسند
إليه المقدم وهو لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه ، فالتقديم في الآيات
الكريمة قد أفاد الاختصاص - كما لا يخفى - وعندما يفيد التقديم الاختصاص
فهو يفيد التوكيد لا محالة ، لأن الاختصاص يستلزم التوكيد .. ومن ذلك
المثل المشهور : أنا علمي بذهب أنا حرشته ، أى : صدته فالتقديم فيه أفاد
الاختصاص ، لأن المراد : أنا حرشه وحده دون غيره فهو عليه به وخبير
وإذا أنكر أن يعلم به أحد .

وما أفاد التقديم فيه التأكيد وتقوية الحلم دون الاختصاص قوله تعالى
(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)^(٤)
فقوله : وهم يخلقون ، أفاد التقديم فيه تأكيد خلقهم فهم من مخلوقات الله
تعالى والمخلوق لا يعبد ولا يستطبع أن يخلق شيئاً وفيه ما فيه من تسفيه أحلام
الكفرة الذين دعوا هؤلاء من دون الله . . ولا يفيد التقديم في الآيات
الكريمة اختصاصاً ، لأن الخلق ليس مقصوراً عليهم ، فالله تعالى يخلقهم
ويخلق غيرهم .

(٢) سورة الإنسان ٢٣

(٤) سورة النحل ٢٠

(١) سورة الزمر ٢٣

(٣) سورة النحل ٦٥ - ٨١

وقد عمل البلاغيون سر لإفادة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي للتأكيد وتقوية الحكم ، فقال عبد القاهر : « فإن قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل أكد لإثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله : « هما يلبسان الجود » ، أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال : يلبسان الجود ؟ . . فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا بالحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك فإذا قلت : عبد الله ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً : قام أو قلت : خرج أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المانوس به ، وقبله قبول المنهي له المطمئن إليه . وذلك لا محالة أشد لشبوهه وأنى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق . . وجعل الأمر أنه ليس لإعلامك الشيء بفترة مثل إعلامك له بعد التنبية عليه والتقدمة له ؛ لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، ومن ههنا قالوا : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أنفع له من أن يذكر من غير تقديم إضمار . . » (١) .

وعلمنا السكاكي بتكرار الإسناد في مثل قولهم : « هم يضربون السكبيش يبرق بيضه » ، قد أسند الضرب إليهم مرتين ، مر ذلي ووا الجماعة في « يضربون » والثانية في إسناد جملة : « يضربون » ، إلى الضمير « هم » الذي هو المسند إليه المقدم ، فهذا التكرار للإسناد هو منشأ التوكيد وتقوية الحكم ودفع الشك عند السكاكي (٢) .

وقد ذكر عبد القاهر المقامات التي تقتضى التأكيد وتقوية الحكم والتي ينبغي أن يقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلي وهي :

(١) دلائل الإعجاز ١٥٩ .

(٢) انظر مفتاح العلوم ٩٣ .

١ - ما سبق فيه الإنكار من منكر كقولهم : هو يعلم ذلك وإن أنكر ، وهو يعلم أن الكذب فيما قال وإن حلف عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)^(١) أى يعلمون كذبهم ، فهم ينكرون الكذب ، وينكرون أيضا علمهم بكذبهم ؛ لأن الكاذب لا يعترف بكذبه وإذ لم يعترف بكذبه ، كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب .. ومعلوم أن الإنكار يقتضى تركيد الحكم ، ومن أجل ذلك قدم المسند إليه .

٢ - مقام التكذيب وإبطال دعوى مدع ، كما فى قوله تعالى : (وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا : آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)^(٢) فقولهم : آمنا ، دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به ، فالمقام مقام تكذيب يقتضى التأكيد لإبطال ما ادعوه ، ولذا قدم المسند إليه : وهم قد خرجوا به .

٣ - فيما القياس فى مثله ألا يكون ، كما فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)^(٣) ، وقوله جل وعلا : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)^(٤) وذلك أن عبادتهم لتلك الآلهة تقتضى أن تكون خالفة لا مخلوقة ؛ لأن من شأن المعبود أن يكون خالقا ، وهم وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة ، إلا أنهم نزلوا منزلة من ينكرون ذلك ، فأكد لهم الكلام ، تنبيها إلى خطئهم وضلالهم .

٤ - أن يكون الخبر غريبا لوقوعه على خلاف العادة ، كقولك : البقرة تكلمت .. الجبان بصارع الأسود .. ونحو ذلك .

(٢) - سورة المائدة آية ٦١

(١١) - سورة آل عمران آية ٧٥ .

(٤) - سورة الفرقان آية ٣

(٣) - سورة الملح آية ٢٠ .

٥ - في مقام الوعد والضمان ، كقولك للفقير : أنا أعطيك وأكفيك .
أنا أقوم بهذا الأمر ، وذلك لأن من شأن من تعدده وتضمن له أن يعترضه
شك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو أحوج إلى التوكيد .

٦ - يكثر في مقام المدح والفخر ، كقولك : هو يعطى الجوزيل .. وأنت
تقرى الضيف .. ومنه قول الشاعر :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا نرى الآدب منا ينتقر^(١)

وقول الآخر :

هم يضربون السكبش بهرق بيضه على وجهه من الدماء سيائب^(٢)
وقوله :

هم بفرشون اللبد كل طمر^(٣) وأجرد صباح يبذ للغاليا^(٤)
وقوله :

هما يابسان المجد أحسن ابسة شحيحان ما استطاعا عليه كلاهما

ولنما احتاج المدح والفخر إلى التوكيد ؛ لأن من شأن المادح والمفتخر
أن يلغيا الخبر مؤكدا كما امتلأت به أنفسهما وأن يمنعا السامعين من الشك
فيه والارتياب^(٥) .

(١) المشتاة : زمن الشتاء أو مكانه . والجلى : الدعوة العامة لا يخص بها أحد .
والآدب : الداعي إلى الطعام . . . وينتقر : يدعو النقرى وهي الدعوة الخاصة .
(٢) السكبش : رئيس القوم ، والبيض : ملردها بيضة وهي الخردة . والسيائب :
الطرائق .

(٣) اللبد : المتأبد من الصوف أو الشعر . والطمرة : الفرس السكرية ولذا ذكر
طمر . والأجرد : القصير الشعر . والصباح : الذي يشبه سيره السباحة في المين واليسر
ويبذ : يذاب . والغاليا : المبالغ في عدوه .

(٤) انظر دلائل الإعجاز ١٦٠ ، ١٦١

واقرأ قوله تعالى : (وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ
مُبَكَّرَةً وَأُخَّرًا)^(١) ، نجد التقديم في قوله : : فهي تملى ، قد أكد الخبر وأنبا
بما في أنفس الكفرة ورغبتهم في أن باقى الخبر مؤكدا وأن تقرر به الاسماع
قويا فيثبت فيها ويقر ، ولا يكون هناك مجال للشك فيما يخبرون والارتباب
فيما يصفون ، بل تمتلئ به أنفس السامعين وبرسخ بها كما امتلأت به أنفس
الكفرة . . . وخذ قوله تعالى : (إِنَّ إِلَهَ الْوَحْدِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)^(٢) وتأمل قوله : : وهو يتولى الصالحين ، وكيف أفاد
تقديم المسند إليه قوة لإيمان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وكال ثقته به ،
حيث جاء الخبر قويا مؤكدا ، قد امتلأت به نفسه - عليه الصلاة والسلام -
فلا شك - ولا ارتباب في نصر الله تعالى وتوليها . وانظر إلى قوله عز وجل :
(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)^(٣)
وقف على معنى كلمة : : يوزعون ، إذ معناها : يحبس أولهم على آخرهم
بإيقاف أولهم حتى يلحق به آخرهم ، هذا خبر غريب جرى على خلاف ما تقتضى
به العادة ، لأنس وجن وطير على هيئة من الإبزاع والتداخل . قد ضج بهم المكان
واضطرب ، فغرابة هذا الخبر تقتضى تأكيداً حتى تأنس به النفوس ويتقرر
لديها ، ولو قيل : : يوزعون ، هكذا رسلا بلا تأكيد ، لما كان التركيب
ملائماً لحال النفس المتلقية^(٤) .

ولذا رأينا عبد القاهر يقول في مثل هذه الآيات الكريمة : : وما هو
بهذه المنزلة في أنك نجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على
الاسم قوله تعالى : (إِنَّ إِلَهَ الْوَحْدِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى

(١) سورة الفرقان آية ٥ (٢) سورة الأعراف آية ١٩٦

(٣) سورة النمل آية ١٧ .

(٤) انظر خصائص للتراكيب ١٧٤ ، ١٧٥ .

الصَّالِحِينَ) وقوله تعالى : (وَقَالُوا : أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ، وقوله تعالى : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) ، فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لوجىء في ذلك بالفعل غير مبنى على الاسم فقيس : إن ولي الله الذى نزل الكتاب ويتولى الصالحين ، واكتتبها فتعلى عليه ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون : لوجد اللفظ قد نجا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التى ينبغى أن يكون عليها ،^(١)

ونحو اللفظ عن المعنى عندئذ مرجعه إلى خلو التركيب من التوكيد الذى اقتضاه المقام على نحو ما بينت لك .

تقديم النكرة : إذا كان المسند إليه نكرة وقدمت على الخبر الفعل ، فإن تقديمها لا يختلف في الدلالة عن تقديم المعرفة سوى أن النكرة قد يراد بها الجنس وقد يراد بها العدد ، فأنت تنظر في إفادة تقديم النكرة للاختصاص أو للتأكيد إلى أحد هذين الأمرين : الجنس أو العدد ، فتعتبر التخصيص أو التأكيد لأحدهما ، حسبما يقتضيه المقام ويحدده السياق وقرائن الأحوال فإذا قلت : ما رجل جاءنى ، فالمراد نفي المجيء عن الرجل وإثباته لغيره ، وهذا الغير إما : امرأة وإما : رجلان أو أكثر حسبما يقتضيه المقام . فإن كان المخاطب يعتقد أن الذى جاء رجل وقد أتتك امرأة ، فالمراد عندئذ : ما رجل جاءنى بل امرأة وإن كان يعتقد أن من جاءك رجل واحد وقد جاءك أكثر من رجل ، كان المراد ما رجل جاءنى بل رجلان أو ثلاثة أو أربعة حسب العدد الذى قد حل بك ونزل عندك . وإذا قلت : رجل جاء ، فالمراد إما التأكيد وتقوية الحكم ، إما التخصيص حسبما يقتضى المقام . فإن كان مخاطبك يفتكر المجيء ويحجده أو يشك فيه أو يستبعد . فالمراد عندئذ يستدعى

التأكيد ويتطلب التقوية ، فعندما تقول له : رجل جاء وأتقدم المسند إليه
النكرة ، فأنت تؤكد له الخبر ليقر في ذهنه ويثبت .. أما إن كان يعتقد أن
الذي جاء امرأة ، أو أكثر من رجل . فالمراد بالتقديم عندئذ تخصيص الجنس
في الأول وتخصيص العدد في الثاني ، أي : رجل جاء لا امرأة .. ورجل جاء
لا رجلان .. فإذا لم ترد لا تأكيد ولا تخصيصا قلت : جاء رجل بدون
تقديم .. وكذا القول في نحو قولك : رجل ، ما جاءني ، ، على حسب ما مر بك
في تقديم المعرفة .

تقديم : مثل ، و غير ، : مثل وغير يلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية
عما أضيفتا إليه بدون تعريض ، كما في قولنا : مثلك يرعى الود .. مثلك يعطى
الجزيل .. غيرك لا يجود ، نريد بذلك الكناية عن الممدوح دون أن نعرض
بشخص آخر ، فالمراد : أنت ترعى الود ، وأنت تعطى الجزيل ، وأنت تجود ،
استعملت : مثل وغير ، مكنى بهما عما أضيفتا إليه دون تعريض بغيره أو إيماء
إلى أن هذا الغير لا يفعل مثله بفعل المتحدث عنه .. وتقديم : مثل وغير ،
لأنما يكون لازما عندئذ ، لأن الكناية أبلغ من التصريح وآكد فهي كدعوى
الشيء بدليل وبينة والدعوى المشفوعة بالبينة ، والمصحوبة بالدليل أقوى
وآكد من الدعوى المرسلة ، الخالية من الدليل ، العارية من البينة .. فلما
كان الغرض هو التأكيد والتقوية لزم أن تقدم : مثل وغير ، ، لأن تقديمهما
عما يحقق التأكيد ويفيد التقوية .. ولزوم التقديم لتمامه ولزوم بلاغى مرجعه
إلى استعمال العرب وإلى كون التقديم أعون على تحقيق الغرض المقصود ..
ولذا ذكر عبد القاهر أن هذا التقديم كاللازم حيث يقول : ، وما يرى تقديم
الاسم فيه كاللازم : مثل وغير ، ، في نحو قوله :

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه (١)

(١) المزن : السحاب وصوبه : انسكابه وغرب الدمع : انهماله من العين .

وقول الناس : مثلك رعى الحق والحرمة ، وكقول الذى قال له الحجاج
لأحملك على الأدم ، بريد القيد ، فقال على سبيل المغالطة : د مثل الأمير
يحمل على الأدم والأشهب ، (١)

فقد كنى المتنبي فى البيت المذكور عن الممدوح وهو = ضد الدولة وقد
كان يمز به فى فقد عنته ، كنى عنه بقوله : د مثلك ، ، ولم يرد د بمثل ، شخصا
آخر مماثلا له ، وقد صرح بهذا فى نفس القصيدة إذ قال :
ولم أقول مثلك أعنى سواك يا فردا بلا مشبه

فيكان تقديم لفظ المثل لازما أو ما بلاغيا أو كما قال عبد القاهر د كاللازم
ليفيد مع الكناية المبالغة فى التوكيد وتقوية معنى المدح . . وكذا قول الناس
د مثلك رعى الحق والحرمة ، ، وقول الخارجى للحجاج : د مثل الأمير يحمل
على الأدم والأشهب ، المراد بلفظ المثل فيهما : الكناية عما أضيفتا إليه ،
ولذا لما قال الحجاج للخارجى : د إنه الحديد ، قال : لأن يكون حديدا خير
من أن يكون بليدا ، ومراد عبد القاهر بقوله : د على سبيل المغالطة ، أسلوب
الحكيم ، وقد كان يسميه بالمغالطة وهى مغالطة أدبية لطيفة - كما سنرى عند
دراسة هذا الأسلوب . . وما جاء فيه لفظ : د غير ، مقدها على سبيل الكناية
عما أضيفت إليه ، قول أبى تمام :

وغبرى يأكل المعروف سحتا وشحب عنده بيض الأيادى (٢)

لم يرد أبو تمام شخصا آخر مغايرا له هو الذى يصنع ذلك بل أراد الكناية
عن نفسه ، وأنه لا يفعل ما ذكر . وكان قد وثى به وأش إلى وزير المهتمهم ،
فزعم أن أبا تمام قد هجاه ، وكانت للوزير أياد بيض على أبى تمام فقال مدافعا

(١) دلائل الإعجاز ١٦٤

(٢) السحت : الحرام ، وشحب لونه تغير من هزال أو مرض ، وبيض الأيادى :

أنهم ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

وراداً لتلك الوشاية: وكيف أمجرك وقد غمرني معروفك؟ لو فعلت لكنت
آكلاله حراماً وأنا لا آكل المعروف حراماً، فقد أراد بقوله: «غيري»
ياكل، الكناية عن نفسه - كما قلت - ولم يرد تعريضاً بغيره... ومثله قول
المتنبى:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع . إن قالوا جُبُّوا أو حدثوا شجُّوا

أراد: أنه لا ينخدع ولم يقصد التعريض بشخص آخر يفر وينخدع فقد
كفى عن نفسه بقوله: «غيري»، كفى عن نفسه بضد هذا الحكم، وهو أنه
لا يفر ولا يحدع.

فإن أريد بمثل شخص آخر مماثل أو مشابه لما أضيفت إليه... وأريد
بغير شخص مغاير له، فمئذ لا يلزم تقديمهما؛ لأن الكلام فيهما يكون على
سبيل الحقيقة لا الكناية... من ذلك قول الصابي:

تشابه دمه إذ جرى ومدامني فن مثل ما في الكأس عيني نسكب

وقول ابن شرف القيرواني:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكأنني سبابة المتنم

فلم يرد بمثل وغير في البيتين الكناية، بل أريد بهما الحقيقة، ولذا فإن
تقديمهما غير لازم في حكم البلاغة، إذ ليس هنالك ما يقتضى ويستلزم
تقديمهما.

تقديم الفاظ العموم على النفي: الفاظ العموم مثل كل، وجميع،
إذا تقدمت على أدوات النفي في التمهيرات أفادت عموم السلب بمعنى شموله
لكل أفراد المسند إليه... من ذلك قول أبي النجم:

قد أصبحت أم الخيلار تدمى على ذنباً كئله لم أصنع

فقله : « كله لم أصنع » أفاد عموم السلب أى أنه لم يفعل شيئا مما تدعيه
أم الحيار . . وقول الآخر :

فكيف وكل ليس يعدر حمامه

ولا لأمري عما قضى الله من حل^(١)

فالمعنى على نفي أن يعدر أحد من الناس حمامه .

ومثله قول دعبيل :

فوالله ما أدنى بأى سهامها رمتنى وكل عندنا ليس بالمسكبي
أبالجيد أم مجرى الوشاح وإننى لأشترهم عينها مع الفاحم الجعد^(٢)

والمعنى : على نفي أن يكون فى سهامها مسك على وجه من الوجوه ومن
الواضح فى إفادة عموم السلب قول النبی - صلى الله عليه وسلم - عندما سأله
ذو الیدين : أفصرت الصلاة أم نسيت بأرسول الله ؟ قال : ذلك لم يكن ،
أى : لم يكن واحد منهما ، لا فصر ولا نسيان ، ولذا قال ذو الیدين وقد سمع
لجابة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - : « بعض ذلك قد كان » .

ونقول : جميع القوم لم يأتوا ، وعامة الطلاب لم يحضروا ، تريد بهذا
أنه لم يأت أحد من القوم ولم يحضر أحد من الطلاب .

ولما كان تقديم لفظ العموم على النفي مفيدا لعموم السلب ، لذلك إذا

(١) الحام : قضاء الموت وقدره والمراد : الأجل المحتوم . ومن حل : زوال
أو مهر .

(٢) المسكبي : الذى يحبر ولا يجسد ماء ، يريد أن سهامها لا تخطىء المرحى ،
والوشاح : ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشع . والفاحم : الشعر الأسود وأنهم :
يسكون الماء وكسر الماء من أنهم إذا نسب إليه ماتهم به .

بدأت به كنت قد بينت النفي أعليه سوا وسطا على الكلية على النفي وأعمالها فيه ،
وإعمال معنى الكلية في النفي يقتضى ألا يشذ شئ عن النفي .

أما إذا تقدم النفي على الفاظ العموم ، فإنه يفيد سلبها ، أى : سلب
العموم والشمول بمعنى ثبوت البعض ونفي البعض الآخر . . .

من ذلك قول المتن : . . .

ما كل ما يقضى المرء يدركه ثأنى الرياح بما لا تشتهي السفن^(١)

يريد أن المرء قد يدرك بعض ما يتمناه ولكنه لا يدرك جميعه ، فتقدم
دما على كل ، أفاد سلب العموم .

ومثله قول أبي العتاهية :

ما كل رأى الفقى يدعو إلى رشد إذا بدا لك رأى مشكل تقف

يريد أن بعض رأى الفقى قد يدعو إلى رشد وبعضه قد لا يدعو . . .
وقول البحتري :

وأعلم ما كل الرجال مشيع وما كل أسياف الرجال حسام^(٢)

يريد : أن هناك رجالا فيهم أفضالة الشجاعة والإقدام وهناك من ليس
كذلك ، وأن بعض الأسياف تقطع وبعضها ليس كذلك . . . ولو قيل : كل
ما يتمنى المرء لا يدركه . . كل رأى الفقى لا يدعو إلى رشد . . كل الرجال
ليس مشيعا وكل الأسياف ليست حساما . : لتغير المعنى وكان المراد عموم
السلب ، أى أن المرء لا يدرك شيئا مما يتمناه ، ورأى الفقى لا يدعو إلى رشد
أبدأ ، والشجاعة منقبة عن كل رجل ، والجودة منقبة عن كل سيف .

(١) السفن : روى بضم السين والفاء جمع - منقبة وروى بفتح السين وكسر الفاء
وهو ريان السفينة .

(٢) المشيع : تشجيع الصعب المنهور الذى كأنه يشيع قلبه .

ونقول : ما جاء كل القوم .. ما حضر الطلاب كلهم .. لم آخذ كل حق ..
 تريد بهذا : أن بعض القوم قد جاء ، وبعض الطلاب قد حضر ، وبعض حقك
 قد أخذته ، والبعض الآخر لم تأخذه .

ولأنما كان تقديم النفي على ألفاظ العموم مقيدا سبب العموم أى : نفي
 البعض وإثبات البعض الآخر ، لأن أداة النفي إذا تقدمت على كلمة ، كل ،
 وشبهها مما يفيد العموم توجه النفي إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل ،
 وأفاد الكلام ثبوته لبعض ونفيه عن بعض ووجه ذلك ، أن الكمية نوع
 من التقييد ، والنفي إذا اتجه إلى كلام مقيد انصب على التقييد خاصة ،

هذا - وكما قلت لك - إن القاعدة البلاغية ينبغى أن تبني على الأغلب
 والأكثر والأتبني على التعميم والإطلاق - وبعد القاهر عندما نحدث عن ألفاظ
 العموم وتقديمها على النفي ، بنى أحكامه المذكورة التي تحدثنا عنها على القطع
 والإطلاق ، مما جعل البلاغيين يستدركون عليه ذلك ، ويذهبون إلى أن تلك
 الأحكام ينبغى أن تكون أكثرية لا قطعية .. انظر إلى قول عبد القاهر :
 «لنا إذا تأملنا وجدنا لإعمال الفعل في كل ، والفعل منفي لا يصلح أن يكون
 إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن»^(١) ، تجده قد وضع القاعدة
 وضعها قاطعا دون أن يحتاط ، ولذا استدرك عليه العلامة سعد الدين قائلا :
 «وفيه نظر لأننا نجد حيث لا يصلح أن يتعاق الفعل ببعض كقوله تعالى :
 (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)^(٢) ، وقوله : (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
 كَفَّارٍ أَثِيمٍ)^(٣) . وقوله : (وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)^(٤) فالحق أن
 هذا الحكم أكثرى لا كلّي»^(٥) .

(٣) - سورة لقمان ١٨

(٤) - سورة القلم ١٠

(١) دلائل الإعجاز ١٨٢ .

(٣) - سورة البقرة ٢٧٦

(٥) المطول ١٢٥

فسمع الدين قد جعل القاعدة غالبية لا لازمة ؛ لأن الآيات الكريمة التي ذكرها - ومثلها كثير في النظم الكريم - تقدم فيها النفي على دكل ، وهذا يعني - لو سلمت القاعدة - أن الله جل وعلا ، لا يكره كل مختال وكل كفار وإنما يكره البعض دون البعض ، والنبي عليه الصلاة والسلام ، ليس منهميا عن طاعة كل خلاف ، بل منهي عن طاعة البعض دون البعض الآخر ، وهو ما لا يكون (١) .

ولذا نقول : إن القاعدة البلاغية ينبغي أن تكون أغلبية أكثرية ولا تبني على القطع والإطلاق ؛ إذ ربما يأتي في الكلام البايغ والتعابير الجيدة ما يخالفها مما يكون قد خفي على واضع القاعدة .

(١) انظر خصائص التراكيب ١٨٥ ، ١٨٦ .

الفصل الثالث

أحوال المسند

حذفه : يحذف المسند عند وجود القرينة الدالة على حذفه ليعيد أغراضا بلاغية متعددة . . هذه الأغراض لا يمكن الإحاطة بها - كما ذكرت لك عند الحديث عن حذف المسند إليه - وذلك لأنها دقائق وإطناف ، - تكون وراء العبارات والصيغ ولا يدركها إلا المتأمل الواعي والذواقة الخبير بالنظم وأحواله ، ونحن عندما نتحدث عن أغراض الحذف إنما نذكر بعضاً من تلك الدقائق ، وأنت عندما تتأمل النظم الجيد والأساليب الرفيعة لا تنقف عند ذلك البعض الذي نذكره ، بل عليك أن تطيل النظر والبحث والتفكير حتى تصل إلى دقائق أخرى كثيرة قد لا تحيط بها في تلك الدراسة العاجلة .

وراء كل حذف - سواء أكان المحذوف مسنداً إليه أم مسنداً أم أحد متعلقات الفعل، ثلاث مزايا بلاغية وهي : الإيجاز - الاحتراز عن العبث ببناء على الظاهر - إضاءة حس المخاطب وإيقاظ مشاعره كي يهدف على المعطوى من العبارة ويحيط به . . وقد بينت لك هذه المزايا الثلاث عند حديثنا عن حذف المسند إليه فأرجع إليها هناك .

وبالإضافة إلى تلك المزايا التي يمكن وراء كل حذف ، نجد لحذف المسند أغراضا بلاغية أخرى أهمها ما يلي :

١ - ضيق المقام . . كما في قول ضاني - بن الحارث البرجمي ، وكان عثمان رضي الله عنه قد حبسه في المدينة لهجائه بني نضل ورميه أهم ، فضاق ضاني - بسجنه وقال معبراً عن آلامه ، وواصفاً ومصوراً أحزانه :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقبار بها لغريب^(١)

أراد : من أمسى بالمدينة مستقرا ، له منزله الذي يأوى إليه ، وأهله وأصحابه الذين يأمن بهم ويسكن إليهم ، فقد ضايت نفسه وحسن حاله ورضى بعيشته ، أما أنا وقبار فإننا بها لغريبان ، وأنى للغريب أن يسعد ربنا ، فالشاعر حزين مكروب ، قد ضاق صدره لغرفته وحبسه ، وتجدد آلامه كلما تذكر الأهل والأصحاب والمنزل الهني ، وكلما مر بخياله الانطلاق والحرية . . ولذا تراه قد طوى المسند إلى وقبار ، في الشطر الثاني وتقديره : فإني لغريب بها وقبار غريب بها أيضا فطيه بنية بالحال السكينة التي يعيشها الشاعر ، كما تراه قد طوى جواب الشرط وتقديره . ومن يك أمسى بالمدينة رحله فهو مسرور طيب النفس مستريح البال ، طواه لنفسه السبب ، وكأن المشكلات لا تسعفه كفى يذكر جواب الشرط وخبر قيار ، ثم كيف يذكر الجواب وهو من جنس المساعدة والطمأنينة إن لسانه ليتوقف عاجزا عن النطق به ، لأن في الإصاح عنه زيادة لآلامه وأحزانه . . ونأمل كيف قدم قياراً ، فقال : فإني وقبار ، ولم يقل : فإني لغريب بها وقبار ، وذلك الإشارة إلى أن قياراً ولو لم يكن من جنس العقلاء ، قد بلغه هذا الكرب واشتدت عليه تلك الغربة حتى صار مساوياً للعقلاء في التشكي منها ومقاساة شدائد ما . فتقديم قيار وإفحامه بين جزئي الجملة ، يبنى بالتسوية بينهما في التحسر ومقاساة الألم وبنائه بالتألي بشدة ما يلاقيه الشاعر ، فلم تعد الآلام مقصورة عليه بل تجاوزته إلى جواده ، فصار الجواد يشعر بما يشعر به ضانيه ، صاحبه من ألم وضيق . .

ومن ذلك قول عمرو بن أمية القيس الخزرجي يحاضب مالك بن النجاشي
حين رد قضاءه في واحة الأوس والخزرج :

يا مائلٍ والسيد المغمم قد يطره بعض الرأي والسرف

(١) رحله : منزله ومأواه . وقبار . اسم فرس أو جملة . .

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راض والرأى مختلف (١)

يريد : نحن بما عندنا من الرأى راضون ، لأن رأينا هو الصواب والحق ،
وأنت بما عندك من رأى راض وقد قضيت به وحكمت على الرغم من منافاته
للصواب ومجاوبته للحق ، فالرأى مختلف والحق بجانب الشاعر والصواب في
رأيه ، وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ به مالك ولم يقض لعمره وهذا هو ما يؤلم
الشاعر ويحزنه ، وبما يضاعف آلامه ويزيد أحزانه ، أن القاضى ذو رأى
وصاحب عقل راجح ، إنه السيد المعمم . قد عممه الجميع وارتضوا رأيه ،
ولكن لكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، فالسيد المعمم ذو العقل
الراجح قد يبطره بعض الرأى ويخونه التوفيق ، فيقضى بغير الصواب ، وهذا
ما قد حدث ، وهو الذى يؤلم عمرا ويحزنه ، ولذا تراه قد طوى المسند من
الشطر الأول فى البيت الثانى ، فلم يقل : نحن بما عندنا راضون ، بل حذف
الرضا من جانبهم لدلالة رضا المخاطب برأيه ، فى الشطر الثانى عليه . . هذا
الحذف ينهى بآلام الشاعر وضيقه ، وكأنه يأتى أن يصرح بنسبة الرضا
إليهم فى اللفظ ، فهم مقتنعون بصواب رأيهم ، غير راضين بما حكم به مالك
ذو الرأى والعقل ، لحذف المسند يبرز لك حالتهم تلك . . .

وأنظر إلى قول المتنبي :

قالت وقد رأيت اصفرارى : من به ؟

وتنهدت فأجبتها : المتنبي (٢)

(١) مال : منادى مرخم والأصل : يا مالك ، وترخم المنادى بما يبرز حال التشكك
ويلى بآلام الشاعر وأحزانه . والمعمم : الذى عممه القوم وارتضوا حكمه ورأيه . .
ويبطره : يقطعه ، وللمنى قد يخونه التوفيق فيحكم بغير الصواب ويقضى بغير الحق . .
(٢) اصفرارى : يريد ما يصيب الحُب من ضنى وشحوب وصفرة ناجمة عن
للمشق والغرام .

يريد : لما رأت حالى وما وصلت لآليه بسبب حبها تساءلت : المتنهد : من فعل بك هذا ؟ ومن وراء حالتك هذه ؟ فأجبتها : المتنهد أى : فعل بي ماتريز أنت ، فأنت التى أهواها وأعشقتها ، فالشاعر قد حذف المسند وطوّد ، فلا يقدّر صنع ماترين المتنهد ، بل قال : المتنهد ، والمتنهد هى السائلة ، وكان ألم العشق قد وصله إلى حالة لم يستطيع معها أن يكمل الجواب ، وكان الشاعر أيضا أراد بهذا الحذف أن يهادر بذكر المتنهد ، وأن ينصح لها عن حبه ، فهمى التى وصلت إلى تلك الحال ، وقد وجدها فرصة عندما سألتها : من به ذكى يسارع بالإفصاح عن حبه ، فحذف المسند يحقق تلك المسارعة ، ولو ذكره فقال : فعل هذا بي المتنهد . لكان هنالك تباؤ في الإعلان عن حبه . ولا يخفى عليك ما وراء الالتفات في البيت من دلال المحب وتمنعه ، فهمى مخاطبه ولم نقل له : من بك ؟ بل التفتت فقالت : من به ؟ دلالة وتمنعا ، وقيل المسند المحذوف اسم والمعنى : من المطالب به فأجبتها المتنهد هو المطالب به وعندئذ يكون الضمير في د به ، عائداً إلى الاصفرار فلا الالتفات .

(٢) - قد يفيد حذف المسند تعظيماً للمسند لآليه . على نحو ماتري في قوله عز وجل : (وَمَا تَنَّمُوا إِلَّا أَنْ أُغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ)^(١) . وقوله تعالى : (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ)^(٢) فالأصل : إلا أن أغناهم الله من فضله وأغناهم رسول الله . والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، فحذف المسند في الموضعين لدلالة المذكور عليه ، وحذفه يفيد تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسند لآليه ، ، إذ جمع لارضاءه من لارضاه الله وإغناؤه من إغناؤه تعالى ، وهذا تعظيم ما بعده تعظيم ، وتأمل تقديم المسند لآليه رسول الله ، وإيلاده لفظ الجلالة ، ففيه تنبيه ولفت إلى تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودلالة على أنه من الله بمكان . . ومن البلاغيين من يرى أنه لا حذف في الآيتين مجوزاً أن تكون

جملة واحدة ، وتوحيد الضمير في : « من فضله ويرضوه » ، ينبغي بانه لا تفاوت بين إغناء الله وإغناء رسوله ، ولا بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فهما في حكم منن واحد ومرضى واحد ، كما تقول : إحسان عمرو وكرمه غمرني ، فتفرد الضمير جاءلا الإحسان والكرام بمعنى واحد ، ولا يخفى عليك ما في هذا أيضا من « تعظيم » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه (١) .

ونأمل قوله عز وجل : (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سُبْحَانَهُ أَمْ تُتَّبَعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ) (٢) تجد أنه قد حذف المسند وتقديره : أفمن هو قائم .. كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس هو الله عز وجل فهو متولى أمر كل نفس وحافظ شأنها ، ومن ليس كذلك هو المعبود بالباطل من دون الله عز وجل ، والحذف هنا يشعر بتعظيم الله عز وجل وتحقير وازدراء تلك المعبودات وينبغي بانه لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر القائم على كل نفس وبين تلك المعبودات ... فينبغي عدم الجمع بينهما ولو في اللفظ وكذا القول في الآيات الكريمة : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّاصِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) (٣) ، والتقدير : كمن أنسى قلبه وجعل صدره ضيقا حرجا ... (أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهٍ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٤) ، أى : كمن ينعم في الجنة ... (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) (٥) ، أى : كمن لم يزين له أو كمن هداه الله ؟ فالحذف في الآيات يشعر بانه لا وجه للمقارنة بين الاثنين ، فهذا قد شرح الله صدره للإسلام وذلك قد أنسى قلبه وجعل صدره ضيقا حرجا ، وهذا يتقى بوجهه سوء العذاب

(٢) سورة الرعد الآية ٣٣

(٤) سورة الزمر الآية ٢٤

(١) انظر الإيضاح ١/١٧٣

(٣) سورة الزمر الآية ٢٢

(٥) سورة فاطر الآية ٨

وذلك ينعم في الجنة . . . هذا قد زين له عمله السيئ فآه حسنا وذلك قد
هداه الله للخير والعمل الصالح . . . تحذف المسند كما ترى ينبغي بالتباعد بين
الفرقين ويوحى بالمساكنات المتناهية بينهما ويجعل الذهن يتشبع ويمتلئ
بصورة المسند إليه فتقر في القلب وترسخ في العقل . . . ولا يخفى عليك أن
الحذف في الآيتين الأخيرتين قد أفاد تعظيم المسند المحذوف ورفعة شأنه
وتحقير المسند إليه المذكور وانعطافه ، وذلك عكس ما أبصرت في الآيتين
السابقتين ، إذ أفاد الحذف فيهما تعظيم المسند إليه المذكور وعلو منزلته ،
وتحقير المسند المحذوف وانعطافه وازدراء النفوس له . .

٣ - وقد يحذف المسند اتباعاً للاستعمال الوارد عن العرب ، كقولك
خرجت فإذا زيد . . . لولا زيد لهلك الناس . . . لعمرك لأفعلن . . . كل رجل
وضيعته ، والتقدير : فإذا زيد حاضر . . . لولا زيد موجود . . . لعمرك يمضي . .
كل رجل وضيعته مقترنان . . . فقد ذكر النحاة أن الأساليب العربية جرت
على إسقاط المسند في هذه المواضع وهي : إذا الفجائية ولولا والقسم الصريح
وواو المصاحبة وكذا مع الحال الممتنع كونها خبراً نحو : ضربني زيداً قائماً .
أي : ضربني زيداً حاصل إذا كان قائماً . . . وذكر سيديويه أن الحروف الخمسة
التي تعمل فيما بعدها عمل الأفعال وهي : إن واسكن وليت ولعل وكأن ،
يحسن السكوت عليها مع إضمار خبرها . . . من ذلك قول النبي صلى الله عليه
وسلم للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار : « أليس قد عرفتم أن ذلك
لهم ؟ » قالوا : بلى ، قال عليه الصلاة والسلام : « فإن ذلك ، يريد : فإن ذلك
مكافأة لهم . . . وقول عمر بن عبد العزيز لرجل من قریش جاء يكلمه في حاجة له
بجمل يمت بقرابته فقال له عمر : « فإن ذلك ، أي : فإن ذلك لك ، ثم ذكر
الرجل حاجته فقال عمر : « لعل ذلك ، أي : لعل ذلك ييسرك ويقضي . .
وتقول لمن قال لك : هل لك أحد ينصرك إن الناس لأب عليك ؟ : إن زيدا
وإن عمراً وإن ولداً وإن مالا . . . وعليه قول الأعشى :

إن محلاً وإن مرتحلاً وإن في السفر إذ مضوا مهلاً

يريد : إن لنا محلا في الدنيا وإن لنا مرتحلا عنها إلى الآخرة ، ومحلا
ومرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال ، والسفر : اسم جمع بمعنى
المسافرين ، والمراد بهم في البيت : المرقى ، والمهل : مصدر بمعنى الإمهال
وطول الغيبة ، والمعنى : إن في غيبة الموتى طولا وبعدا ، لأنهم مضوا مضيا
لا رجوع معه إلى الدنيا . وقول الآخر :

ليت أيام الصبا رواجعا . .

يريد : ليت أيام الصبا لنا رواجعا أو أقبلت رواجعا . . وتقول لمن
قال لك : هل أحديشبهه عمر في عدله ؟ : كأن فلانا . . ولما قال لك الخسارة
فادحة والخطب جمل والناس جميعا ضدك : . . لكن مالا . . ولكن ولدا . .
زيد : كأن فلانا يشبهه . . لكن لي مالا ولي ولدا والحذف في هذا الموضع
أفاد الإيجاز ونقاء الجمل وترويقها أو كما قال البلاغيون : الاحتراز عن العبث ،
فالذي حذف قد وجدت القرينة الدالة عليه والمقام مقام إيجاز ولمح ، وذكر
ما قد دل الدليل عليه في مثل هذا المقام يعد عيبا . . تأمل قول الرسول عليه
الصلوة والسلام : . . فإن ذلك ، وقول عمر : . . لعل ذلك ، . . فتدرك قوة لمح
المتكلم وحسن اقتداره على تصفية العبارة وترويقها من زوائد لا يستدعيها
المقام . . وتأمل قولك : ضربي زيدا قائما ، ووازن بيننا وبين قولك : ضربي
زيدا حاصل إذا كان قائما ، فتجد أن المحذوف أكثر من المذكور وعلى الرغم
من ذلك فقد ازداد المثال جمالا بسبب الحذف وبدأ موجزا أنيقا . . وأراك
تشعر بما وراء قول القائل : إن مالا وإن إبلا . . ولكن ولدا ، من اعتداد واعتزاز
وقوة لا تكون لو قدر المحذوف فقيل : إن لنا مالا وليكن لنا ولدا ، لأن
استرخاء العبارة عندئذ يوحى بفتور الشعور وضعف المعنى . . .

وتأمل بيت الأعشى :

إن محلا وإن مرتحلا وإن في السفر إذ مضوا مهلا
تجد أن الشاعر يصف السرعة الخاطفة في الحلول والارتحال وكان

هذه السرعة التي يحسبها برزوال الدنيا قد انعكست على عبارته فطوى فيها كثير من الكلمات ، لأن سياق المعنى في البيت طى وإضمار واختصار ، حلول بخطفه الارتحال ، وارتحال دائم وسفر لا أوبة لهم . (١)

١ - وقد يفيد حذف المسند التأكيدي والاختصاص كما في قوله تعالى :
(قُلْ تَوَّابُ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ) (٢) فالتقدير : لو تملككون تملككون ، فأضمر دملك ، الأول إضماراً على شريطة التفسير ، ولما أضمر الفعل انفصل المضمير «أنتم» ، فأنتم فاعل الفعل المضمير و دملككون ، تفسيره ، ودليل الحذف «لو» ، لأن لو لا تدخل إلا على الأفعال .. قال الزمخشري : «وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن «أنتم تملككون» فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشبح المتبائع .. ونحوه قول حاتم :
.. لو ذات سوار لطمتني (٣) .

وقول المتلبس :

ولو غير إخواني أرادوا تقيصتي جعلت لهم فوق العرائين ميسماً (٤)

وذلك لأن الفعل الأول لما أسقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر .. (٥) .

ولذا أفاد حذف المسند في الشواهد المذكورة الاختصاص والتوكيد

-
- (١) انظر خصائص الفراء كيب ص ٢٢ (٢) سورة الإسراء الآية ١٠٠
(٣) هو لحاتم الطائي وقد قاله عندما لطمته أمة قد جاءته بيمير لها ليفسده فنهزم ويعنى بذات السوار الحرة من النساء ..
(٤) العرائين . مفردا عرينين وهو الأنثى كله أو ما صلب منه .. والميسم العلامة أو السمة ...

وقد اعترض على الزمخشري بأن الاختصاص إنما يكون في الجملة الاسمية التي يقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلي مثل: محمد بفعل كذا، وقوله عز وجل: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ثَبَاتًا) ^(١)، والشواهد المذكورة ليست كذلك لأنها جمل فعلية... ويدفع هذا الاعتراض بأمرين:

أولهما: أنه لما أسقط الفعل برز الكلام في صورة الجملة الاسمية، والمبتدأ والخبر، كما ذكر الزمخشري.

ثانيهما: أن الاختصاص قد علق بلو وهي حرف امتناع لامتناع كما تعلم..

٥ - ومن أحسن مواقع حذف المسند ما ترى الجملة فيه قد بنيت على كلمة واحدة.. كما في قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ قُرْعُوا فَلَا تُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ) ^(٢) أي: فلا فوت لهم. لحذف المسند وبقيت كلمة واحدة: «فلا فوت»، وهذه الكلمة تراها كالطود الشامخ والحاجز المنيع الذي قضى على كل أمل لهم في الموت والتفقت، ولا يخفى عليك ما في حذف جواب الشرط، وبناء الفعل، أخذوا، للمجهول من إفادة النهويل والتفطع.. ومن ذلك قوله تعالى: (لَا فُطِنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجِلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْنَعِينَ. قَالُوا: لَا ضَيْرَ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) ^(٣) أجاب السحرة وعيد فرعون وتهديده لهم بكلمة واحدة: «لا ضير»، أي: لا ضير علينا فيما تصنعونه بنا إننا إلى ربنا منقلبون.. وهذا ينبيء بقوة الإيمان وصدق اليقين، إذ أجابوا توعد بكلمة واحدة كالسهم النافذ الذي يبدد كل وعيد وشئت كل تهديد.

٦ - وقد يأتي الكلام على الحذف ثم تراه يحتمل أن يكون المحذوف هو

(٢) - سورة سبأ الآية ٥١

(١) سورة نوح الآية ١٧

(٣) سورة الشعراء الآية ٥٠

المسند أو المسند إليه ، على نحو ما ترى في قوله تعالى : (قَالَ : بَلْ سَوَّاتُ لَكُمْ أَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)^(١) ففي هذه الآية الكريمة يحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه ، وتقديره : فصبري صبر جميل أو فشأني وأمرى صبر جميل ، وبمحتمل أن يكون المحذوف المسند وتقديره : فصبر جميل أولى بي أو فصبر جميل أجمل ... والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه ، وغير الجميل ما كان معه شكاية ، ولكنه خير من عدمه فيصح تفضيل الصبر الجميل عليه ... والأرجح أن يكون المحذوف هو المسند إليه إذ الآية الكريمة مسوقة لمُدح بعقوب - عليه السلام - وحين يكون المحذوف هو المسند إليه يكون الكلام دالاً على حصول الصبر له ، إذ التقدير : فأمرى أو فصبري صبر جميل ، أما على جمل المحذوف هو المسند فليس في الكلام ما يدل دلالة مباشرة على حصول الصبر ليعقوب عليه السلام ، إذ التقدير : فصبر جميل بي أو فصبر جميل أجمل^(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)^(٣) فيحتمل أن يكون التقدير : هذه سورة أنزلناها ، فيكون المحذوف هو المسند إليه ويحتمل أن يكون فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها ، فيكون المحذوف هو المسند ... وكذا قوله جل وعلا : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنْ يَتَخَرَّجُنَّ قُلُوبُهُمْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً)^(٤) ، هذه الآية نزلت في شأن المنافقين الذين ذهبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لكن أمرهم أن يخرجوا من أموالهم لخروجوا ، فنزلت هذه الآية الكريمة وقيل لا تقسموا طاعة معروفة ، وهي تحتمل حذف المسند إليه فيكون المعنى : أمركم أو الذي يطالب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ،

(٢) انظر المطول ١٤٢

(١) سورة يوسف الآية ١٨

(٤) سورة النور الآية ٥٣

(٣) سورة النور الآية ١

كطاعة الخالص من المزمين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا إيمان تقسمون بها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها بالقول دون الفعل . . . ونحتمل حذف المسند فيسكون المعنى : طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة . . . وما من ريب فى أن الكلام إذا احتمل حذف المسند أو المسند إليه ، يكون أوفر معنى وأغزر دلالة ؛ لأنه يحتمل وجهين ، ووفرة التأويلات من فضائل الكلام الجيد^(١) .

هذا وتقدير المحذوف أو القول بالحذف يحتاج من الدارس إلى تأمل دقيق ونظر واسع حتى لا يتناقض مع صحة المعنى واستقامته . . انظر إلى قول الله عز وجل : (وَلَا تَتَوَلَّوْا ثَلَاثَةً أَنْتُمْ وَخَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ)^(٢) ، فالمراد النهى عن التثليث ، أى : لا تقولوا بالتثليث ، انتهوا عنه بكن خير لكم . فالحق واحد لا شريك له . . الآية الكريمة فيها حذف ويحتمل أن يكون المحذوف المسند والتقدير : لنا آله ثلاثة أو فى الوجود آله ثلاثة ، حذف المسند ، لنا ، أو فى الوجود ، ثم حذف الموصوف وآله ، فصارت الآية : لا تقولوا ثلاثة ، أو التقدير : لا تقولوا : لنا أو فى الوجود ثلاثة آله ، حذف الخبر ثم التمييز المضاف إليه فصارت الآية : لا تقولوا ثلاثة . . . ويحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه وتقديره : ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أى لا تعبدوهما كما تعبدون الله ، ولا تسورا بينهم فى الرتبة والصفة ، كقوله تعالى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ)^(٣) .

وذلك أنهم إذا أرادوا التسوية بين اثنين قالوا : هما اثنان ، وإذا أرادوا إلحاق واحد باثنين قالوا : هم ثلاثة . . ولا يصح أن يكون التقدير : ولا

(١) انظر خصائص التراكيب ٢٢٢ .

(٣) سورة المائدة ٧٣

(٢) سورة النساء ١٧١

تقولوا آلهتنا ثلاثة ، لأن في هذا التقدير تقرير لثبوت آلهة ؛ إذ انفي إذا ساط على الجملة لا يتوجه إلى أحد طرفيها ، وإنما يتوجه إلى الحكم المستفاد من الطرفين ، فإن قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة فإنك تثبت بهذا القول أن لكم أمراء وتنفى أن يكون عددهم ثلاثة ، لجواز أن يكون عددهم أقل من ثلاثة ، أو أكثر ، وإذا فإن التقدير : لا تقولوا آلهتنا ثلاثة ، فيه إثبات أن عدد الآلهة اثنان أو أكثر من ثلاثة ، وهذا لإشراك وقوله جل وعلا بعده : (إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدِ) ، يناقضه . . . وتأمل قوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) (١) ، في قراءة من حذف تنوين ، عزير ، ، فلا يجوز أن يقدر مسند محذوف ، وأن نعرب عزير ، مبتدأ وابن ، صفة ، ويكون التقدير : عزير ابن الله معبودنا ، هذا خطأ وإشراك ؛ لأن فيه إثبات وتقدير الصفة الموصوف ، أى : صفة : ابن الله ، ثابتة لعزير ، ولا يخفى عليك ما في هذا من فساد ، فالصواب أنه لاحذف في الآية ، وأن عزير ، مبتدأ وخبره : ابن الله ، وأن التنوين تنوين ، عزير ، مراد ، وقد حذف لالتقاء الساكنين . . . أو أنه ممنوع من الحذف للعلمية والمعجمة كآزر (٢) .

٧ - وقد بحذف كل من المسند والمسند إليه ، كما في قولهم : « أهلك والليل ، يربدون : الحق أهلك وبادر الليل حتى لا يحول بينك وبينهم ، فالماقام يقتضى السرعة الخاطفة ، ولذا حسن حذف المسند والمسند إليه . . . ومن لطيف ذلك قوله تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : خَيْرٌ) (٣) أى : أنزل ربنا خيراً . فحذف الفعل والفاعل ، وحذفهما ينبيء بسرعة استجابة هؤلاء المتقين وقوة إيمانهم وامتثالهم لأمر ربهم . . . وفرق بين إجابة المتقين في

(٢) انظر الإيضاح ٢٢٥/١

(١) - سورة التوبة : ٣٠ .

(٣) سورة النحل : ٣٠

هذه الآية لإجابة الكفرة في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)^(١) ، أى : ذلك أساطير الأولين .

يقول الزمخشري : « فإن قالت : لم نصب هذا ورفع الأول ؟ ، قلت : فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بيتاً مكشوراً فامنعوا الإيزال فقالوا : خيراً أى : أنزل خيراً ، وأوائك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس من الإيزال فى شيء ،^(٢) . . . ومثله قوله عز وجل : (حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا : الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)^(٣) أى : قال ربنا الحق ، فحذف المسند والمسند إليه إسراعاً إلى الإفصاح عن الجواب ، إذ المقام مقام إيجاز يتطلب أن تكون الإجابة إشارة أو لمحا ، كيف لا وقد فزع عن قلوبهم ؛ إن الكلمة الواحدة بل الإشارة فى مثل هذا المقام تغنى عن الكلمات الكثيرة . . . وتأمل قوله تعالى : (كَذَبَتْ تَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)^(٤) أى : ذكروا ناقة الله ، واحذروا سقياها ، نجد أن الحذف هنا يبنى بلمحة صالح عليه السلام وشدة حرصه على هداية قومه ونجائهم ولذا صاح بهم محذراً : « ناقة الله وسقياها » .

وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام لجابر : « ما تزوجت أفتال : ثيباً ، فقال صلى الله عليه وسلم : فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك » ، أراد عليه الصلاة والسلام : فهلا تزوجت جارية . . . فحذف الفاعل والفاعل للدلالة الكلام عليهما وفى هذا الحذف تنقية للعبارة وتصفية لها عما أقيم عليه الدليل

(٢) السكشاف ٢/٤٠٧

(٤) سورة الشمس ١٣

(١) سورة النحل ٢٤

(٣) سورة سبأ ٢٣

حقى لا يكون ذكره عبثاً وفضولاً... وقد يحذف المسند والمُسند إليه ويقام
المصدر مقامهما ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ
الرُّقَابِ ﴾ (١) أى : فاضربوا رقابهم ضرباً ، لحذف الفعل وفاعله ، وهذا
الحذف لإلزام السياق ، إذ الضرب المأمور به هو الضرب السريع الحاطف
فور اللقائهم . وتأمل هذه الفاءات : « فَإِذَا لَقِيتُمْ ... فاضرب ... فشدوا
الوثاق فإمّا ... » وما تتضمنه من التعقيب والسرعة الحاطفة ... ومن
حذف المسند والمُسند إليه ، حذف القول وفاعله وهو كثير في كتاب الله
جل وعلا ... من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ
بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمْ تُنَادِرْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صُفًا لَقَدْ
جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٢) أى : فيقال لهم لقد جئتمونا ...
ولعلك تشعر بما وراء هذا الحذف من تأنيب وتعنيف شديد ويساعد في إبراز
هذا التعنيف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب : « وعرضوا - جئتمونا ... »
ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا
بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبُّنَا ﴾ (٣) أى : فيقال لهم : أليس هذا بالحق ، ولا
يخفى عليك ما وراء الحذف هنا من مرة إبراز السخرية والتهكم هؤلاء
الكفرة الذين لم يجدوا بداً من الإذعان والإقرار بعد فوات الأوان :
« بلى وربنا ، ... »

قرينة حذف المسند : ولا بد أن يحذف - كما ذكرت لك - من وجود
القرينة التي تدل على المحذوف وترشد إليه ، وإلا كان الحذف عبثاً ، ومن
القرائن الدالة على حذف المسند وقوع الكلام جواباً عن سؤال عتق كذا

(٢) سورة الكهف آية ٤٧ ، ٤٨ .

(١) سورة شفاء آية ٤ .

(٣) سورة الاحقاف آية ٣٤ .

قوله تعالى : (وَآتَيْنَا لَهُمْ مَنَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ)^(١)
 أى : خلقهم الله . . وقوله جل وعلا : (وَآتَيْنَا لَهُمْ مَنَ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ)^(٢) أو عن سؤال مقدر
 كما فى قول الحارث بن ضرار الهشلي يرنى أخاه يزيداً :

لَيْبِكَ يَزِيدُ ضَارِعَ لُحْصُومَةٍ وَخَتَبْتُ بِمَا تَطِيحُ الطَّارِئُ^(٣)

و ليرك ، بالبناء للمجهول و « يزيد » نائب فاعل ، فلما حذف الفاعل
 وأقيم المنفعول به مقامه ، انبعث من الجملة سؤال تقديره : من يبكيه ؟ فجاء
 الجواب : ضارع لُحْصُومَةٍ ، وقد حذف منه الفعل لدلالة السؤال المقدر
 عليه ، والمعنى : يبكيه ضارع . . وفضل هذا التركيب أى البناء للمجهول :
 « لَيْبِكَ يَزِيدُ ضَارِع » على البناء للمعلوم : « لَيْبِكَ يَزِيدُ ضَارِع » ، من عدة
 أوجه ونهى :

١ - تكرار الإسناد ، حيث أسند البكاء إلى الفاعل مرتين ، إجمالاً
 وذلك عند البناء للمجهول ثم تفصيلاً وذلك عند ذكر الفاعل : « ضارع »
 فاعلاً للبكاء المقدر ، وتكرار الإسناد أبلغ فى مقام الرثاء وأكثر . .

٢ - فيه بيان وإيضاح بعد الإبهام . . . والإيضاح بعد الإبهام يكون
 أوقع فى النفس وأقوى أثراً . .

٣ - وقدر « يزيد » فيه نائب فاعل فيكون ركناً أسند إليه الفعل المبني

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ . (٢) سورة العنكبوت الآية ٦٣ .

(٣) ضارع : اللذيل . والختبط : الذى يأتى إليك المعروف من غير وسيلة ،
 وتطيح بمعنى تذهب وتهلك ؛ ولطوائح جميع ما يهتد على غير ناس ؛ وفيما به : مطاوع
 أو مطيعات ؛ يصف يزيداً بأنه كان ماعجاً للذليل وعونا للمحتاج الذى أطاحت به
 الطيحات . . .

للمجهول ، وكونه ركناً أولى من جعله فضلة في التركيب الآخر ، إذ مدار الحديث إنما هو عنه .. وعلى الرغم من هذا فإن التركيب الآخر لا يخلو من مزية ، وهي تقديم المفعول « يزيد » ، فـ « جعل النفس تشاق إلى معرفة الفاعل » مضارع ، وتنطلق إليه ، فعند مجيئه يقع في النفس موقفاً حسناً . . . ومن وقوع الكلام جواباً عن سؤال مقدر قوله تعالى : (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ زِجَالٌ)^(١) ، وقوله من أجل : (كَذَلِكَ يُوحَىٰ لِمَآلِكَ قُلُوبِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٢) ، وذلك في قراءة من قرأ ببناء الفعل المجهول في الآيتين . . . ومنه قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)^(٣) وذلك على جعل « لله شركاء » مفعولين للفعل « جعل » ، و « الجن » مفعولاً به لفعل محذوف دل عليه سؤال مقدر والمعنى : من جعلوه لله شركاء ؟ فيجواب : الجن . وفي الآية وجهان آخران وهما :

١ — جعل « الجن » بدلاً من « شركاء » بدل بعض من كل ، والمعنى : وجعلوا الجن من الشركاء لله . .

٢ — إعراب « لله » جاراً ومجروراً متعلقاً بشركاء مقدماً عليه ، و « شركاء الجن » مفعولين قدم فيهما « شركاء » ، على « الجن » استعظاماً لأن يتخذ الله شريكاً ، جناً كان أم ملكاً أم غيرهما ، ومن أجل هذا المعنى قدم لفظ الجلالة : « لله » ، على الشركاء . .^(٤)

ومن ذلك أيضاً باب نعم وبئس : على جعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ خبره محذوف نحو : نعم الرجل عمرو ، وبئس الرجل زيد ، كما أنه قيل : من الممدوح ومن المذموم ؟ فأجيب زيد المذموم وعمرو الممدوح ، فـ « كل

(٢) سورة الشورى الآية ٣ .

(٤) انظر الإيضاح ١٧٩/١

(١) سورة النور الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٠

من زيد وعمرو مبتدأ محذوف الخبر ، والقريئة وقوع المخصوص في جواب سؤال مقدر . .

• • •

ذكر المسند : المسند والمسند إليه صارتا الجملة ، وذكرهما هو الأصل فلا يحذفان إلا إذا وجد في الكلام ما يقتضى العدول عن هذا الأصل - كما مر بك - وقد يرجع في الكلام ما يبدل على المسند لو حذف ، وعلى الرغم من هذا يذكر وبصرح به لأغراض بلاغية يقتضيها المقام ، وأهم هذه الأغراض :

١ - التعريض بعبارة السامع كما في قوله تعالى : (قَالُوا : أَنْتَ تَقُولُ هَذَا بِآيَاتِنَا) يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ : بَلْ قَوْلُكُمْ كَبِيرٌ هَذَا فَأَسْأَلُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ يَنْصَلِقُونَ ^(١) ، فلو قال إبراهيم - عليه السلام - في جوابهم : بل كبيرهم هذا لكان المسند مفهوما لدلالة السؤال عليه - ولكنه عليه السلام - عدل عن الحذف إلى الذكر ، تنذيرا إلى غيبتهم وضعف عقولهم ، لأن في الحذف تعويلا على ذكاء المخاطب وتنويعا بفهمه وإدراكه ، وانظر إلى اسم الإشارة في قوله : كبيرهم هذا ، وكأنهم لا يفهمون إلا بالإشارة إلى الفاعل وتعيينه وتحديد وجهه ومرثيا أمامهم . . ومن ذلك قولك لمن سألك : من نبيكم ؟ : محمد - عليه الصلاة والسلام - نبينا ، فتذكر المسند ، ولو حذفته لدل عليه سؤال السائل دلالة واضحة ، واسكنك ذكره تعريضا بعبارة السامع وإشارة إلى ضعف فهمه ، إذ لو كان له فهم لما سأل عن نبينا ، فهو أظهر من أن يتوهم خفاؤه ، وكأنه لا يفهم بالقرائن الواضحة ، ولا بد من التصریح له بأجزاء الجملة كياملة . .

٢ - ضعف التعويل على القرينة ، وذلك بأن يكون في الكلام قرينة تدل

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ ، ٦٣

على المسند لو حذف ، ولكن ليس لها من القوة والإيضاح ما يأمهم السامع المعنى وبهذه أمام عينيه من أول الأمر . . . كما إذا سألك سائل : من أشجع العرب وأجودهم في الجاهلية ؟ فتجيب : عنزة أشجع الجاهليين وحاتم أجودهم ، ذاكرا أشجع وأجود حتى لا يلتبس على السائل لو قلت : عنزة وحاتم ، من غير أن تعين صفة كل واحد منهما .

٣ - قد يذكر المسند ايتعين بالذكر كونه اسما مفيد الثبوت و لدوام ، أو كونه فعلا مفيد التجدد والحدوث ، كقولك : زيد منطلق وعمر ينطلق ، إذ لو حذف المسند الثاني فقلت : زيد منطلق وعمر ، لفهم انطلاق عمر و لدلالة انطلاق زيد عليه ، وليكنك آثرت ذكره بصيغة الفعل لتفيد أنه يخالف انطلاق زيد ، فانطلاق زيد مستمر وانطلاق عمر ويتجدد شيئا فشيئا . وكذا تقول : زيد ينطلق وعمر منطلق ، فتذكر الانطلاقين ليعتد كونه الأول فعلا مفيدا للتجدد والحدوث ، وكون الثاني اسما مفيدا للثبوت والدوام ، ولو حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه لما تحققت هذه الإفادة

٤ - ومن أم أغراض ذكر المسند زيادة التقرير والإيضاح . كما في قوله تعالى : (وَكَأَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَقِيْقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)^(١) ، فلو حذف المسند وقيل : ، العزيز العليم ، ، لدل عليه السؤال المصريح به ، وليكنه ذكر زيادة للتقرير والإيضاح ، وللتسجيل على هؤلاء الكفرة . وإبراز سفاهتهم وضيق عقولهم ، حيث عبدوا ما لا يصنع شيئا ولا يخلق ذبا ، فالخالق هو الله القادر على كل شيء . . . وخلقهم العزيز العليم ، . . . ومثله قوله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَبِيَّ خَاتِمَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)^(٢) ، فقد ذكر المسند (يحْيِيهَا) في الجواب ،

وكان يمكن الاستغناء عنه لدلالة السؤال عليه ، وذلك لزيادة التقوير والإيضاح وفيه أيضاً تنبيه وإشارة إلى غباوة السائل وضعف عقله ، إذ لا يسأل هذا السؤال إلا منسكراً معانداً ، قد ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإدراك ويحجب عنه نور الحق . . . وتأمل كيف أثر التعبير باللام الموصول : الذي أنشأها أول مرة ، ؛ لأن في جملة الصلوة برهان قاطع ودليل بين ، فإن من قدر على إنشاء هذه العظام أول مرة فهو قادر على إحياؤها وإطاعتها . وتأمل قول الشاعر :

لولا التي جعلت قبرك كمبنى

وجعلت قولك سنن وكتابي

نجد أنه لو أسقط د جعلت ، الثانية ، لفهمت من الأولى ولكنه أراد إبراز الجمل وزيادة تقرير هذا المعنى الذي أراده وإيضاحه ، فأعاد ذكر المسند كما ترى . . . وانظر إلى قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

أعيني جوداً ولا تجعداً ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجواد الجميل ألا تبكيان الفؤ السدا

نجد أن إعادة ذكر البكاء ، وتكراره ، قد أبرز المعنى وقرره وأوضح آلام الخنساء وصور مدى لطفها وحزنها على صخر الندى .

• • •

أفراد المسند : قد يرد مفرداً نحو : محمد عالم وزيد كريم ، وقد يرد جملة بها ضمير يعود إلى المبتدأ ، وهذا الضمير ليس مسنداً إليه ، نحو : محمد أبوه عالم ، على أجداده ملوك ، وهذا المسند يسميه البلاغيون : مسنداً سببياً ، أي أن المسند إليه بسبب من المسند ومرتبطة به بروابط قوية . . . وقد يرد المسند جملة بها ضمير يعود إلى المسند إليه المتقدم ، وهذا الضمير يكون مسنداً إليه

أيضاً نحو : محمد يعطى الجزيل ، خالد يحمل السلاح ، والمقام هو الذى يحدد نوع المسند الذى ينبغى على المتكلم أن يستعمله ، فإذا أراد المتكلم مجرد الإخبار عن المسند إليه ، أورد المسند مفرداً ، فيقول : محمد عالم . . . على جواد .

وإن أراد وصله بأبائه وأمه ورث المآثر والأبجاء عنهم ، أوردته سببياً ، فيقول : محمد أبوه كريم . . . خالد آباؤه أبطال .

وإن أراد تقوية الحكم أوردته جملة غير سببية ، فيقول : محمد يعطى الجزيل خالد يحود بماله . . . هم يضربون السكبش .

• • •

إيراد المسند فعلاً أو اسماً : لا يخفى عليك الفرق بين الاسم والفعل ،
فالفعل يدل على حدث وقع فى زمن نحو : قام ويقوم ، والاسم يدل على حدث مجرد من الزمان نحو : قائم وذاهب . . . راكم وساجد ، كما أن الفعل المضارع يفيد الحدوث والتجدد ، والاسم يفيد الثبوت والدوام ، نحو : زيد منطلق وزيد منطلق ، فالأول أفاد انطلاقا بتجدد ، والثانى أفاد انطلاقا ثابتاً . ولذا فإن المتكلم عندما يورد المسند فعلاً فهو يصد إما تقييده بأحد الأزمنة نحو : فاز المجيد . . . وبجاهد الجندى ، فالأول أفاد حدوث الفوز فى الزمن الماضى ، والثانى أفاد حدوث الجهاد فى زمن الحال واستمرار حدوثه فى الزمن المستقبل . . . وإما إفادة الحدوث والتجدد ، وذلك إنما يكون فى الفعل المضارع فهو يفيد التجدد الاستمرارى بمعونه السياق وقرائن الأحوال ، وغالباً ما يكون ذلك فى مقامات المدح والفخر . . . انظر إلى قول طريف بن تميم :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة
بعثوا إلى عريقتهم يتوسم^(١)

(١) العربف : للقيم الذى يقوم بأمر القوم .

يقول : إنه شجاع مقدم ، له موقف مع كل قبيلة ، فالبائس جميعها
تطلبه ، وكلها وردت سوق عكاظ قبيلة بعثوا عريفيهم يتفرس الوجوه
ويتوسمها لعله يهتدى إليه فيثأر منه ، وتلاحظ أن الشاعر قد استخدم الفعل
المضارع « يتوسم » لإفادة التجدد والحدوث فالعريف دائم المراجعة والتأمل
وإعادة النظر في وجوه القوم ، يحدث منه التوسم شيئاً فشيئاً ، ولو قال :
بعثوا إلى عريفيهم متوسماً لما تحققت هذه الإفادة ولما كان هنالك إشعار بحالة
التجديد هذه .. ومن ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..)^(١)
فالرزق من الله متجدد ومستمر ، يتجدد بتجدد العباد ، لا ينقطع ولا يزول ،
وهذا يلائمه التعبير بالفعل « يرزقكم » ولو قيل : (هل من خالق غير الله
رازقكم ..) لما أفيدت هذه الإفادة ، ومنه قوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ
وَيُثَبِّتُ)^(٢) ، وقوله عز وجل : (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِفْرَاقِ)^(٣) ، فالمحو والإثبات يتجددان ومستمران . وأسبغ الجبال
يحدث آناً بعد آن ويقع حيناً بعد حين وهذا ياسببه التعبير بالفعل الذي
آثره النظم السكريم : « يمحو .. يثبت .. يسبح .. » وعندما يورد المتكلم
المسند اسماً فإنه يقصد به إفادة الثبوت والدوام ، وذلك يكون بمعرفة السياق
وفرائن الأحوال ، إذ الاسم يدل على الحدث مجرداً من الزمان ، والمتكلم
قد يسوقه في سياق ترشد قرائنه إلى إفادة الثبوت والدوام والاستمرار ..
انظر وتأمل قول النضر بن جؤية :

قالت طريفة ما تبقى دراهمنا ونا بنا سرف فيها ولا خرق

(٢) سورة الرعد آية ٣٩ .

(١) - سورة فاطر آية ٣

(٣) سورة ص ، آية ١٨ .

لنا إذا اجتمعت يوما دراهمنا . ظلت إلى طرق الخيرات تستبق

لا تألف الدرهم المضروب صرنا

لكن يمر عليها وهو منطلق^(١)

تجد أن الشاعر يمدح قومه بالكرم والعطاء ، فهم لا يبقون من المال بقية ، وصرتهم لا تألف الدرهم ، وإنما يمر عليها الدرهم منطاقا ومنذما إلى الخيرات . . مثل هذا المقام يلائمه التعبير بالاسم « منطلق » ، لأنه يفيد انطلاق الدرهم انطلاقا ثابتا ومستمر ، ولو قال : يمر عليها وهو ينطلق ، لكان المعنى أن انطلاقه يبتدئ ، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمانا ما ، ولا يخفى عليك عدم مناسبة ذلك لمقام المدح . . والبيت يروى برفع الدرهم ونصب الصرة ، وينصب الدرهم ورفع الصرة ، والرواية الثانية أبلغ ؛ لأنها تدل على غناهم وأن الدراهم تمر والصرة لا تألفها ، أما الرواية الأولى ففيها لبهام أنهم فقراء وأن الصرة خالية لا يألفها الدرهم المضروب . . وخذ قوله تعالى : (وَكَأَيُّهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)^(٢) ، فلا يخفى عليك ما يفيد الاسم : « باسط » ، من ثبوت البسط ودوامه واستمراره وأنه لو قيل : يبسط ذراعيه لما أدى هذا الغرض . . وتأمل قوله عز وجل : (أَوْ أَمَّ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَوَقَّعَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ)^(٣) ، تجد أنه لما كان الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، فقد عبر عنه بالاسم الذي يفيد الثبوت والدوام ، ولما كان القبض طارئا على البسط فقد عبر عنه بالفعل الذي يفيد الحدوث والتجدد . . يقول الزخشرى : « فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ولم يقل : وقابضات ؟ ، قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة

(١) الدرهم المضروب : المسبوك . .

(٢) سورة السجدة آية ١٨ .

(٣) سورة المائدة آية ١٩ .

في الماء . والأصل في السباحة مد الأطراف وسطها ، وأما القبض فظارني .
على البسط للاستظهار به على التحريك ، لحي . بما هو طار غير أصل باللفظ .
الفعل ، على معنى أنهم صافات ويكون منهم القبض تارة بعد تارة ، كما يكون
من السابح » (١) . .

والجمله كالمفرد في هذا الحكم ، فإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام
في نحو قولك : زيد منطلق ، فكذلك الجملة الاسمية ، وإذا كان الفعل يفيد
التجدد والحدوث في نحو قولك : ينطلق زيد ، فكذلك الجملة الفعلية ، ولذكور
الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام كانت آكد من الجملة الفعلية ، ومن أجل
هذا فإنه يحسن إيراد التعبير بالجملة الاسمية في المقامات التي تتطلب التأكيد . .
تأمل قوله تعالى : (وَإِذَا أَلْقَا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا
إِلَىٰ شِئَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ . إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ) (٢) ،
تجد أن المنافقين لـ يكون منهم قد أظهروا الإيمان خوفاً ومداراةً للمؤمنين ، وليس
عن يقين راسخ وثابت ، فقد عبروا عنه بالجملة الفعلية . « آمنا » ، ولما كان
الكفر ثابتاً وراسخاً في عقولهم فقد خاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية
المؤكدّة : « إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ » وقوله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
أَدْعَوْهُمْ تُدْعَوْهُمْ أَمْ لَمْ تُدْعَوْهُمْ) (٣) ، كان الوثنيون الذين عبدوا الأصنام
من عادتهم أنهم لا يدعون تلك الأصنام إذا نزلت بهم شدة بل يدعون الله . .
ولذا ناسب التعبير عن صمتهم بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام
وتأكيد الحكم ، ولما كان الدعاء غير معتاد ، فقد عبر عنه بالجملة الفعلية
التي لا تفيد ثبوتاً ، والمراد : سواء عليكم أحدثتم الدعاء على غير عادة ،
أم بقيتم مستهزئين على عادة صمتكم . . . وقوله تعالى : (وَقَدْ جَاءَتْ

(٢) سورة البقرة آية ١٧٥

(١) الكشاف ٤/ ١٣٨ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٩٣ .

رُسِّلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى قَالُوا : سَلَامًا ، قَالَ : سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِمِجْلٍ حَنُودٍ^(١) فالأصل : نسلم سلاما فقال سلام عليكم ، تلاحظ أن نحية
إبراهيم عليه السلام بالجملة الاسمية ، ونحيةهم بالجملة الفعلية ، وكأنا - عليه
السلام - أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأداب التحية في قوله تعالى :
(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)^(٢) . وخذ قوله
عز وجل : (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ مُنَاقِلِينَ)^(٣) ، أرادوا :
أحدث منك مجيء بالحق ولم تكن كذلك ، أم أنت مستمر في لعبك الذي
عمدناه فيك ؟ عبروا عن مجيئه بالحق بالفعل الذي يفيد التجدد وعن اللعب
بالجملة الاسمية التي تفيد تأكيد لعبه واستمرار أحوال لهوه - في اعتقادهم -
ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من عنادهم وإعراضهم عن الإذعان للحق
وقبول الهداية . . . وقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ
وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)^(٤) قولهم : آمنا ، لإخبار بوقوع
الإيمان وإحداثه ، ولكونهم كاذبين في دعواهم ، فقد نفاهما الله عز وجل
بالجملة الاسمية المؤكدة ، وما هم بمؤمنين ، . . . وهو عز وجل : (يُرِيدُونَ
أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)^(٥)
أرادوا حدوث خروج فأجيبوا بدوام البقاء واستمرار العذاب . . . وقوله
تعالى : (عَمَّا أَفْتَكُ لَيْمَ أَذْنُتَ لَهُمْ حَقِّي يَنْتَبِئَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)^(٦) ، عبر عن الصادقين بالفعل لأنهم يحدثون صدقا بعد
صدق في كل موطن ، وعبر عن الكاذبين بالاسم ، لأن ما صدر منهم كذب
مستمر وجار على عادتهم الدائمة المستمرة وناشئ عن رسوخ في الكذب
وثبات . . .

(٢) سورة النساء الآية ٨٦

(٤) سورة البقرة الآية ٨

(٦) سورة النوبة الآية ٤٣

(١) سورة هود الآية ٦٩

(٣) سورة الأنبياء الآية ٥٥

(٥) سورة المائدة الآية ٣٧

تفكير المسند وتعريفه : ومن أحوال المسند أنه يرد أحيانا فكرة
وأحيانا عرفا ، وتذكيره أو تعريفه إنما يكون لإفادة أغراض يقصد إليها
البلاغي ، فمن أغراض تفكيره : عدم إرادة القصر أو العهد ، كقولك :
محمد كاتب ، وعمر شاعر ، إذا أردت مجرد الإخبار عنهما بالكتابة والشعر ،
أما إذا أردت التخصيص قلت : محمد الكاتب ، وعمر الشاعر . وكذلك إذا
أردت كاتباً أو شاعراً مهورداً قلت : فلان الكاتب أو الشاعر ، فتعرف
المسند في الحالتين ، كما سيأتي . ومنها إرادة التفخيم والتعظيم كما في قوله تعالى :
(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ^(١) أي : هو هدى ، فتفكير
المسند هدى ، أفاد تعظيم هداية القرآن وتفخيمها وأنها باغت درجة لا يمكن
إدراك كثرتها . . . ومثله قوله تعالى : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا أَعْلُسَكُمْ تُرْخَوْنَ) ^(٢) ، وقوله عز وجل : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيَّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ الَّذِي
آمَنُوا هُدًى وَنِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى) ^(٣) ، ولا يخفى عليك ما في تفكير المسند في الآيتين من إفادة التفخيم
والتعظيم . كتاب . . قرآن . . هدى وشفاء . . وقر . . عسى . . التفكير
كما ترى أفاد تفخيم القرآن وتعظيم هدايته والتنويه بشأنه . ومنها إفادة التحقير
والتهوين كما ترى في قول الشاعر :

غدرت بأمر كنت أنت دعوتنا إليه وبئس الشيمة الغدر بالهد
وقد يترك الغدر الفقى وطعامه إذا هو أمسى حلبة من دم الفصد

فتفكير المسند ، حلبة ، أفاد التحقير ، والمعنى أن الوفى لا يغدر ولو أخنى
عليه الدهر وأمسى طعامه بهذه الحقارة حلبة من دم الفصد . إلى غير ذلك

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٥

(١) سورة البقرة الآية ٢

(٣) سورة فصلت الآية ٤٤

من أغراض تذكر المسند . . . وأما تعريفه فيكون كذلك لأغراض شتى منها : إرادة العهد بمعنى أن يكون المسند معلوما للمخاطب معهوداً له ، ولكنه لا يعلم المسند إليه ، وذلك بأن يعلم مخاطبك أن انطلاقا وقع ولكنه لا يدري من ، فتقول له : زيد المنطق ، تعريف المسند هنا أفاد إرادة العهد ، أى : الانطلاق المعهود لدى صاحبك ، فإذا كان لا يعهد انطلاقا ولا يعلمه قلت له : زيد منطلق ، تريد مجرد إخباره بوقوع انطلاق من زيد : ولذا كان من الخطأ أن تقول : زيد المنطلق وعمرو ؛ لأنك أنتحدث عن انطلاق معروف للمخاطب ومعين فإذا أثبتته لزيد ، لا يصح لك أن تثبته ثانية لعمرو ، لأن هذا تناقض . فالصواب أن تقول : زيد منطلق وعمرو . أو تقول زيد وعمرو المنطلقان ، ويتضح لك هذا أكثر عندما تقول مثلاً : امرؤ القيس هو القائل :

تفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول لخومل

لا يصح أن تقول : امرؤ القيس هو القائل هذا البيت وأبو ذؤيب الهذلي ، إنك إن قلت ذا حارات محالا وقلت ما ليس بقول .

ومن أغراض تعريف المسند ، إفادة قصره على المسند إليه ، تقول : زيد الشاعر وعمرو الشجاع وحاتم الجواد . تريد بهذا قصر المسند على المسند إليه قصراً ادعائياً بهدف المبالغة في الوصف ، ويكون ذلك غالباً في مقامات المدح والفخر والثناء ونحوها . انظر إلى قول المتنبي :

ودع كل صوت دون صوتي فإنني أنا الصائح المحبكي والآخر الصدى

أراد المبالغة في قوة شاعريته ، فقصر الصياح بمعنى إنشاد الشعر عليه قصراً ادعائياً ، فهو الصائح وغيره من الشعراء يرددون صوته ، وينهجون نهجه . ومن الخطأ أيضاً أن تقول في مثل هذا : عمرو والشجاع وخالد ، إذ كيف نخص عمرًا بالشجاعة ثم تشرك فيها غيره ، فالصواب أن تقول : عمرو وخالد الشجاعان أو تذكر المسند فتقول : عمرو شجاع وخالد .

ومن ذلك قول ابن الدمينية :

ونحن التاركون على سليل مع الطير الخوامع يعترينا (١)

يريد أنهم هم الذين قتلوا سليلاً وتركوه طاماً للطير الخوامع ، هم الذين فعلوا ذلك دون سواهم ... وتأمل قول عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنيينا
بأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا وأنا التازلون بحيث شينا

تجد أنه يفخر بقصر تلك الصفات عليهم نصراً حقيقة ادعائياً بمعنى أنها لا تتعداهم ولا تتجاوزهم إلى غيرهم على سبيل المبالغة والادعاء ... وخذ قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) (٢) ، أى : أنت الأعلى لا هم ، فتعرف المسند أفاد قصره على المسند إليه قصرأ إضافياً بمعنى أنه لا يتعداه إلى هؤلاء السحرة .

ومعناها أن يعرف المسند بالموصولية فيفيد بالإضافة إلى قصره على المسند إليه دقائق ولطائف يدركها المباح الذواقة ، الخبير بالأساليب الرفيعة والتعبيرات الجيدة .. انظر إلى قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلباتي من به صمم
أنا مملء جفوني عن شواردها ويسهر الخاق جراحها وبختهم

تجد أن تعرف المسند بالموصولية أفاد بالإضافة إلى قصره ، لدول الصلة على المتنبي ؛ اشتهاى جملة الصلة وانشغال الناس بها فهي أمر معروف بين الناس

(١) الخوامع : الصياع

(٢) سورة طه آية ٦٧ ، ٦٨

جميعها يعرفونه ولا أحد يحمله . وتأمل الآيات الكريمة : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)^(١) ، وقوله عز وجل : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)^(٢) .

فالمسند في الآيات الكريمة مقصور على المسند إليه قصره حقيقة ، ثم إن إشارته التعريف بالموصولية أفاد انشغال الخلق بتلك الأمور المثارة في جملة الصلاة واشتهارها بينهم وخوضهم فيها وترددها على الأسماع وتلك ميزة يمتاز بها التعريف بالاسم الموصول . . .

ومنها أن يقيد المسند بغير فيفيد تعريفه عندئذ قصره مقيدا بذلك البعيد على المسند إليه وكأنه أى : المسند قد صار نوعاً خاصاً وجنساً برأسه . تقول : زيد الكريم حين يبخل الناس وهو الرقي حين لا تظن نفس بنفس خيراً وهو المقدم حين تفر الأبطال ، فالمقصود ليس مطلق الكرم وإنما هو نوع خاص منه وكذا الوفاء والشجاعة في المثالين الآخرين . . ومن ذلك قول الأعشى :
هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضاً وإما عشاراً^(٣)

فإنه قصر هبة المائة من الإبل في إحدى الحالتين : مخاضاً أو عشاراً لاهبتهما مطلقاً ، ولا الهبة المطلقة ، فالهبة مقيدة بالمائة المصطفاة ، والمائة مقيدة بكونها إما مخاضاً وإما عشاراً . . ومنها لفادة التقرير وبيان أن ثبوت المسند للمسند إليه أمر مقرر بارز ، وظاهر ظهوراً لا يخفى على أحد . كما في قول حسان :

(١) سورة المؤمنون الآيات ٨٧ - ٨٠ .

(٢) سورة الانبياء آية ٣٣ .

(٣) المخاض : الحوامل من النوق اسم جمع ويقال للواحدة بنت مخاض والعشار : جمع عسراء وهي من النوق كالنساء من النساء أو النوى مخى لها عشرة أشهر . .

وإن سنفهم المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
 .أراد بتعريف العبد تقرير صفة العبودية لوالده ، وأنها أمر مشهور وذائع
 لا يخفى على أحد ، ولم يرد قصر العبودية على الوالد لا حقيقة ولا ادعاء ...
 ومثله قول الخنساء في رثاء صخر :

لذ قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

لم نرد قصر صفة الحسن على بكائها صخرا ، وإنما أرادت أن تقرر لبكائه
 صفة الحسن وأن تجعل حسن بكائه بينما ظاهراً لا يحمله أحد ولا يذكره منكر ..

ومنها الإشارة إلى بلوغ المسند إليه في الاتصاف بالمسند مبلغ الكمال
 كقوله : « هو البطل المحامي » ، تريد أن تقول للمخاطب : هل تصورت
 البطل المحامي وكيف يكون الإنسان حين يبلغ في هذه الصفة مبلغها الأعلى ؟
 وإذا تصورت هذا في نفسك فعليك بفلان فهو الذي تجد فيه الصفة كما تمثلتها
 وتخيّلتها .. وكذا تقول : هو الحامي لكل حمى ، والمرئى لكل ملّة والدافع
 لكل مكروه .. ومن ذلك قول ابن الرومي .

هو الرجل المشروك في جل ماله والكنهه بالمجد والحد مفرد

يريد منك أن تصبح بخيالك في تصور رجل لا يتعب عن عفائه وطالبي
 معروفه فهو وهم سواء يأخذون من المال ما يشاءون ، فإذا حصلت صورته
 في مخيلتك فاعلم أنه ذلك الرجل .. ومثله قول الفرزق في هجاء الحجاج :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إيباد
 زعان هو العبد المقر بذلة يراوح أبناء القرى ويغادى

أراد بقوله : « هو العبد » : بلوغه الغاية القصوى في الاتصاف بصفة
 العبودية وذل الرق في هذا الزمان حتى خلاصه بنو مروان من قيدها فصار له
 شأن وكان ..

ومنها إفادة تعظيم المسند إليه، وذلك عند إضافة المسند إلى ما يكسبه التثنية والتعظيم ، ويسمونه به ، ويرفع شأنه ، كما في قوله تعالى : (قَالَ إِنِّي عَمِدٌ لِلَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)^(١) ، وقوله جل وعلا : (تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)^(٢) ، فقد اكتسب المسند إليه بإضافة المسند إلى لفظ الجلالة التعظيم ، وعلو منزلته ورفعة شأنه ولا يخفى عليك ما في التذكير ، أشداء ، ورحماء ، من تفضيهم وتعظيمهم .

تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة : قالوا : إن الغرض من تخصيص المسند بالوصف أو الإضافة هو تربية الفائدة وتكثيرها ، وجعلها أنتم واكمل ، أو بمعنى آخر تكثير المعنى والدلالة على غزارته ، لأر زيادة المبنى كما قالوا تدل على كثرة المعنى ، نقول مثلاً : امرؤ القيس شاعر فارس وزهير شاعر حكمة فقد كثر المعنى في الأول بالوصف وتمت الفائدة في الثاني بالإضافة . ومنه قول الشاعر :

حمى الحديد عليهم فيكأنه

ومضان برق أو شعاع شمس

وقول الآخر :

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سببه

أسب بها إلا ككشفت غطاءها

فقد خصص المسند في البيت الأول بالإضافة : ومضان برق أو شعاع شمس ، وخصص في البيت الثاني بالوصف : امرأ لا أسمع الدهر سببه أسب بها . ومنه قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَئِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)^(١) ، فقد خصص المسند بالإضافة في

(١) سورة مريم آية ٣٠ . (٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

قوله : « أبا أحد من رجا بكم ، لتكثير الفائدة وعمومها ، فهو عليه ، صلاة والسلام ليس أبا لأحد منهم ، ثم عرف المسند بالإضافة في قوله : « رسول الله وخاتم النبيين » ، لإفاده التعظيم وشهرة انصافه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفة ..

تقديم المسند : المسند إليه إذا كان مبتدأ وترتبته التقديم نحو : زيد قائم وعمر و منطلق وخالد في الميدان ، وإذا كان فاعلاً لرتبته التأخير أى الوقوع بعد الفعل « المسند » نحو قام زيد ، ويعطى محمد الجزيل ، فإذا قدم المسند إليه على خبره الفعلي كان ذلك لأسرار بلاغية - كما درست - ، وكذلك إذا قدم المسند على المسند إليه الذى رتبته التقديم ، المبتدأ ، فإن هذا التقديم يكون لأسرار ومزايا بلاغية أهمها :

١ - إفادة القصر أى قصر المسند إليه على المسند المقدم كما في قوله تعالى : (أَلَمْ يَكُنْ دِينُكُمْ دِينَ الْيَوْمِ) (١) ، والمعنى : إن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على كونه لكم لا يتجاوزكم إلى ، ودينى الذى هو التوحيد مقصور على كونه لى لا يتجاوزنى إليكم .. فالقصور عليه هو المسند المقدم والمقصور هو المسند إليه المؤخر ، وكذا القول فى الآيات الكريمة : (وَاسْتَرْبِ الْوَعْدُ الْخَلْقُ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (٢) . (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) (٣) .. (وَالتَّغْفِرُ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) (٤) . (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) (٥) ، فالتقديم فى هذه الآيات الكريمة أفاد قصر المسند إليه على المسند المقدم .. ومنه قوله تعالى

- | | |
|----------------------------|----------------------------|
| (١) - سورة السكّارون ٦ | (٢) - سورة الأنبياء ٩٧ . |
| (٣) - سورة الفاشية ٢٥ ، ٢٦ | (٤) - سورة القيامة ٢٩ ، ٣٠ |
| (٥) - سورة القيامة ١٢ | |

في وصف خمر الجنة : (يُطَافُ عَلَيْهَا بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)^(١) ، فتقديم الحار والمجروح في قوله : لا فيها غول ، أفاد نفي الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمر الدنيا أو بمعنى آخر ، أفاد قصر عدم الغول على خمر الجنة بحيث لا يتجاوز به إلى خمر الدنيا ، ولو قيل : لا غول فيها ، لأفاد ذلك مجرد نفي الغول عن خمر الجنة دون تعرض لخمر الدنيا ، ولذا جاء قوله تعالى : (الَّتِي لَا يَكْتَابُهَا إِلَّا رِيبٌ غَيْرٌ)^(٢) . بدون تقديم إذ المراد نفي الريب عن القرآن دون تعرض لغيره من الكتب السماوية ولو قيل : لا فيه ريب ، لأدى هذا إلى نفي الريب عن القرآن وإثباته لغيره وهو غير مراد . . . ومن أقوالهم قول أبي العلاء :

تعب كلهم بالحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

أفاد التقديم قصر الحياة على التعب قصرأ ادعائيا ، أي : أن ما فيها من فترات الراحة والآنس والمدة لا اعتداد به . .

وقول الآخر :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا عالم والأعداء مال

وقوله :

وليس بمغن في المودة شافع
إذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقوله :

إذا نطق السفية فلا تجبه

فخير من إجابته السمكوت

(١) - سورة الصافات ٤٥ - ٤٧

(٢) - سورة البقرة ١ ، ٢

ولا يخفى عليك معرفة موطن التقديم والمقصود والمقصود عليه في هذه
الآبيات . .

٢ - التنبية من أول الأمر على أن المسند خبر لا نعت ، كما في قول حسان
ابن ثابت - رضى الله عنه - في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - :
له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
فإنه لو قال : همم له لا منتهى لكبارها ، لتوهم أن الحار والمجرور
دله ، نعت لا خبر ، لأن النكرة تحتاج إلى الوصف حتى يكون مسوغا
للابتداء بها ، ولتوهم أن الخبر هو الجملة بعده ، وهذا لا يتفق مع غرض
المدح ، لأن الشاعر يريد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لا مدح هممه . .
ومن ذلك قوله تعالى : (وَآلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)^(١)
حيث قدم الجار والمجرور ، لكم ، على المسند إليه ، مستقر ، لدفع توهم أنه
نعت وليس بخبر . . .

٣ - لفادة التشويق إلى ذكر المسند إليه ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم :
« منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » ، وكقول محمد بن وهيب
في مدح أبي إسحاق :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
وقول الآخر :

ثلاثة يذهبن النعم والحزن الماء والخضرة والوجه الحسن
وقول الثالث :

ثلاثة ليس لها إياب الوقت والجمال والشباب
وقول ابن الردي :

وكالنار الحياة فن رماذ وأخرها وأولها دخان

فتقديم المسند في هذه الشواهد أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه والإفصاح عنه ، ولا يخفى عليك القصر في البيت الأخير ، أى : قصر الحياة على كونها نارا لا استقرار فيها ..

٤ - إفادة التفاؤل .. كما في قول الشاعر :

سعدت بغرة وجهك الأيام وتزينت ببفتائك الأعوام
فالمسند ، سعدت ، قد قدم أبقيد التفاؤل لأنه من جنس السرور والسعادة ، وكذلك ، تزينت ، قدم على المسند إليه ، الأعوام ، لنفس الغرض ..

٥ - إظهار النال والتضجر .. كما في قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الجبر أن يرى
عدوا له مامرا حسداقته يد

إلى غير ذلك من الأغراض التي تفتضى تقديم المسند على المسند إليه ..

تقييد الفعل بأدوات الشرط : إن وإذا ولو : أهتم البلاغيون بأن وإذا ولو من أدوات الشرط ، وذلك لما يكمن وراء تقييد المسند ، الفعل ، بهذه الأدوات الثلاث من اعتبارات بلاغية . وملاحظات دقيقة ..

قال البلاغيون : إن ، وإن ، وإذا ، للشرط في الاستقبال ، بمعنى تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط في المستقبل نحو إن تزرني أكرمك .. إذا جاءك الفقير فأحسن إليه ، وتختلف إن ، عن إذا ، في أن إذا ، تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه ، وذلك بأن يكون الشرط مجزوما بوقوعه في المستقبل نحو : إذا غربت الشمس حل الظلام .. إذا أذن المؤذن أسرع المسلم للصلاة .. أو يظن ظنا قويا ووقوعه فيه نحو : إذا جئتني أكرمك ، إذا كنت تعتقد اعتقادا قويا أنه سيأتى وترجح مجيئه على عدم مجيئه .. ولذا كان الغالب في الفعل المستعمل مع إذا أن يكون بلفظ الماضي الإشعار

بتحقيق الوقوع .. أما د إن ، فتستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه ، بأن يتردد في وقوعه في المستقبل ، أو يظن عدم وقوعه ويترجح على الوقوع ، أو يكون مما لا يقع إلا نادراً ، كما سترى في الشواهد .. فإذا كان الشرط مجزوماً ومقطوعاً بعدم وقوعه في المستقبل ، فلا تستعمل فيه د إن ، ولذا ، إذا ، إلا لنسكتة بلاغية . كما سنبين في الشواهد ... انظر إلى قوله تعالى :
 (فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَقَدْ مَنَعَهُ)^(١) ، تلاحظ أنه قد استعملت د إذا ، في جانب الحسنة ، ود إن ، في جانب السيئة ، وذلك لأن مجيء الحسنة أمر مقطوع به ، بحقق الوقوع ، إذ المراد بالحسنة ، الحسنة المطلقة عن التقييد بنوع معين ، ولذا عرفت تعريف الجنس لتشمل كل فرد من أفراده ، وكل نوع من أنواع الحسنات ، وشأن هذا أن يقع كثيراً لانسائه وكثرة أفراده وأنواعه ، وليكون مجيء الحسنة محققاً ومقطوعاً بوقوعه ، فقد عبر عنه بلفظ الماضي : « جاءتهم الحسنة » ، أما إتيان السيئة فغير محقق الوقوع ، إذ نادراً ما تقع السيئة بالنسبة إلى الحسنة ، ولذا استعملت د إن ، معها ، ونكرت السيئة لإفادة التقابل ، وعبر عن الإصابتة بلفظ المضارع « تصيبهم » المشعر بعدم تحقق الوقوع .. وتأمل قوله تعالى : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)^(٢) ، نجد أنه قد نكرت الرحمة « رحمة » ، وعبر عن الإذاقة بالماضي « أذقنا » ، واستعملت « إذا » ، وهذا للدلالة على أن إذاقة الناس قدراً نايلاً من الرحمة أمر مقطوع به .. ثم استعملت « إن » ، والمضارع « تصيبهم » ونكرت السيئة « سيئة » لإفادة أن إصابتة السيئة لهم أمر غير مقطوع به ، فله عز وجل لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يغفر عن كثير ، (وَلَوْ يُوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى

ظَهَرَهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (١) ...
وتأمل قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْفَاسَ ضَرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لَيْسَ كُفْرُوكَ
بِمَا آتَيْنَاهُمْ نَقْمَتُهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (٢) ، وقوله عز وجل : (وَإِذَا
أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ
عَرِيضٍ) (٣) ، نجد أن قوله عز من قائل : « أَذَاتِهِمْ مِنْهُ رَحْمَةً » ، أنعمنا على
الإنسان ، ، مقطوع بوقوعه ، وهذا واضح كما بينا في الآيتين السابقتين ،
ولذا استعملت « إذا » في الموضعين ، أما قوله تعالى : « إِذَا مَسَّ الْفَاسَ ضَرٌّ » ،
« إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ » ، . فقد ياتبس عليك التعليق ، بإذا ، فهما ، وتقول : إن
مس الضر أو الشر ينبغي أن يكون نادراً وغير مقطوع بوقوعه ، فالوضع
موضع « إن » ، لا « إذا » ، ، ولكن هذا الالتباس سرعان ما يزول عندما
تأمل السياق في الآيتين وتعرف أن الحديث عن الإنسان الكافر الذي إذا
مسه شر أو ضر دعا ربه منيباً إليه ، دعاه دعاء عريضاً ، فإذا ما أنعم الله عليه ،
أعرض ونأى بجانبه وكفر بأنعم ربه ، ولهذا توعدهم الله عز وجل « فتمتعوا
فسوف تعلمون » ، فمثل هذا الكافر ينبغي أن يكون مس الضر أو الشر له
في حكم المقطوع به ، وتلاحظ التعبير بلفظ « المس » ، في الآيتين وهو أقل
من الإصابة أو الإذافة ، ثم تنكير الضر ضر ، وتعريف الشر بالجنسية
المنفردة أي نوع من أنواع الشر ، فإذا ما أضفت ذلك إلى الإنسان المتحدث
عنه وقد وقفت على حقيقة ، تيقنت أن الشرط ينبغي أن يكون بجزء ما به
ومقطوعاً بوقوعه ... وعندما تأمل الشعر الجديد تجد للتعليق بهاتين الآيتين
موقداً لطيفاً ومذاقاً حلواً .. اقرأ قول أبي الطيب المتنبي :

إذا أنت أكرمت السكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللقيم تردا

(١) سورة فاطر آية ٤٥ (٢) سورة الروم آية ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) سورة فصلت آية ٥١ .

تجده قد استخدمه إذا ، في جانب إكرام الكريم : فدل على أنه أمر عقق ،
وينبغي أن يوجد دائما وأن يقع كثيرا ، ثم استخدمه وإن ، في جانب إكرام
اللهم ، فدل على أنه نادرا ما يقع ، لأن النفوس تنفر من اللئيم وتأبى
إكرامهم ... ونأمل قوله في بيت آخر مخاطبا سيف الدولة :

أجزنى إذا أنشدت شعرا فأنما

بشعرى أتاك المادحون مردداً

ودع كل صوت دون صوتي فأنتى

أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

تجده قد استعمله إذا ، فدل باستعماله على قوة شعره ، وكثرة إنشاده ،
وذيوعه في الناس ، حيث غلب شعر الشعراء فصاروا يرددونه وصار هو
الصائح المحكى ... وخذ قول قعنب بن أم صاحب في الهجاء :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

تجده قد دل إذا ، على أن سماع الخير عنه أمر عقق ويقع كثيرا ،
ودل وإن ، على أن ذكره بسوء نادرا ما يقع ، فهو لا يفعل إلا ما يعمده عليه
ويستحق به الشناء وشكر الشاكرين .. وقول محمد بن المولى في مدح يزيد
ابن قبيصة والى مصر في عهد أبي جعفر :

وإذا صنعت صنيعا أنعمتها بيدين ليس نداما بمكدر

تراد قد دل إذا ، على كثرة صنائعه وتحقيق فعله الخير وسد حاجات
المحتاجين .. ثم تأمل قول سعد بن ناشب :

فيا الرزام رشعوا بنى مقسدا إلى الموت خواصا إليه الكتائب
إذا هم ألقى بين عينيه عزه ونكسب عن ذكر العواقب جانبا

تجده قد دل باستخدامه إذا ، على كثرة همه وتحقيق وقوعه ، فهو لا يخشى

العواقب بل يدعوا جانباً ويسرع إلى الموت خوفاً لآلية الكتابيا، وتدبر تلك الصورة البديعة : ، ألقى بين عينيهِ عزمه ، حيث جسد العزم وأبرزه محسوساً مشاهداً أمام عينيه وعد إلى الظلم الكريه : فتأمل قوله تعالى :
(أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَا أَنِي ضَلَّالٍ مُبِينٌ)^(١) ، نجد أن إشارة الأداة « إن » ، بالتعبير أفاد أن إرادة الضر غير محققة الوقوع وأنها نادراً ما تقع ، وما يقوى هذا استخدام المضارع « يردن » ، ولفظ « الرحمن » ، الذي ينهي بالرحمة وعدم إرادة الضر ، ثم تنكير الضر « بضر » ، لإفادة التفاضل ولا يخفى عليك ما في الآية من التعريض ، إذ المراد : أنتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنيكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذونكم إنكم إذا أني ضلال مبين . . . وإجراء الآية على التعريض فيه ترغيب لطولاً ، في قبـول الحق واستمالة لهم نحو الهداية والإيمان بالله وحده ، لأنه ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل والضلال ، ومحض النصيح لهم حيث لم يرد لهم إلا ما يريد له نفسه^(٢) . . . وما جاء من ذلك وقد أريد به التعريض أيضاً قوله تعالى :
(إِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْتَبِطَنَّ عَنْكَ)^(٣) ، وقوله : (وَاتَّيْنَاهُم مِّنْ دُونِ مَا جَاءَكَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا تَمِنَ الظَّالِمِينَ)^(٤) ، وقوله عز وجل :
(فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٥) ولا يخفى عليك السر البلاغي الكامن وراء استخدام « إن » ، في الآيات الكريمة ، وللتعريض في الآيات الكريمة بالإضافة لما سبق ، فائدة أخرى جارية وهي الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهر ، فحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قرره

(٢) انظر الإيضاح ١/١٩٦ .

(١) سورة يس آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة الزمر آية ٦٥ . (٤) سورة البقرة آية ١٧٥ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٠٩ .

ربه واصطفاه ، وهؤلاء الصفوة من المهاجرين والأنصار يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم ؛ فالعامل عليه وأساس التفاضل بين البشر إنما هو التقوى والعمل الصالح ، وفي هذا تعميق وتحديد لصفة البشرية ، وحفظ لعقيدة التوحيد حتى لا يشوبها ما شابهها في الشرائع الأخرى حيث قالت اليهود : عزير ابن الله ، ونالت النصارى : المسيح ابن الله ، ولهذا المعنى ترى القرآن الكريم يذكر الأنبياء بلفظ العبد : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)^(١) ، (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)^(٢) ، وذلك للإشارة إلى أن البشرية جميعها سواء في العبودية ، وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة^(٣) . .

وعد إلى التعليق بيان ، ودلالة فأقرأ قوله تعالى : (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتِرٌ)^(٤) تجد أن التعليق بيان في الآية الكريمة ، أفاد أعراض هؤلاء الكفرة وشدة رفضهم وتعاميهم عن رؤية الآيات ، فآيات الله في كونه كثيرة لا تقناهي :

في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولكن هؤلاء تعاموا عن رؤيتها ، لم ينقبوا عنها ، لم ينظروا نظر متأمل ، وإن حدث وعرضت لهم آية دون أن يبحثوا عنها ، وتبين لهم وجه الحق فيها أعرضوا وقالوا : سحر مستمر . . وأقرأ قوله تعالى : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)^(٥) ، وقوله عز وجل : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ)^(٦) ، تجد التعليق دليلاً ، في الآيتين أفاد تحقيق وقوع الشرط ،

(٢) سورة مريم آية ٣٠ .

(٤) سورة القمر آية ٢٠ .

(٦) سورة النحل آية ١٠٩ .

(١) سورة الجن آية ١٩ .

(٣) انظر خصائص التراكيب ٢٧٠ .

(٥) سورة الزلزلة آية ١ .

فزلزلة الأرض ولا خراجها أنفأ لها في ذلك اليوم من الأحداث الثابتة المحققة ،
 ويحيى نصر الله الذى وعد به سبحانه وتعالى ، حق ثابت لا ريب فيه ، ولا يتردد
 في إثباته مؤمن ، وقد جاء كما وعد جل وعلا وخذ قوله تعالى :
 (وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يَوَلُّوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ)^(١) وقوله عز وجل :
 (إِنْ يَشَقُّوْكُمْ يَسْكُوْا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيَنْسُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْهَبَتْهُمُ
 بِالْأَسْوَءِ وَوَدُّوا أَنْ يَمْكُرُوا بِكُمْ)^(٢) ، أفاد التعليق ، إن ، ، ضعف شدة
 الكفرة وعدم جراتهم على قتال المؤمنين ، فقتالهم أمر نادر الوقوع ، غير
 مقطوع به وكذا الظفر بالمؤمنين ، أى : ظفر دؤلاء الأعداء بالمؤمنين أمر
 غير محقق وغير مقطوع به ، ، لمن يشقوكم ، أى : يظفروا بكم : ثم تأمل
 قوله : دودوا ، بالماضى عطفاً على المضارع : د يكونوا ، و د يبسطوا ، ،
 وما ينبى به استعمال الماضى فى موضع المضارع من رغبة الكفرة وتمنيهم
 وحرصهم الشديد على أن يتحقق هذا الفعل ، كانه قيل : دودوا قبل كل
 شىء " كفركم وارتدادكم عن دينكم ، فهم يتمنون لكم مضار الدنيا والآخرة
 من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً ، وردكم كفاراً سبق
 المضار عندهم لعلهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، والعدو أهم شىء عنده
 أن يقصد أعز شىء عنده صاحبه هذا هو رأى الزمخشري ويرى الخطيب أن :
 دودوا ، ليس معطوفاً على الجزاء بل هو معطوف على الجملة الشرطية ، كما
 فى عطف : د ثم لا ينصرون ، فى الآية السابقة ، وذلك لأنه ليس فى تقييد :
 دودوا ، بالشرط فائدة ، إذ وادادهم أن يرتدوا كعاد آحاصلة وإن لم
 يظفروا بهم^(٣)

واللهل بموقع وإن وإذا ، يزيع كثير من الخاصة عن الصواب

(١) سورة آل عمران آية ١١١ (٢) سورة الممتحنة آية ٢

(٣) انظر الإيضاح ١٩٧/١

فيغلطون . . انظر إلى قول عبد الرحمن بن حسان مخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها :

ذمت ولم تحمد وأدركت حاجتي قولي سواكم أجرها واصطناعها
أني لك كسب الحمد رأى مقصر ونفس أضاق الله بالخير باعها
إذا هي حشته على الخير مرة عصاها وإن همت بشر أطاعها

فالآيات - كما ترى - في الهجاء والذم ، إذ المخاطب ذو رأى مقصر ، ونفسه أضاق الله بالخير باعها ، وكان يقضى ذلك أن يقول : إن هي حشته على الخير مرة عصا وإذا همت بشر أطاعها ، ليناسب مقام الهجاء والذم ، وتكون تلك النفس لا تهم بالخير إلا نادراً ، وإن همت به مرة عصاها ، وتهم كثيراً بالشر وإذا همت به أسرع إلى إجابتها . . ولذا قال الزمخشري : لو عكس لأصاب . . وقد حاول البعض أن يقتصر للشاعر ، وأن يجيب عنه ، فرأى أنه يقصد لإثبات حث نفس الوالي له على الخير ووقوعه منها كثيراً وعلى الرغم من ذلك فهو يعصها ويقارها ولا يجيبها ، وأنه يبادر إلى الشر بمجرد أن تهم به نفسه ، وهذا أبلغ في هجاء الوالي وذمه . . ولكن يدفعه قوله مرة ، فهو تصریح بأن حثها على الخير قليل ونادراً ما يقع ، وإن وقع فإنه يقع مرة واحدة . . ونأمل قول أبي تمام مادحاً :

كريم مني أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

فقد مر بك هذا البيت في الحديث عن فصاحة الكلام وتبين لك أن قوله : وإذا ما لمته ، لا يناسب مقام المدح ، لأنه يدل على أن اللوم يقع من الشاعر كثيراً ، ولو قال : وإن لمته لمته وحدى ، لأصاب وأجاد ، وبما يحمد للشاعر في البيت أنه قابل المدح باللوم والذي يفابل المدح هو الهجاء لا اللوم وكان الممدوح لا يفعل ما يستحق عليه هجاء ، وإنما قد تصدر منه أشياء يسيرة يلام عليها فقط (١) .

استخدام د إن ، في موضع د إذا ، و د إذا ، في موضع د إن ، : وقد تستعمل د إن ، في موضع د إذا ، ، أى في الشرط المقطوع بوقوعه ، المجزوم بتحقيقه ، وتستعمل د إذا ، في موضع د إن ، ، أى في الشرط غير المقطوع بوقوعه ، وذلك لاعتبارات بلاغية يقتضيها المقام ويستدعيها الحال .. تقول: إن طلعت الشمس ذهبت إلى الحبيب ، فطلوع الشمس أمر محقق مقطوع بوقوعه ، لحقه أن تدخل عليها د إذا ، لا د إن ، ، ولكذلك استخدمت د إن ، لهدف بلاغي ، وهو استبطاؤك طلوع الشمس ، وامتداد الظلام عليك وطول الليل ، وكأنه لا يمر ، ولا يريد أن ينجلى يصبح ، وأنت تترقب وتنتظر بزوغ الضوء حتى تسرع إلى لقاء الحبيب .. إن استخدمك د لإن ، أنبأ بامتداد الليل ، وكأن طلوع الشمس صار بالنسبة لك أمراً غير محقق الوقوع ، صار أمراً نادراً .. ونقول : إن مات فلان البهيمل انتفع الناس بماله ، فالموت أمر محقق الوقوع : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)^(١) ، ولكذلك استخدمت د إن ، لتشعر باستثقالك وجود البهيمل وعدم ارتياحك له ورغبتك في التخلص منه ، وكأنك لطول تمنيك موته والتخلص منه ، صرت تستبعد وقوعه ، صار موته أمراً غير مجزوم بوقوعه على الرغم من تحققه وأنه آت لا محالة .. ونقول لمن يؤذى أباه ولا يحسن إليه ولا يبره : إن كان أباك فلا تؤذه .. ، إن كان أباك فأحسن عشرته وبره ، فـ كونه أباه أمر محقق ولكذلك جعلته أمراً غير مجزوم به ، وكأنك تريد بهذا تأنيب المخاطب وتوبيخه وحشه على بر أبيه والإحسان إليه ..

ونأمل قوله عز وجل : (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَاحِحًا إِن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)^(٢) في قراءة من قرأ بكسر همزة د إن ، ، والمعنى أنهم لم يكم فضرب عنكم القرآن بترك إنزاله لكم ، وترك ما فيه من الأمر والنهي والوعيد

والوعيد إن كنتم مسرفين ، فكونهم مسرفين أمر مقطوع به وحقيقته ثابتة
مقررة ، وقد استعملت د إن ، في هذا الشرط المقطوع به لقصد توبيخهم على
الإسراف ، وتصوير أن المقام لا يحتمل هذا الإسراف فالعاقل لو تدبر
وتأمل آيات الله في كونه لما أسرف ، ولا قلع عن إسرافه وعناده ، فحق هذا
الإسراف الانتفاء ولا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير ، كما يفرض
المحالات ، ولذا استخدمت د إن ، في الآية الكريمة على الرغم من تحقق
الإسرافهم ، ومثله قوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
 فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ)^(١) ، فهم في ريب قطعاً ، وقد استخدمت د إن ،
في هذا الأمر المحقق توبيخاً لهم ، ولإفادة أن المقام يشتمل على ما يزيله ويقلمه
من أصله ، وهو الآيات الدالة على أنه منزل من عند الله ، فوقع الريب
منهم ينبغى ألا يكون إلا على سبيل الفرض ، كما يفرض المحال ، ويرى بعض
المبلاغيين أن تكون الآية من تغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين
منهم ، لأنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما يشكروا عناداً وتكبراً ، لجعل
الجميع كأنهم لا ارتياب لديهم ، ولذا استعملت فيه د إن ، ، على سبيل الفرض
للتبكيك والإلزام^(٢) . . ومنه قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ . .)^(٣) ، فالقوم وهم الكفرة
في ريب حقيقة ، وقد استعملت د إن ، توبيخاً لهم وإشارة إلى أن الأدلة على
إمكان البعث بينة جلية ، فلا يذكر وقوعه ويشك فيه إلا معاند أو جادل ،
فحق هذا الريب الواقع فيهم ، ألا يوجد إلا على سبيل الفرض كما يفرض
المحال . . ويمكن جعل الآية من قول التغايب كما في الآية السابقة . . ونأمل
الآيات الكريمة : (إِنْ يَنْعَمِ اللَّهُ بِكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ غَايِبَ أَسْكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ
فَمِنْ ذَا الَّذِي يَنْعَمُ بِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . .)^(٤) . . (وَأَيْنَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ

(٢) انظر المطول ١٥٨

(١) سورة البقرة آية ٢٤

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٠

(٣) سورة الحج الآيات ٥

الله أَوْ مُنَّم كَتَفَرَّةً مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . وَأَيْنَ مُنَّم
أَوْ قِيلَتُمْ لِلَّهِ تَخْشَرُونَ^(١) . (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ
عَلَى عَقْبَيْهِ فَإِنَّ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا)^(٢) تجدد أن دإن ، قد دخلت على أسر محقق
واقع لا محالة أو مجزوم بوقوعه ، وهو الموت أو القتل في سبيل الله ،
ونصر الله للمؤمن ، ما عدا قوله تعالى : د وإن يخذلكم ، فخذله الله ، لأنه تعالى
للمؤمنين لا يقع إلا نادرا ، وهو إن وقع يكون ابتلاء واختباراً والحكمة
لا يعلمها إلا هو ، وعندما تفتش عن السر البلاغى الحكام وراء استعمالات دإن ،
في الآيات الكريمة تراه دقيقة واطيئة ، فقله : د إن ينصركم الله ، تشير إلى
أن أهليةكم للنصر أمر عزيز نادر ، فانه ينصر من ينصره ، والذين ينصرونه
هم فئة قليلة . . وقوله : د ولئن متم أو قتلتم . . تشير إلى غفلتهم وكانهم
لعدم عملهم لما بعد الموت قد صاروا في حال من لا يتوقع وقوعه ، وفيه أيضاً
أن خلوص الموت لله عما هو عزيز نادر . . وقوله : د أفإن مات أو قتل ،
تشير إلى مدى حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وعلقهم به إلى
حد صاروا فيه كأنهم يستبعدون موته أو استشهاده في سبيل الله وبعدون
ذلك نادرا عزيزا وغير خاف عليك ما وقع منهم رضوان الله عليهم عندما
سمعوا نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام ، وقول عمر عندما سمع الآية من أبي
بكر رضى الله عنهما : د والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فمرفت حتى
ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت إلى الأرض ، . .

وانظر إلى قول المتنبي :

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان ليل والغبار
دإن جنح الضلام انجاب عنهم أضاء المشرفة والنهار

فهو يتحدث عن مجاهدين أثاروا الغبار وأشهروا السيف ، فإذا حل
ظلام الليل رأيت ظلامين ، ظلام الليل وظلاماً ناجماً عن الغبار المثار ، وإذا
انجذاب ظلام الليل رأيت ضوءين ، ضوء النهار ، وضوء السيوف ... فذهاب
الليل وحلول النهار ، وذهاب النهار وحلول الليل من الأمور المحققة الثابتة ،
وعلى الرغم من ذلك نجد الشاعر قد استعمل ، إذا ، في البيت الأول مفهماً
بهذا أن ذهاب النهار وحلول الليل أمر محقق ثابت الوقوع .. ثم استعمل
د إن ، في البيت الثاني وكان ذهاب الليل وحلول النهار من الأمور غير المحققة
التي لا تقع إلا نادراً ، ويهدف الشاعر بهذا إلى تصوير حال هؤلاء المجاهدين
وأأنهم مستمرين في الجهاد والقتال ، فالليل يمتد متواصل والكفاح مستمر
وكانه لن يحل نهار مكان ليلاهم الممتد ، ولا هدوء أو سكون مكان كفاحهم
المتواصل ، وإن حل ذلك ووقع فهو من الأمور النادرة ، وهذا معنى دقيق
أبرزه الشاعر باستخدامه د لإن ، في موضع ، إذا ، في البيت الثاني ..

وكما نستخدم د إن ، في موضع ، إذا فكذا نستخدم ، إذا ، في موضع
د إن ، ، تقول لمن شك في عطف الأمير ، وبئس من قضاء حاجته ، وأخذ
يقول : لا أدري أبكر مني الأمير ويتفضل علي بقضاء حاجتي أم لا ؟ ، تقول
له : إذا أكرمك الأمير وقضى لك حاجتك فكيف يكون شكرك ..
فكرم الأمير قد تشكك فيه الرجل وتردد وجعله من الأمور النادرة غير
المقطوع بوقوعها ، وجعلته أنت باستخدامك ، إذا ، من الأمور الثابتة
المحققة الوقوع ، وكأنك تريد الإشعار بأنه لا ينبغي الشك في كرم الأمير
وتفضله .. وتأمل قول الأحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلوة المقابر
ستبقى لها في مضمرة القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

تحدثه يتحدث عن حب قد تغلغل بداخله ، وعميق قد استقر في قلبه

وأحشائه ، وهر حب باق ودائم لا يبلى ، بل سيبقى سره يوم تبلى السرائر ، ولو حاول الأحرص سلوا ناداه مناد وزجره زاجر : دعياد السلو المقابر . . .
فالموضع - كما ترى - موضع دإن ، لأن إرادة السلو ونسيان مثل هذا الحب من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادراً ، ولما كان الشاعر أراد ، بإذائه معنى دقيقاً ، مغزاه : أن هذا الحب باق حتى لو رمت سلوه وجزمت ، وثبت ذلك وتكرر مفي ، ووقع كثيراً ، وصار من الأمور المحققة المجزوم بها ، حتى لو حدث هذا الحب باق إن يززع . وانظر إلى قول المتنبي مخاطباً سيف الدولة عندما تخلى عنه وتغير عليه :

إن كنت سر كم ما قال حاسداً فما لجرح إذا أرضاك الم

فلن يخفى عليك استخدام دإن ، في الشطر الأول في موضع دإذا ، واستخدام . إذا ، في الشطر الثاني في موضع دإن ، وذلك لأن سيف الدولة قد ثبت وتحقق تخليه عن الشاعر ، وسره ما قال حاسدوه ، وهو أي سيف الدولة من هو ، إنه لا يرضى لجريح أن يتألم ، وقلنا يرضى لمذكوم أن يفاسى ألم جرحه ، وكان المتنبي بإبشاره هذا التعبير ، يريد أن يقول لسيف الدولة : ما كان ينبغي لما بيننا من الألفة والمحبة وطول الود والمخالطة ، أن يكون منك هذا التغير وأن يسرك ما قال حاسداً وأن يثبت ويتحقق رضاك بألامى وجراحى التي ستصيبني لفراقك والبعيد عنك بل كان ينبغي أن يكون ذلك من الأمور النادرة . . ويتضح لك هذا المعنى في قوله :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجدانا كل شئ بهدكم عدم

هذا وقد تدخل دإن ، ود إذا ، على الأمور المفروضة المحالة المجزوم بانتفاؤها وذلك لغرض بلاغى يقتضيه المقام . . تأمل قوله تعالى (قل إن كَانَ لِرَبِّكَ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)^(١) ، تجد أن دإن ، قد دخلت على

أمر مستحيل مجزوم بانتفاءه وهو كرون للرحمن ولد تعالى عن ذلك علوا كبيرا ،
والغرض من ذلك هو إرخاء العنان للمعاندين بفرض ذلك المحال تبيكيتا لهم
وتوبيخاً . . ومثله قوله تعالى : (إِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ
اهْتَدَوْا)^(١) ، فما آمنوا به ليس به مثل ، وقد فرض ذلك تبيكيتا للكفرة
وتسفيرها لأحلامهم . . وقوله جل وجل : (وَلَإِذَا قَالُوا لِلَّهِمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا
مِمَّا أَلْقَى مِنْ عَيْنِكَ فَانْمُطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا وَسُقِّنَا السَّمَاءَ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ)^(٢) ، فهم يعتقدون أنه باطل وقد قالوا هذا على سبيل الفرض كما
يفرض المحال ، وذلك لإعلان رفضهم وتمسكهم بضلالهم ، فهم ان يؤمنوا
بالقرآن ولو فرض كونه حقا وتحقق بهذا الغرض ، فليمطروا بحجارة من
السماء أو يأتهم عذاب أليم ، أما الإيمان به فلا . .

ويقول لك البخيل : إذا طرت في السماء بجناحين كالطائر أعطيتك
درهماً ، يريد أن يقطع كل أمل لك في الحصول على شيء منه ، فلو تحقق
المحال وطرت بجناحك في الجو حصلت على درهم منه ، ولكن هيأت هبات ،
أنى يتحقق لك هذا المحال . .

يجيء الماضى لفظاً مع إن ، : قلت لك : إن ، إذا ، و ، إن ، للشرط
في المستقبل ، أى لتعاقب حصول الجراء على حصول الشرط في الاستقبال ،
فإذا دخلنا على الماضى فهو ماضى لفظاً مستقبلي معنى نحو : إذا جاءنى الفقير
أكرمه . . إن استجبت لزيد أحسن معاملتك ، فالمراد بالشرط والخزاء في
المثالين الاستقبال . . وليكون ، إذا ، ، الأصل فيها أن تدخل على الشرط
المجزوم بوقوعه ، كان الغالب في الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظه الماضى
للإشعار بتحقيق الوقوع على نحو ما مر بك في الشواهد . . أما بـ إن ، فالأصل

فيها أن تدخل على الشرط غير المجزوم بوقوعه ، ولذلك ينبغي أن تدخل على المضارع فيقال إن تذكرني أكرمك ، ولا يحىء الماضى منع ، إن ، لفظاً لولا لغرض بلاغى وهو إبراز غير الحاصل الذى يحدث فى المستقبل فى معرض الحاصل الذى وقع فى الماضى وتحققنا من وقوعه ، ويكون ذلك لأسباب عديدة منها : إظهار التفاؤل كقولك : إن ظهروا على الأعداء نحقق الأمان . . ومنها : الرغبة فى وقوع الشرط وحصوله ، كقولك : إن نجح خالد أولم لنا . . إن قرأت البلاغة تذكرن لديك الذوق السليم . . ومنها : الإشارة إلى أن الفعل واقع لا محالة كقولك : إن مت كان كذا . . إن زالت الشمس جاء فلان ومما عبر فيه بالماضى مع ، إن ، رغبة فى تحقق الشرط وحصوله ، قوله تعالى : (وَلَا تُكْرِهُوا قَتْلَ أَنْفُسِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا لِنَبْتَلِيَهُمْ) (١) ، والمعنى : لا تمكروها الإمامكم على الزنا إن أردن تحصناً ، والأسل : إن يردن تحصناً ، فعبر بالماضى لإظهاراً للرغبة فى وقوع إرادة التحصن من البغيات . . . وقد عبر ديان ، دون ، إذا ، الإشعار بقدرة إرادة التحصن بينهن وأن الكثيرات كن يفعلن ذلك عن طواعية ورغبة فى البغاء . . أما فائدة تعليق النهى عن الإكراه بإرادة التحصن ، المشعر بأن الإمام إذا أردن البغاء فلا نهى ، فهم تبشيع هذه الصورة وحث المذكره الغاصب على أن يأنف من هذه الرذيلة . . ووجه التبشيع والحث على الانتهاء هو إقراعه سمعه والنداء عليه بأن أمته خير منه ، فقد آثرت التحصن على الفاحشة ، وهو يابى إلا إكراهها على البغاء (٢) .

هذا وقد تستعمل ، إن ، فى غير الاستقبال قياساً مطرداً ، إذا كان فعل الشرط دكان ، كقوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَسَكَّتْ بَتِ

(١) سورة النور الآية ٣٣

(٢) انظر الكشاف ج ٣ ص ٦٦ .

وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(١) ، وقوله عز وجل : (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ)^(٣) ، أى : إن حصل منكم ريب فيما مضى واستمر ذلك إلى وقت الخطاب . . . وربما ورد دخولها على غير كان وهو ماض . . . كما فى الشواهد السابقة وكما فى قول الشاعر :

فيا وطني إن فاني بك سابق من الدهر فليهنم لسا كنك البال

كما قد تدخل ، إذا ، على الماضى لفظاً ومعنى ، على نحو ما ترى فى قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا)^(٤) ، وعلى الماضى الدال على الاستمرار كما فى قوله عز وجل : (وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ)^(٥)

بقى أن تعلم أن هاتين الأداتين : «إن» و«إذا» ، قد تستعملان لجرد الربط فقط كما فى قوله تعالى : (إِنْ يَسْكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَقُلْ أُولَٰئِكَ بِهَيْمًا)^(٦) ولذا ينبغى أن يقال : إن هذه الأحكام التى ذكرها البلاغيون مبنية على الأكثر والغالب ، لا على القطع واليقين وأن هاتين الأداتين قد تكونان فى النادر لجرد الربط بين الشرط والجزاء ، كما فى الآية المذكورة^(٧) .

وأن تعلم أيضاً الرد على هؤلاء الذين يقولون : إذا كانت «إن» ، تدخل على الشرط غير المقتطوع به ، وإذا تدخل على المجزوم بوقوعه ، فكيف تقعان فى القرآن الكريم والله تبارك وتعالى عالم بحقائق الأشياء على ما هى

(١) سورة يوسف آية ٢٧ (٢) سورة المائدة آية ١١٦

(٣) سورة البقرة آية ٢٣ (٤) سورة الكهف آية ٩٧

(٥) سورة البقرة آية ١٤ (٦) سورة النساء آية ١٣٥

(٧) انظر خصائص التراكيب ص ٦٤ .

عليه ويستحيل في حقه تعالى الشك والتردد ، وكذا لا يتصور منه تعالى جزم ، لأنه علام الغيوب . . والرد عليهم دين وهو أن القرآن الكريم قد نزل على مذاهب العرب في الكلام وجاء على طرقهم في التعبير والقول ، ثم إن الأداتين من أدوات الشرط ، فالمعنى قائم على الربط والتعليق ، لا على الإخبار . .

استعمال دلو : وأما دلو ، فأصلها أن تكون للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط وانتفاء الجزاء ، فهي وصورة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشئ عن امتناع شرط . . تقول : لو جئني لأكرمك ، فيدل هذا على أن الإكرام لم يحدث ، لأن الجيء لم يتم ، أي أن الجواب قد انتفى لانتهاء الشرط ، ولذا قيل إنها حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط . . وإذا كانت دلو ، للشرط في الماضي ، بمعنى أنها تدل على ارتباط مضمون الجزاء بمضمون الشرط فيما مضى ، فيلزم من هذا كون جمليتها فعليتين ماضيتين ، كما في قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)^(١) ، وكقول أبي العلاء :

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم
رعايا ولكن ما لهم دوام

ولا تدخل على المضارع إلا لئلا تكون بلاغية ، كما في قوله تبارك وتعالى : (لَوْ يُعْلِمُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمْرِ لَمَعْلَمٌ)^(٢) ، والمعنى : لو يعلمكم في كثير من الوقائع لشيء ذلك عليكم ولوقعتكم في ذلك وجهد ، فقد امتنع عنهم بسبب امتناع استمراره - صلى الله عليه وسلم - على طاعتهم . فتلاحظ أنه قد عدل عن الماضي إلى المضارع في الآية لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا بعد وقت ، لأن المضارع يفيد الاستمرار والتجدد . . ومنه قول الشاعر :

(٢) سورة الحجرات الآية ٧

(١) سورة الانبياء الآية ٢٢

ولو تلتقي أصدأؤنا بعد موتنا
ومن دون رمينا من الأرض سبب^(١)
أظل صدى صوتي وإن كنت رمة
لصوت صدى إيلى يهش ويغرب .

ومنه فى غير « لو » ، قوله تعالى : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ لَمَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)^(٢) ، فقد جاء قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ، بعد قول المنافقين : « إِنَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » ، لأن المضارع يفيد استمرار الاستهزاء على سبيل التجدد ، وهو أبلغ من الاستمرار والثبوت الذى تفيد به الجملة الاسمية . . . وقوله تعالى : (قَوْلُ لَّهِمْ يَمَّا كُتِبَتْ إِلَيْهِمْ)^(٣) ، فلم يعمد عن المكسب بالماضى كما عبر عن الكتابة ، لأن كسبهم يتجدد بخلاف ما كتبه .

وتأمل دخول « لو » على الفعل المضارع فى قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُبْصِرُ مَوْنَ فَكَيَّرُوا وَنُحِرُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ)^(٤) ، وقوله عز وجل : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا آتِنَا نَارَ اللَّهِ)^(٥) ، وقوله جل وعلا : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ . .)^(٦) ، فيجد أن « لو » قد دخلت على المضارع فى الآيات الكريمة لتزيله منزلة الماضى فى تحقق الوقوع . لصدوره عن لاخلاف فى صدق إخباره . كما نزل « بود » فى قوله تعالى : (رَبُّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا)^(٧) ، منزلة ودة ، لأن الفعل الواقع بعد « رب » ، المكفوفة يجب

-
- (١) الرمس : القبر . وسبب : امتداد والماع .
(٢) سورة البقرة آية ١٥ .
(٣) سورة البقرة آية ٧٩ .
(٤) سورة السجدة آية ٢٢ .
(٥) سورة الأنعام آية ٢٧ .
(٦) سورة سبا آية ٣١ .
(٧) سورة الحجر آية ٢ .

أن يكون ماضياً .. ويجوز أن يكون الغرض من التعبير بالمضارع في الآيات استحضار الصورة العجيبة صودة المحرمين وهم ناكسو الرسوم يطلون زردهم إلى الدنيا كي يغيروا نعيمهم في الحياة ويعملوا صالحاً ، وصورة الكفرة وقد وقفوا على النار ، والظالمين وهم موقرون عند ربهم ، وصورة وداد الكفرة لو أسلموا ، وما من رب في أن يستحضر "صورة وإبرازها أمام المخاطبين مرئية مشاهدة يكون أشد وقعاً وأبلغ تأثيراً ... ومن استحضر الصورة قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّبَّاحَ فَتَنِّيَ سَحَابًا فَبَقُوا إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)^(١) ، فقد عبر عن الماضي د آثار ، بالمضارع « تثير » ، استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وهي صورة الرياح تثير السحاب وتحركه فينفث لها ويساق ، فقد جعل المضارع الصورة حاضرة أمام العين ، وكأنها تبصر وتشاهد ... والتعبير بالمضارع عن الماضي استحضاراً للصورة ، لا يحسن إلا في الأمور الغريبة العجيبة التي يهتم برؤيتها ومشاهدتها لفظاً وعملاً وغيابها وشدة تأثيرها كآيات في الآيات الكريمة ، وكما نرى في قول تأبط شراً :

ألا من مبلغ فتیان فتمم	بإسلا قیت عند رحابطان
بأنی قد لیت النول تهری	بتمب كالصحیح صمصحان
فقلت لها کلانا نضو أرض	أخو سفر نفلی لی مکانی
فشد شد نغوی فاهوت	لها کفی بصقول یسانی
فأضربها بلا دھش نفرت	صربما لایدین ولاجران ^(٢)

(١) سورة فاطر آية ٩

(٢) فهم : قبيلة الشاعر « تأبط شراً » . وهذا لقب قد غاب عليه واسمه ثابت بن جابر بن سفيان .. ورحابطان اسم موضع .. وتهوى بمعنى : تسرع مقبلة إلى .. والسهب : الغلاة .. والصححان : ما استوى من الأرض .. والنضو : المزلزل ..

فهو يتحدث عن أمر غريب إذ يزعم أنه قد التقى بالغول في تلك الفلاة
وتحدث إليها وطلب منها المسألة فأبت فقتلها ، وتراه قد عبر بالمضارع
فأضربها ، والسياق الماضي ايصور تلك الحال العجيبة التي تشجع فيها على
ضرب الغول، كأنه يرىنا إياها وبطلب منا مشاهدتها ، تعجيبا من جرأته على
كل هول وثباته عند كل شدة . . . ثم نأمل قوله عز وجل : (إِنْ يَسْئَلْ عِبَادِي
عِنْدَ اللَّهِ كَمَا سَأَلَ آدَمَ خَلْقَهُ مِنْ رَبِّهِ نُرَآبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ^(١) ،
وقوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) ^(٢) تجدد قد عبر بالمضارع وفيكون ،
استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة . . . وفي الآية
الثانية عبر بالمضارع أيضا عن الماضي في قوله : فتخطفه الطير أو تهوى به
الريح ، ، إذ الأصل : نخطفته الطير أو هوت به الريح . والغرض
هو استحضار وإبراز هذه الصورة العجيبة وتصويرها مرئية ومشاهدة
أمام الأعين . . .

* * *

= من كل شيء، فعل بمعنى مفعول، كأنه نعى وأخرج عن لجه من جذب الأرض . .
وصريعا : فعيل بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . . والجبران في الأصل مقدم.

هتق للبعير من مذبجه الى منعرة .

(٢) سورة الحج الآية ٢١

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩

(١٥) - ملم العائ

الفصل الرابع

أحوال متعلقات الفعل

متعلقات تقرأ بكسر اللام وتقرأ بفتحها ، والكسر أرجح إذ يقال :
 تعلق المفعول بالفعل ، وتعلق الجار والمجرور بالفعل ، فالمفعول متعلق بالفعل
 والجار والمجرور متعلق به . والمراد بمتعلقات الفعل ما يتصل بالفعل ويتعلق به
 من فاعل ومفعول وجرار ومجروب وفارف ومصدر وحال وتمييز وغير ذلك . .
 فالفعل يلازم هذه المتعلقات ويتصل بها فيتحقق بهذا الاتصال أو بتركيبها
 من الأغراض البلاغية ، ثم إن هذه المتعلقات يمكن وراء بنائها وتركيبها مع
 الفعل كثير من المزايا والدقائق اللطيفة ، وعلى الدارس أن يلم بتلك المزايا ؛
 وأن يعلم كيف يقدم المتعلق على الفعل أو يتأخر عنه وما أغراض تقديمه أو
 تأخيره . . وإذا وجد أكثر من متعلق فكيف تصاغ الجملة ؟ وما موضع كل
 متعلق فيها ؟ ومتى يحذف ؟ . . نجد وراء ذلك كثيراً من الأسرار والدقائق
 والمزايا التي ينبغي للدارس أن يتفعل عليها ويعيط بها . . ويلحق بالفعل في هذا
 ما هو بمعناه كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعول التفضيل وغيرها
 من المشتقات ، ولذا ستكون دراستنا في هذا الفصل - إن شاء الله - هادفة
 إلى إيضاح ونجلية الأسرار البلاغية التي تمكن وراء الصيغ والعبارات في
 الموضوعات التالية :

- ١ - تقييد الفعل بالمفعول ونحوه . .
- ٢ - دراسة المفعول والمزايا البلاغية التي تمكن وراء حذفه . .
- ٣ - تقديم المفعولات على الفعل أو ما في معناه . .
- ٤ - تقديم بعض المفعولات على بعض . .

وبعد ذلك سنعتمد إلى دراسة ظواهر أسلوبية ، وصور من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهي أهم جميع أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل . . .

تقييد الفعل بمفعول ونحوه : إذا أردت أن تنبئ عن مجرد وقوع الحدث وحصوله ، دون إشارة لفاعله الذي صدر منه أو مفعوله الذي وقع عليه ، قلت : وقع ضرب أو حدث مجيء أو تحقق نجاح ، فتجعل مصدر الحدث فاعلا لفعل عام ، إذ مرادك أن تنبئ عن وقوع الحدث وحصوله من غير إفادة تعلقه بفاعل أو مفعول أو نحوهما ، فأنت في غنى عن ذكر الفاعل والمفعول . أما إذا أردت أن تقييد وقوع الفعل من فاعل فمليك أن تذكر ذلك الفاعل فتقول مثلا : ضرب محمد ، جاء زيد ، نجح خالد . . . وإذا أردت أن تقيده أي : الفعل بمفعول ونحوه ، قلت : ضرب محمد اللص . . . جاء زيد من البيت . . . نجح عمرو في الاختبار . . . اندفع خالد اندفاعا وهكذا . . . يقول عبد القاهر : وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل ، وكما أنك إذا قلت : ضرب زيد فأسمعت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلا له ، لا أن تنفي وجود الضرب في نفسه وعلى الإطلاق ، كذلك إذا عدت الفعل إلى المفعول فقلت : ضرب زيد عمرا ، كان غرضك أن تنفي التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه . . . ألا ترى أنك إذا قلت : هو يطمئ الدنانير ، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير قد دخل في عطائه أو أنه يطمئ خصوصا دون غيرها ، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء في نفسه ، ولم يكن كلامك مع من نفي أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه ، بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فأعرف ذلك فإنه أصل كبير عظيم النفع . . . (١) . وذكر الخطيب أن تقييد

الفعل بمفعول ونحوه إنما يكون لتربية الفائدة أى تكثيرها ، تقول : ضربت
فتفيد نسبة الضرب إليك ووقوعه منك ، وتقول : ضربت زيدا فتفيد وقوع
الضرب منك على زيد ، وتقول : ضربت زيدا ضربا شديدا ، ضربت زيدا
ضربا شديدا يوم الجمعة أمام الناس ، فكلما زدت قيدا ازدادت الفائدة ،
وأنت لا تزيد هذه القيود هكذا عما ، وإنما المقام هو الذى يملى عليك تلك
الزيادة وبقتضيتها ، فأنت إذا أردت أن تخبر عن رقيبك لزيد تقول : رأيت
زيدا ، فإذا أردت أن تؤكد تلك الرؤية قلت : رأيته بعينى ، فزيادة الجار
والجور أفادت تأكيد الرؤية التى اقترنتها بالمقام . . وتأمل قوله تعالى :
(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ
بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)^(١) ، تجد أن القول
لا يمكن إلا بالفم والقلب لا يكون إلا فى الجوف ، ولما كان المقام مقام
إنكار وزجر لمن يظاهر زوجه ، قائلا لها : أنت على كظهر أمى ، ولما
يجعلون الدعى ابناً ويسوون بينه وبين الابن ، فقد ذكر هذين القيدين :
« فى جوفه » ، « بأفواهكم » ، تأكيداً للإنكار ومبالغة فى الردع والزجر . ثم
ال نظر إلى هذا القيد « لرجل » ، وتأمل فرق ما بين « ما جعل الله لرجل من قلبين
فى جوفه » ، وبين : « ما جعل الله من قلبين فى جوف » ، فسترأه دقيقا لطيفا ،
لأن ذكر هذا القيد « لرجل » ، وتقييد الجمل به أبلغ فى الإنكار وآكد فى الردع
والزجر ، إذ المرأة قد ينصو وجود قلبين فى جوفها ، قلبها وقلب جنينها
عندما تكون حاملا ، أما الرجل فلا يتصور وجود قلبين فى جوفه بحال من
الأحوال ، ولذا كان تقييد الجمل به أشد فى الإنكار وأزوى فى الزجر
واردع . . وكذا القول فى قوله تعالى : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ حِلْمٌ)^(٢) قد ذكر هذين القيدين : « باللسنتكم » ،

• بأفواهكم ، قد أكد الإنكار والزجر ، إذ الآية في سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا في حادثة الإفك ، والتأني لا يكون إلا بالأسنة ، والقول لا يكون إلا بالأفواه ، فذكر هذين القيدين فيه ، يزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذي اقتضاه المقام . . وقرأ في سورة الكهف قوله تعالى : (أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّا نَسْتَعِيجُ مَعِيَ صَبْرًا)^(١) ، نجد أن زيادة الجار والمجرور ذلك ، فيه مزيد من تأكيد اللوم وتقريره ، وقد اقتضى المقام ذلك ، إذ موسى عليه السلام قد اتبع العبد الصالح والخضر ، ليعلم منه ، وقال له الخضر : (إِنَّا نَرَاكَ تَوَلَّى الْفُلَاةَ فَآلَا تَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَكَ لَئِنْ أَفْتَدَيْتَ لَأَكْفُرَنَّ بِكَ)^(٢) ، ولكن موسى أنكر خرق السفينة (أَخْرَجْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) فذكره الخضر : (أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّا نَسْتَعِيجُ مَعِيَ صَبْرًا) واعتذر موسى ثم انطلقا ، فلما قتل الغلام أنكر موسى مرة ثانية : (أَفَقُلْتُ أَنفَسَازِكِيَّةَ يَنْزِفُ أَنْفَسًا) ؟ فذكره : (أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّا نَسْتَعِيجُ مَعِيَ صَبْرًا) ، تلاحظ أن القيد ذلك ، فيه إبراز وإيضاح وتأكيد للوم الذي اقتضاه المقام ، لأن موسى قد وعد العبد الصالح - عليه السلام - ألا يسأله عن شيء يحدث ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فأنكر خرق السفينة ، ولومه العبد الصالح على عدم صبره ، ثم أنكر قتل الغلام ، فأكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور ذلك ، . . وبهذا يتضح - كما قلت - أن تلك القيود لا نزاد عنها ، بل لداع يقتضيه المقام ، وينبغي على الدارس أن يكون بصيرا بتلك المقامات وأن يقف على معاني تلك القيود وما يمكن ورامها من دقائق ، وما يكون ورام استعمالها وتقييد الفعل بها من لطائف وأسرار . . انظر إلى قوله تعالى : (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُذِلَ لَهَا تَوَلَّى وَهُمْ يَضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ أَعْيُنَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصَمًا)^(٣) ، وقوله تعالى : (وَهَارَ كُنَّا عَلَيْهِمْ وَهَلَى

(٢) سورة الكهف آية ٧٠

(١) سورة الكهف آية ٧٥

(٣) سورة الإسراء آية ٩٧

إِسْحَاقَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ^(١) وتأمل القيد
 عليه وعلى إسحاق ، وما يفيد من استعلاء البركة وإحاطتها بهما ، ثم فارن
 بينه وبين القيد في الآية الأولى ، على وجوههم ، ، وتبين كيف أرز ذلك
 القيد أولئك الكفرة وقد علوا وجوههم ، إن الحرف د على ، يفيد الاستعلاء
 ولكنه استعلاء تعظيم في آية الصافات . واستعلاء خزي وإلها في آية الإسراء
 وتأمل فرق ما بين اللام وعلى في الآيات الكريمة : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
 مَا اكْتَسَبَتْ)^(٢) ، (إِنْ الَّذِينَ سَبَقَتْ أَنَّهُمْ دِينًا الْخُسَى .)^(٣) ، (وَقَدْ
 سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)^(٤) ، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
 التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَمَّا لَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
 عَلَيْهِ الْقَوْلُ)^(٥) ، تجد أن اللام ، قد ذكرت عند سبق النفع و د على ،
 قد ذكرت عند سبق الضر ، وذلك لأنك تلاحظ في اللام معنى التملك والارتفاع
 وتأمل في د على ، معنى القهر والاستعلاء ، ولذا يقول القائل :
 على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا

وتأمل فرق ما بين « على » و « في » في الآيات الكريمة : (أُولَئِكَ عَلَى
 هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ)^(٦) ، (وَإِنَّا أَوْ إِبَاءُكُمْ لَعَلَى هُدًى
 أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(٧) ، (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا
 لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا)^(٨) ، تجد أن د على ، تحمل معنى العزة والارتفاع ،
 ود في ، تحمل معنى الذل والانحطاط ، وكان المؤمن مستعمل على جود بركضه
 حيث شاء ، والكافر منغمس في ظلام مرتبك فيه ، لا يرى أين يتوجه . .

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| (٣) سورة البقرة ٢٨٦ | (٥) سورة الصافات الآية ١١٣ |
| (٤) سورة الصافات الآية ١٧١ | (٣) سورة الأنبياء الآية ١٠١ |
| (٦) سورة البقرة الآية ٥ | (٥) سورة هود الآية ٤٠ |
| (٨) سورة السجدة الآية ١٠١ | (٧) سورة سبأ الآية ٢٤ |

وقد نجد في د في ، معنى العزة والرفعة وذلك عندما يكون الانغماس في التعميم والخرفات والمقام الامين . . (إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ أَهْمُ جَزَاءِ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) ^(١) . . (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(٢) ، ففرق بين انغماس في جنات وعيون ومقام أمين وغرفات ورحمة . وبين انغماس في ضلال أو غطاء عن ذكر الله أو عذاب مهين ، تأمل : (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْصَرَتْ وُجُوهُهُمْ فِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ^(٣) . . (وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) ^(٤) . . . إلى غير ذلك من المعاني الدقيقة التي تراعا كامنه وراء استخدام حروف الجر في القرآن الكريم والتراكيب الجيدة . . . فالمقام لا يتسع هنا لكي نفصل القول في تلك المعاني ، ولذا سنخصصها - إن شاء الله تعالى - بدراسة مستقلة ، تجليها وتبرز ما وراءها من دقائق وأسرار . . وشأن الجار والمجرور شأن سائر المتعلقات ، فهي لا تذكر إلا إذا اقتضاهما المقام ودعا إليها داع . . انظر إلى ذكر المفعول المطلق وإفادته للتأكيد في قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْآيَاتُ الْمُنِيرَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُقُوبًا كَبِيرًا) ^(٥) ، وقوله عز وجل : (فَقُلْنَا أَذْهَبَ إِلَى الْفُجُورِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَّرْنَاهُمْ تَذْمِيرًا) ^(٦) ، وقوله جل وعلا : (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا . وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لُؤْلُؤًا مِثَالًا وَكُلًّا نَبِّزْنَا تَنْبِيْرًا) ^(٧) فتعبد الفعل بالمفعول المطلق في الآيات الكريمة : عتوا عتوا . . دمرناهم تدميرا . تبرأ تبيرا ، قد أدى إلى المبالغة وتوكيد وقوع هذه الأفعال ، والمقام

(٢) سورة الدخان الآية ٥١ ٥٢

(١) سورة سبأ آية ٣٧

(٤) سورة سبأ آية ٣٨

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٧

(٦) سورة الفرقان الآية ٣٦

(٥) سورة الفرقان الآية ٢١

(٧) سورة الفرقان آية ٣٨ ، ٣٩

قد اقتضى ذلك ، فهو لا يرجون لقاء الله ويطلبون إنزال الملائكة عليهم
ويطلبون رؤية ربهم ، وهذا عتو ما بعده عتو .. وأولئك قد كذبوا واستكبروا
منهم من قال : (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) ^(١) ، ومنهم من قال : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً) ^(٢) ومنهم من عقر الناقة وغتا عن أمرربه ، فاستحقوا لهذا أن يضاعف
لهم العذاب وأن يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر ، استحقوا أن يدمروا تدميرا
وأن يتبرأوا تبرأ ، فالمصدر قد أبرز قوة العقاب وكشف عن شدة الإهلاك
وتأمل ذكر الحال في قوله تعالى : (فَتَبَسَّ بِمُضْأَحِكَاءٍ مِنْ قَوْلِهَا) ^(٣) وكيف أبرزت
الفعل وبينت كيفية وقوعه من سليمان - عليه السلام - فهو تبسم واضح قد قوى
حتى وصل إلى حد الشروع في الضحك ^(٤) وانظر إلى الحال في قوله تعالى :
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ^(٥) وكيف أفصحت عن
مهمة النبي - صلى الله عليه وسلم - وبينت الهدف والغاية من إرسال الرسل ..
وتأمل ذكر الحال في قول الشاعر :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا
فمنأناك انخفاض وارتفاع

وكيف أبرزت ما يقصده الشاعر وبينت المراد من الدنو والعلو ، ثم انظر
كيف يكون المعنى لو لم تذكر هذه الحال فقول : دنوت وعلوت فمناك
انخفاض وارتفاع ، إن المعنى يكون ملبسا ومشكلا .. وبهذا يتبين لك أن تلك
القيود لا تذكر إلا للمعنى يقتضيه المقام ويدعو إليه الداع ..

(٢) - سورة فصات آية ١٥ :

(٤) انظر السكشاف ١٤٢/٣

(١) سورة البازعات آية ٢٤

(٣) سورة النمل آية ١٩

(٥) - سورة الاحزاب آية ٤٥

حذف المفعول : أبرز عبد القاهر الجرجاني في كتابه : « دلائل الإعجاز » ، مما يمكن وراء حذف المفعول به من دقائق ولطائف ، وعندما ترجع إلى كتابه المذكور يتبين لك أن كل من جاء بعده من البلاغيين قد استمدوا وأفادوا من حديثه عن المفعول وتجليته لما يمكن وراء حذفه من مزايا وأسرار بلاغية . وإليك بيان ذلك ، وتفصيل القول في مزايا حذف المفعول وأسراره . .

الفعل إما أن يكون لازما وإما أن يكون متعديا ، فالفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول نحو فرح محمد وسعد على وبكى عمرو وشقى الكافر . . ولذا لا بدخل معنا في حذف المفعول ، إذ لا مفعول له أصلا ، إلا إذا عدته بالهزة أو بالتضعيف نحو : أسعدت عليا وبكيت عمرا وأشقيت فلانا ، فعندئذ يصير الفعل متعديا ويجرى عليه مايجرى على المتعدى من أحكام . .

والفعل المتعدى له مفعول يقع عليه ، ولا يحذف ذلك المفعول ويرد الفعل بدونه إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيها المقام . . منها : أن يكون الغرض من التركيب إثبات المعنى الذى اشتق منه الفعل لفاعله أو نفيه عنه ، من غير نظر إلى تعلقه بمفعول معين وعندئذ يكون الفعل المتعدى كاللازم في أنك لا ترى له مفعولا لانظما ولا تقديرا . . تقول : فلان بخل وبعقد ويعطى ويمنع ويأمر وينهى ويضر وينفع وتقول : محمد يعطى ويحزل ويضيف ويقرى ، فالمراد من ذلك إثبات المعانى التى اشتقت منها الأفعال لفاعليها دون نظر إلى تعلقها بمفعول ونحوه ، وكأنك تريد : صار فلان بحيث يكون منه الحل والعقد والإعطاء والمنسع ، والأمر والنهى والضر والنفع والإعطاء والإجزال والإفراء والضيافة - صار أهلا لذلك - ولو أثبت المفعول فقلت مثلا : يعطى الذهب أو الدراهم اضاع هذا الغرض ، إذ ينصرف الذهن إلى نوع المعطى لا إلى جنس الإعطاء ، ولذا فإنك عندما تريد بطل المفعول هذا الغرض ، وهو إثبات المعنى فى نفسه للفاعل ، فإنك لا تنظر إلى المفعول المطوى ، ولا تلتفت إليه ، ولا تخطر بهالك ، ولا تقدره إذ المقدر كالمذكور . . وبما ورد

من ذلك في النظم المكرم قوله تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَزْمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَزْمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ)^(١) - فلفظي والله أعلم .
هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم . .
وقوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . .
وَأَنَّهُ هُوَ أَعْتَى وَأُفْتِنَى)^(٢) ، فالمراد : هو الذي منه الإضحاك والإبكاء
والإحياء والإماتة والإغناء والإفناء دون قصد إلى مفعول يقع عليه الفعل .
وقوله تعالى : (رَبَّنَا الَّذِي يَخْيِي وَيُحْيِي)^(٣) ، أى يكون منه الإحياء
والإماتة دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات . . . وقوله عز وجل .
(ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)^(٤) ، فالمفعول
المطوى في « يبصرون » من قبل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إليه ولا يخطر
بالبال ولا يقدر ، إذ المراد وتركهم في ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار منهم . .
وقوله تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٥) ، أى وأنتم
يقع منكم العلم وتتصفون به . . وقوله تعالى : (وَنُقَلِّبُ أَهْلَ بَصَرِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ
كَمَا آمَنَ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(٦) ، أى :
ونتركهم في ضلالهم يترددون سائرين متصفين بالعمه . . . وهكذا كل موضع
كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلا للشيء . وأن يخبر بأن من شأنه أن
يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه فإن الفعل لا يعدى هناك ؛ لأن
تعمدته تنقض الغرض وتخبر المعنى ،^(٧) . .

فمثال الإخبار بأن الفاعل من شأنه أن يكون منه الفعل قولك : هو يعطى ،

-
- | | |
|---------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة الزمر الآية ٩ . | (٢) سورة النجم الآية ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ . |
| (٣) سورة البقرة الآية ٢٥٨ | (٤) سورة البقرة الآية ١٧ . |
| (٥) سورة البقرة الآية ٢٢ | (٦) سورة الأنعام الآية ١١٠ . |
| (٧) دلائل الإعجاز ص ١٧٧ . | |

إذا أريد التوكيد وتقوية الحكم لا القصر ، وقولك يعطى محمد ويكرم خالد .. ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون إلا من الفاعل قولك : هو يعطى .. هو يحل ، إذا أردت بتقديم المسند إليه القصر .. ومثال الإخبار بأن الفاعل لا يكون من الفاعل قولك : هو لا يعطى .. فلان لا يحل ولا يعقد ..

وتأمل قوله تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ : مَا خَطْبُكُمْ ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى امُحَمَّدُ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)^(١) ، نجد أن المفعول قد طوى في أربعة مواضع ، إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء ، وقالتا لا نسقي غنمنا فسقى لها غنمهما ... ولكن هذا التقدير غير مراد فالمفعول لا يلتفت إليه في الآيات ولا يخطر بالبال ولا ينوى ؛ لأن إرادته وتقديره يؤديان إلى خلاف المراد .. يقول عبد القاهر : لا يخفى عل ذى بصر أنه ليس في ذلك كلام إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقا ، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من مواشي علمه السلام من بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى أغصا أم إبل أم غير ذلك فنخرج عن الغرض وموهم خلافه وذلك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينسكرا الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم ، حتى لو كان مكان الغنم الإبل لم ينسكرا الذود ، كما أنك إذا قلت : مالك تمنع أخاك ؟ كنت منكرا المنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ ..^(٢) .

وقد يكون الغرض من طوى المفعول والسكوت عنه هو إثبات المعنى في

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٢ .

(١) سورة القصص الآية ٢٣ .

نفسه للفاعل دون قصد إلى مفعول معين إلا أن هذا الإثبات المطلق يستلزم
إثباتاً مقيداً .. انظر إلى قول الباحثي يمدح الخليفة المعز ، ويعرض
بالمستعين :

شجو حساده وغيظ أعداه أن يرى مبهر ويسمع واع

فالمعنى : إن ما يؤلم حساده ويغيظ أعداه أن يوجد في الدنيا من يرى
ويسمع ، أن يرى مبهر ويسمع واع ، ؛ لأنه إذا وجد من يرى ويسمع ،
فسوف يرى قطعا مآثره وأجاده وسوف يسمع لا محالة عن محاسنه
وسيرته ، فقد اشتهرت محاسنه وذاعت مآثره بحيث لا تخفى على من يسمع
ويرى ، لأنها ملأت الآفاق وحلت بكل موضع ، والذي يحزن حساده ويغيظ
أعداه - يعرض بالمستعين - أن يوجد من يرى ومن يسمع ؛ لأن وجوده يستلزم
أن يسمع أخبار المعز وأن يرى فضائله ومحاسنه .. ولذا يذكر الخطيب أن
الفعل مطلقاً قد جعل كناية عن الفعل مقيداً بمفعول مخصوص ، إذ بين مجرد
الرؤية والسماع وبين رؤية المحاسن وسماع الأخبار تلازم وارتباط^(١) . .
ومن جيد ذلك قول عمر بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

يصنف قومه بالجهن والفرار وأنهم لم يباوا في الحرب بلاء ، ولم يصنعوا
شيئاً يستحقون به الحمد والثناء فذا كان منهم قد حبس لسانه وقطعه عن النطق
مشيداً بهم ، ولو كان منهم جهاد وبلاء حسن لنطق وأشاد به ، هذا هو المعنى ،
وتجده الشاعر قد سكنت عن المفعول وطواه في قوله : « ولكن الرماح أجرت » ؛
لأن غرضه أن يثبت أنه كان من الرماح لإجرا وحبس اللسان عن النطق
ولو قال : « أجرتني » لجاز أن يتوهم أنها أجرت لسانه هو دون السنة غيره ،
وأن الرماح قد صنعت شيئاً لو أبصره غير عمر ولاشاد به ونطق ، فلما كان
في تعديه « أجرت » ما يؤهم ذلك وقف فلم يعد البتة ولم ينطق بالمفعول

(١) انظر الإيضاح ٢١٦/١ .

لتخلص العناية لإثبات الإجراء للرمح ويصحح أنه كان منها ، وتسلم بكليتها لذلك (١) .

ويرى الخليل أن غرض الشاعر أن يثبت أنه كان من الرماح لإجراء وحسب الأصل عن النطق بمدحهم والافتخار بهم حتى يلزم بطريق الكناية مطلوبه وهو أنها أجرت لسانه هو ، وإثبات الإجراء للرمح مطلقاً يستلزم إثباته مقيداً (٢) . . . ولا يخفى عليك أن الاعتداد بالمعنى المكنى به أولى وأبلغ في تحقيق مراد الشاعر من الاعتداد بالمعنى المكنى عنه ، ولذا كان رأى عبد القاهر أدق وعباراته وتحليلاته لطى المفعول أولى بالقبول وما كان أغنى الخليل عن القول بالكناية وعن ذلك التحديد القائل للمعنى من الحذف ؛ إن ما ذكره مستمد من كلام عبد القاهر ، ومحاولة لإيجازه وتحديده وليكنه إيجاز نخل ، وتحديد قد قتل روح التذوق والاستمتاع . . . ونأمل طى المفعول في قول طفيل الغنوي مادحا بنى جعفر بن كلاب :
جزى الله عنا جعفرا حين أزلت

بنى نعلنا في الواطئين فزلت
أبر أن يملونا ولو أب أمنا تلاقى الذى لا قوه منا ملكت
هم خلطونا بالنفوس وألبأوا إلى حجرات أدفات وأظلت
فقد طوى المفعول في قوله : دملت وأدفات وأظلت ، إذ الأصل :
والمثلنا وأدفاتنا وأظلتنا ، ، وسبب هذا الطى هو القصد إلى إثبات الفعل
للفاعل دون نظر إلى مفعول معين ، وهذا ينبىء ويشير إلى أن تلك الأفعال
قد بلغت حد التناهي ، فالأم لو لاقت مالا قوه بنو جعفر منهم لكان شأنها
الملل . . . وتلك الحجرات حجرات عظيمة معدة إعدادا طيبا ومجهزة تجهيزاً
خاصا ، فشان مثلها أن يدفىء وأن يظل ، كما تقول : هذا يدنى يدنى ويظل ،
تريد أنه بهذه الصفة ولو ذكر المفعول لما تحقق هذا المعنى الذى قصد إليه
الشاعر . . . وقرأ تحليل عبد القاهر للسر البلاغى المكنى وراء حذف

(٢) انظر الإيضاح ٢١٨/١

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٧٩ .

المفعول في هذه الأبيات والبيت السابق : « واعلم أن لك في قوله : « أجرت ،
و دملت ، فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل
للفاعل وهي أن تقول : كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ،
ما يجر مثله وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع
نطقاً ، وتعدى لك الفعل تمنع من هذا المعنى ، لأنك إذا قلت : « واسكن الرماح
أجزتى ، لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية
مستمرة في كل شاعر قوم ، بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين
فلا يجر شاعرهم ، ونظيره أنك تقول : « قد كان منك ما يؤلم ، تريد
ما الشرط في مثله أن يؤلم كل أحد وكل إنسان ولو قلت ما يؤلمى ، لم يفد
ذلك ، لأنه قال : يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك ، وهكذا قوله : « ولو أن
أما تلاقى الذى لا قوه منا ملئت ، « يتضمن أن من حكم مثله في كل أم أن تمل
وتسام وأن المشقة في ذلك إلى حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتبهر به ،
مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد ، وذلك
أنه وإن قال دأماً ، فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها ،
ولو قلت : دأمتنا ، لم يحتمل ذلك ؛ لأنه يجرى جرى أن تقول : « لولقيت
أما ذلك لدخلها ما يملها منا ، وإذا قلت ما يملها منا فقيدت لم يصلح لأن يراد
به معنى العموم وأنه بحيث يمل كل أم من كل ابن ، وكذا قوله : « إلى حجرات
أدفات وأظلت ، لأن فيه معنى فذلك : حجرات من شأن مثلها أن تدفئ
وتظل ، أى : هى بالصفة التى إذا كان البيت عليها أدفاً وأظلت ، ولا يحى .
هذا المعنى مع إظهار المفعول ، إذ لا تقول : حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا
وتظللنا ، هذا لغو من الكلام ، فاعرف هذه النسبة فإنك تبدها في كثير من
هذا الفن مضمومة إلى المعنى الآخر الذى هو توفير العناية على إثبات الفعل ،
والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تعلم التباسه
بمفعوله ، (١) ، فإن هذا من قول الخطيب في بيان الغرض من الحذف في

لآيات : وفان الأصل : ملتنا وأدفأتنا وأظلتنا ، إلا أنه حذف المفعول من هذه المواضع ليدل على مطابقه بطريق الكتابة^(١) ، أما حذف المفعول من قوله : «والجأوا» إذ إن أصله : «والجأونا» فلا أرى له غرضاً سوى مجرد الإيجاز والاختصار لأن حكمه حكم ما عطف عليه وهو قوله : «دخلطونا بالنفوس» . . . وقد يقصد بحذف المفعول الإيضاح من الإيهام وهو غرض جليل لأن الشيء إذا أبهم تطلعت النفوس لإياه واشتاتت لمعرفته فإذا ما بين بعد ذلك وقع في النفس موقفاً حسناً ترك فيها أثراً طيباً . . . ويكثر هذا الحذف في مفعول المشيئة أو الإرادة الواقعة بعد لو ، ودان ، ونحوهما من أدوات الشرط ، كما نرى في قوله تعالى : (وَظَلَى اللَّهُ قَعْدُ السَّيْلِ وَيُنْهَى جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ أَهْدَاكُمْ أَتَجْمِينَ)^(٢) ، إذ المعنى : ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين ، لحذف مفعول شاء ، لدلالة جواب الشرط عليه ، وفي هذا الحذف إيهام يعقبه إيضاح وتبيين ، لأن المخاطب إذا سمع قوله تعالى : «ولو شاء» ، تطلعت نفسه بشيء قد أبهم وهو مفعول شاء ، وتطلعت إلى معرفته ، فإذا ما ذكر الجواب : «لهذاكم» استبان ذلك الشيء وعرف بعد أن كان قد أبهم ، ولذا كان أوقع في النفس وأبلغ وأشد تأثيراً ، وكذا القول في الآيات الكريمة : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَسْكُونُ مِنْ الْجَاهِلِينَ)^(٣) . . . (فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٤) . . . (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . إِنْ شَاءَ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ)^(٥) . . . (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى)^(٦) ، فقد حذف مفعول المشيئة في

(٢) سورة الانحل الآية ٩

(١) انظر الإيضاح ٢١٨/١

(٣) سورة الشورى الآية ٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٥

(٦) سورة الحجدة الآية ١٣

(٥) سورة الشورى الآية ٣٢ ، ٣٣

الآيات الكريمة وتقديره : لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم . . فإن
يشأ الله الختم على قلبك يختم . . إن يشأ الله يسكن الريح أسكنها . . لو شئنا
لأتيان كل نفس هداها لا تينا . . ولا يخفى عليك ما في حذف المفعول ثم دلالة
الجواب عليه ، من الإيضاح بعد الإبهام ، وهذا بما يجعل المعنى يقر في النفس
ويثبت ويقع منها موقعا حسنا . . . ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى من القدر محصدا (١)

يتحدث عن ناقته فيقول : إن شئت الإرتقال أرقلت وإن شئت عدم
الإرتقال لم ترقل ، فملوى مفعول المشيئة في الموضعين كما ترى ، وفي طيه إبهام
أزاله وإينه جواب الشرط . . . ومثله قول البحتري :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرمأ ولم تهدم مأثر خالد (٢)

يصف مدوحه بأنه قد بلغ الغاية في الكرم والمجد حتى فاق شهرة حاتم
وخالد فيهما ، والأصل : لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم وعدم هدم مأثر
خالد لم تفسد ولم تهدم ، فأبهم بحذف المفعول ثم بين بجواب الشرط . . .
يقول عبيد القاهر : د الأصل لا محالة لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ،
ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ، ثم هو على ما تراه
وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم
البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت
فيه إلى ما هو أصله فقالت : لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت
إلى كلام غث وإلى شيء يمجج السمع وتعافه النفس ، وذلك أن في البيان إذا

(١) لم ترقل : لم تسرع . والملوى : السوط المفعول المحكم وكذلك المحصد . والقدر :

الجلد المشقوق

(٢) حاتم هو حاتم الطائي وخالد هو خالد بن إصبع النبهاني الذي نزل عليه

أمرؤ القيس .

ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفاً ونبلاً ، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحركه . وأنت إذا قلت : لو شئت ، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يوضح في نفسه أن ههنا شيئاً تقتضى مشيئته له أن يكون أو ألا يكون ، فإذا قلت : لم تفسد سماحه حاتم ، عرف ذلك الشيء . . . (١) .

ثم اقرأ قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَأَمْلَأْنَا مِن لِّهِ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (٢) ، أى : لو نشاء أن نقول مثل هذا لقلناه . . . وقوله عز وجل : (مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْزِلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٣) ، أى : من يشاء لضلاله يضله ومن يشاء أن يجعله على صراط مستقيم يجعله . . . فلن يخفى عليك ما في حذف المفعول من دقة وجمال مردهما إلى ما يتركه الإيضاح بعد الإبهام في النفس من وقع طيب وأثر حسن . . .

هذا إذا لم يكن في تعلق فعل المشيئة أو الإرادة بالمفعول به غرابة ، وذلك بأن يكون المفعول من الأمور العجيبة الغريبة أو من الأمور البعيدة التي نادراً ما تقع ، فإن كان الأمر كذلك وجب ذكر المفعول ليتقرر في نفس السامع ويأنس به . . . انظر إلى قول أبي الهندام الخزاعي في الرثاء :
قضى وطراً منك الحبيب المودع وحل الذي لا يستطيع فيدفع
ولو شئت أن أبكي دما لبكيتته عليه وإمكن ساحة الصبر أوسع

لما كان بكاء الدم من الأمور العجيبة الغريبة ، وكانت إرادة الإنسان لأن يبكي دماً أعجب وأغرب ، فقد ذكره الشاعر ليتقرر في نفس السامع ويأنس به ، لأنه عندئذ يكون قد ذكره مرتين مرة مفعولاً للمشيئة ومرة جواباً للشرط ، والشئ إذا كرر فإنه يتقرر في النفس وتأنس به وتسكرن .

(٢) سورة الانفال آية ٣١ .

(١) دلائل الإعجاز ١٨٣

(٣) سورة الانعام آية ٣٩

إليه خاصة وأن غرابة المفعول تقتضى هذا التقرير ... ويقول الإنسان مخبراً عن عزة نفسه ، مفتخراً بعلوم مكائمه : لو شئت أن أرد على الأمير لرددت ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم للقيته ، تراه قد ذكر مفعول المشيئة لذكره من الأمور المستبعدة التي تكبرها النفس ولا تقرها بسهولة ، فالأمر إذاً يحتاج إلى تقرير وتأكيده ، ولذا ذكر المفعول ، وكرر بذكره ثانية في الجواب . . . ومن ذلك قوله تعالى : (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَمْطَعَنِي بِمَا يَخْلُقُ دَا بَشَاءَ سُجَّانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)^(١) ، فانخذ الله ولداً من الأمور الغريبة العجيبة ، وقد أثر النظم الكريم التعبير عن ذلك بأسلوب الشرط دلو ، وهي حرف امتناع لامتناع - كما درست - ، ردتاً وزجراً لأولئك الذين قالوا انخذ الله ولداً ، فقد قالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فلما كان المفعول بهذه الغرابة وجب ذكره بعد الإرادة كما ترى . . . أما قول أبي الحسين علي بن أحمد الجوهري أحد شعراء الصاحب ابن عباد :

فلم يبق منى الشوق غير تفكيرى فلو شئت أن أبكى بكيت تفكيراً

فليس مفعول المشيئة فيه غريباً ، لأن المراد بالبكاء المذكور بعد شئت ، بكاء لدمع ، لا بكاء التفكير المذكور في الجواب ، فالشاعر لم يرد أن يقول : فلو شئت أن أبكى تفكيراً بكيت تفكيراً ، ولكنه أراد أن يقول : أفانى النحول فلم يبق منى وفي غير خواصر نحول حتى لو شئت بكاء فريت جفوني وعصرت عيني ليسيل منهما دمع لم أجده ولخرج بدل الدمع التفكير ، والبكاء الثانى لا يصلح أن يكون تفسيراً للبكاء الأول لو حذف ، ومراد الشاعر لا يتم إلا بذكر مفعول المشيئة ، وليس المعنى هنا فى هذا البيت كالمعنى فى بيت أبي الهندام ، لأن البكاء هناك فى الموضعين بكاء دم ، أما هنا فالأول بكاء دموع

والثاني بكاء تفكير . فلا يصلح الثاني دليلاً على الأول كما قلت ، ونفايره أن تقول : لو شئت أن تعطى درهما أعطيت درهمين ، فالثاني وهو جواب الشرط لا يصلح أن يكون تفسيراً للأول وهو مفعول « شئت » ، لأن الأول إعطاء درهم والثاني إعطاء درهمين . . . ولا نبعد إذا قلنا : إن الغرابة في بيت الجوهري ، في جواب الشرط « بكيت تفكيراً » ، وأنه لغرابة لا يدل على مفعول المشيئة لو حذف ، ولذا وجب ذكره حتى لا يضيع غرض الشاعر كما بينا .

وقد يقصد بحذف المفعول ثبوت العبارة لوقوع الفعل على صريح لفظ المفعول ، لإظهار السكال العناية بوقوعه عليه . . . انظر إلى قول الجاحظ :
يمدح الممنز :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً

يريد أن يقول : قد بحثنا لك عن شبيه في صفاتك العالية . فأجهدنا البحث وأضنا دون أن نعث على هذا الشبيه ، فأنت فرد في صفاتك لا نظير لك ولا مثيل . . . وتجد الشاعر قد حذف مفعول « طلب » ليتسنى له أن يوقع في الوجود على صريح لفظ المثال ؛ لأن في الوجود هو الأصل في الممدوح والغرض منه ، أما « طلب » فكأشياء يذكر ليبين عليه الغرض ويؤكد به أمره ولو قبل : قد طلبنا لك مثلاً في السؤدد والمجد والمكارم فلم نجد ، لوقع الفعل « طلب » على صريح لفظ المفعول ، والفعل المنفي الذي هو الغرض الأصلي للمديح « فلم نجد » ، على ضميره ، وفرق بين أن يقع الفعل على صريح اللفظ وأن يقع على ضميره ، من أجل هذا حذف الشاعر مفعول « طلب » ؛ لأن حذفه يمكنه من أن يوقع في الوجود على صريح لفظ المفعول .

ونرى آخر تراه وراء حذف المفعول في البيت وهو البيان والإيضاح بعد الإيهام ، لحذف مفعول « طلب » قد جعل السامع يشغل به ونسجت عنه ، فلما ذكر مع الفعل الثاني « فلم نجد » وقع في نفسه موقعا حسنا ؛ لأنه جاء والنفس متطلعة إليه ومشغلة به .

ومزية ثالثة تجدها وراء هذا الحذف وهي مراعاة الأدب في مقام المدح،
فالشاعر كان حذراً واطيفاً، إذ تخاف أن يواجه الممدوح بأنه يطلب له نظيراً
ويبحث عن مثيل له، بل أشار إلى ذلك إشارة خاطفة ولم يمد القول، وكأنه
يريد أن يطويه سريعاً ليصل إلى الغرض الأصلي من المدح وهو نفي
وجود المثل (١).

وتأمل قول ذي الرمة يمدح بلال بن أبي بردة وينفي عن نفسه
مدح اللثام :

ولم أمدح لأرضيه بشعري لئبما أن يكون أصاب مالا
ولكن الكرام لهم ثنائى فلا أجزي إلى ما قسما، قالوا

تجد أنه لما كان الغرض الأصلي أن ينفي عن نفسه مدح اللثام، وكان
الإرضاء تعليلاً له، فقد ذكر الشاعر المفعول في الموضعين وذلك ليقع نفي
المدح على صريح لفظ اللثيم، ويقع الإرضاء على ضميره، ولو أنه حذف
مفعول دأمدح، فقال: ولم أمدح لأرضى بشعري لئبما، لما تحقق غرضه،
ولتوهم متوهم أنه يريد أن ينفي عن نفسه إرضاء اللثيم، وأن هذا هو أصل
كلامه وغرضه منه، أما دأمدح، فيكون كالشيء يذكر تبعاً ليعني عليه الغرض،
كما في بيت البحتري السابق، وليس هذا مراد الشاعر، بل مراده - كما قلت - أن
ينفي عن نفسه مدح اللثام ليوقع في نفس المدوح أن ما يسمعه من شعر
لا يعرف إلا الكرام وأنه ليس موكل إلا بهم... فالمقام في بيت البحتري قد
اقتضى أن يحذف مفعول دأمدح، ليقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل،
واقتضى في بيت ذي الرمة أن يذكر مفعولاً دأمدح وأرضى، ليقع نفي
المدح على صريح لفظ اللثيم أيضاً.

وقد يقصد بحذف المفعول دفع توهم غير المراد ابتداءً، ووقوع المعنى

الذى يريد المتكلم في نفس مخاطبه من أول الأمر كما في قول البحتري يمدح
أبا الصقر الشيباني في قصيدته التي مطلعها :

أعن سفه يوم الأبيرق أم حلم وقوف بربع أو بكاء على رسم
قال مخاطبا أبا الصقر :

وكم ذدت عني من تحامل حادث
وسورة أيام حزن إلى العظم

يريد أن يقول إن الممدوح طالما دفع عنه عوادي الزمن ، ورد عنه
طغيان أيام ضربته فأوجعته . حتى بلغت في قسوتها الغاية ، فتوله : حزن
إلى العظم ، كناية عن بلوغها الغاية في الشدة . . . وتلاحظ أن الشاعر قد
حذف مفعول حزن ، وتقديره : حزن اللحم إلى العظم وهو يريد بهذا
الحذف أن يقع المعنى في نفس السامع ابتداء ، إذ لو ذكر المفعول فقال : حزن
للحم ، لتوهم أن الحزن كان ضعيفا وأنه أصاب بعض اللحم مما يلي الجلد ولم
يصل إلى العظم ، فادفعه عنه الممدوح لذا شيء يسير ، وليس سورة أيام
وأحدنا قد تعاملت عليه ، فإذا ما وصل السامع إلى قوله : إلى العظم ، اندفع
هذا التوهم وزال ، ولكن الشاعر الحاذق هو الذي يوقع المعنى في ذهن سامعه
من أول وهلة ولا يجعله يتصور في أول الأمر شيئا غير مراد ثم ينصرف إلى
المراد .

يقول عبد القاهر : الأصل لا محالة : حزن اللحم إلى العظم ، إلا
أن في بجمته به محذوف أو إسقاطه له من النطق وتركه في الضمير مزينة عجيبة وفائدة
جليلة ، وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعا
يمتعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئا غير المراد ثم ينصرف إلى المراد ،
ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال : وسورة أيام حزن اللحم إلى العظم ،
لجاز أن يقع في وهم السامع إلى أن يحى إلى قوله : إلى العظم ، أن هذا

الحز كان في بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع مايلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم ، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرىء السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم [أى : في أوله لأن أنف الشيء أوله] ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم . . . (١) .

وقد يحذف المفعول لإفادة التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر دون غيره . انظر إلى قوله تعالى : (وَأَلَّهِ بِدَعْوِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ) (٢) تجد أن المفعول قد حذف لإفادة العموم وأن الدعوة ليست مقصورة على أحد دون آخر بل تتعدى إلى كل من تتأتى دعواته فالمراد - والله أعلم - يدعوا كل أحد تصلح دعواته إلى الجنة . . . وتقول لصاحبك . قد كان منك ما يؤلم ، أى : ما الشأن في مثله أن يؤلم كل أحد ، لحذفك المفعول أفاد التعميم مبالغة في إيلام ما كان منه ، فهو من الشدة بحيث يؤلم كل أحد ولو ذكرت المفعول فقلت : قد كان منك ما يؤلمنى ، لفاتت تلك المبالغة المطلوبة . . . وتأمل قول الباحثرى :

إذا بعدت أبلت وإن قربت شفت

فمجرانها يبلى ولقيانها يشفى

تجده قد حذف المفعول في أربعة مواضع والتقدير : إذا بعدت عنى أبلتني وإن قربت منى شفتنى فمجرانها يبلى ولقيانها يشفى . . .

والحذف - كما ترى قد أفاد المبالغة وعموم الفعل ، وصور أن بعدها يبلى كل أحد فهو البلى والداء المضى ، وأن قربها ولقيانها هو الشفاء والبرء من

(١) دلائل الإعجاز ١٩١ .

(٢) سورة يونس الآية ٢٥

كل داء .. وقرأ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(١))

يقول الرخصي : وفي قوله تعالى : لا تقدموا ، من غير ذكر مفعول
وجهمان :

أحدهما : أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم .

والثاني : ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس
التقدمة ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم يسبيل
كقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) ^(٢) ، ويجوز أن يكون من قدم
بمعنى تقدم ^(٣) .

وقد يحذف المفعول حتى لا يقع عليه الفعل وذلك لازمة بلاغية وهدف
يقصد إليه المتكلم .. انظر إلى قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخِذُوكَ
إِلَّا هُزُؤًا أَمْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ^(٤)) فالأصل : أمذا الذي بعثه الله
رسولا ، لحذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ،
وهذا الحذف ينفي بحقد المشركين على النبي صلوات الله وسلامه عليه ،
ويصور مدى كراهيتهم له ، حتى كأنهم لا يعطون النطق بالبعث واقعا عليه ،
فهم يتحاشون مجرد النطق بالبعث منسوباً إليه ، فضلا عن الإيمان بذلك
وتصديقه ... وخذ قوله تعالى : (وَالصُّحَىٰ وَالْأَيْلُ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ
رَبُّكَ وَمَا قُلَىٰ) ^(٥) فقد حذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبي صلى الله
عليه وسلم ، والتقدير : وما فلاك ، وذلك لصونه عن نسبة القلى إليه ، وتحاشيا

(٢) سورة غافر آية ٦٨

(٤) سورة الفرقان آية ٤١

(١) سورة الحجرات آية ١

(٣) الكشاف ٣ / ٥٥٢ .

(٥) سورة الصافات آية ١٠

ليوقوع الفعل « قلى » على ضمير المخاطب ولو كان هذا الفعل منفيًا ، لأن في ذلك ما يوحش ، بخلاف « ودعك » فليس التوديع كالقلى ، وحذف المفعول في الآية له مزية أخرى وهى رعاية الفاصلة والمحافظة على التنخيم الصوتى لما له من قوة تأثير في النفوس وذلك عندما يقتضيه المقام ويتطلبه المعنى ، وهذا هو شأن الفواصل في النظم الكريم ، فهى تأتى تابعة للمعنى وبحققة لما يقتضيه المقام ، وعندما يتطلب المعنى ، ويقتضى المقام التخلى عن تتابع الفواصل نجد الفاصلة قد قطعت ، وما يقتضيه المعنى قد أقر وأثبت (١) .

واقروا قوله تعالى : (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى اَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ اَنْ لَهُمْ اُجْرًا حَسَنًا) (٢) ، فقد حذف مفعول لينذر ، والاصل : لينذر الذين كفروا باسًا شديدًا ، وذلك حتى لا يقع الإنذار على الذين كفروا فيسكون في هذا تنفير لهم من قبول الهدى والإيمان بالحق . . حذف المفعول فيه ترغيب لهم في قبول الهداية والإيمان ، واستمالة لهم نحو الحق والنور المبين . .

ومن ذلك قوله تعالى : (وَاَمَّا جَاءَ مُوسٰى بِآيٰتِنَا فَاَوْكَلَمُهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ اُرِيْنِىْ اَنْظَرْنِىْ اِلَيْكَ) (٣) فالمراد - والله أعلم - ارنى ذلك حذف المفعول حتى لا تقع عليه الرؤية ، إذ الذات العلية لا تقع عليها الرؤية المحيطة كما تقع على

(١) هذا وكثير من البلاغيين لا يرتضى أن تكون رعاية الفاصلة علة بلاغية لأنها - كما يقولون - علة لفظية والأسلوب القرآنى قد بنى على مراعاة المعانى لا الألفاظ وهذا ليس بشيء لأن الفواصل - كما قلت - تابعة للمعنى وخاضعة لما يقتضيه المقام . . . راجع فى ذلك التذكرة لارماتى ص ١١ وما بعدها وخصائص التراكيب ص ٢٨٧ وما بعدها .

الأشياء ، وإنما هي تجليات ، ولذا قال موسى - عليه السلام - « رب أذنني ، وأمسك ليفيد قصده دون أن تقع الرؤية على الذات الإلهية ؛ لأن هذا شيء لا يليق بالجلال ، ففي مثل هذه الأمور الهائلة وفي تلك المقامات الربانية ينبغي أن يكون الطلب تليحاً وإيماء ولا يليق أن يكون صريحاً مكشوفاً (١) .

وقد يحذف المفعول استهجاناً لذكره والتصريح به ، كما ترى في قول عائشة - رضى الله عنها - : « كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد فما رأيت منه ولا رأى مني » ، تريد رؤية العورة . . . وقد يحذف لجرد الاختصار والإيجاز حيث تدل عليه القرينة دلالة بينة جليلة فيعد ذكره عندئذ عبثاً ، كما تقول : أصغيت إليه ، تريد : أذني ، وأغضيت عنه ، تعني : بصري . . . ومنه قوله جل وعلا : (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (٢) فالدعاء في الآية بمعنى التسمية والأصل : قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن ، يحذف المفعول إيجازاً واختصاراً . . . وقد يحذف لتعينه كما في قولك : نحمد ونشكر ، تريد : نحمد الله ونشكره ، فتسكت عن ذكر لفظ الجلالة لتعينه وانصراف الفعلين له تعالى .

وقد يحذف لصون لسانك عن النطق به ، كما تقول : لعن الله وأخزى ، تريد : الشيطان ، فتحذفه صوناً لسانك عن النطق به . . . إلى غير ذلك من الأسرار الدقيقة التي تراها كأمينة وراء طي المفعول وإسقاطه والسكوت عنه ، فهي لا تخفى على صاحب الذوق السليم ، وذى الطبع العربي القويم ، عندما يقرأ وينظر في التراكيب الجيدة والأساليب الرفيعة .

(١) انظر خصائص التراكيب ص ٢٨٥ .

(٢) سورة الإسراء آية ١١٠

تقديم المفعول ونحوه عن المتعلقات على العامل : وتقديم المفعول ونحوه من المعمولات كالجار والمجرور والظرف والمصدر والحال على العامل يفيد غالبا الاختصاص ، أى : قصر العامل المؤخر على معموله المقدم ، تقول : زيد أكرمتم ، وبمحمد مررت ، وضاحكاجاء زيد ، وإشفاقا أعطيت ، الخ . فتفيد بذلك قصر الإكرام على زيد ، والمرور على كونه بمحمد ، ونصر بجى زيد على هيئة الضحك ، وإعطائك على كونه من أجل الإشفاق .. ومن ذلك قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)^(١) ، أى : نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين إلا بك ، فتقديم المفعول لإيالك ، فى الموضعين قد أفاد القصر أى : قصر العبادة والاستعانة عليه تعالى .. وكذا القول فى الآيات الكريمة : (وَلَكِنَّ مَنِئِمُّ أَوْ قَتَلْتُمْ لِّآلِ اللَّهِ تَحْشُرُونَ)^(٢) . . . (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)^(٣) . . . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)^(٤) ، فتقديم المعمولات : د إلى الله .. عليه .. إياه ، فى الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص .. ومن ذلك قول ش : فى :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل وإفلال

فتقديم الجار والمجرور ، بالعلم ، أفاد قصر بناء الملك على كونه بالعلم والمال .. ومثله قول الآخر :

إذا شئت يوما أن تسرد عشيرة فبه الحليم سد لا بالتسرع والشت

وقول الثالث :

على الأخلاق خطوا الملك رائدو فليس ورامدا للعين ركن

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٨ .

(١) سورة الفاتحة الآية ٥

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٢ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٣٩ .

فقد قصرت السيادة في البيت الأول على الحلم بحيث لا تتعداه إلى التسرع والشم . . . وقصر بناء الممالك وخطاها في البيت الثاني على الأخلاق فليس وراءها للمعز ركن . . . والعامل المقدر في ذلك كما المذكور ، فقولك : زيداً عرفته ، إن قدر المفسر بعد المنصوب أي : زيداً عرفت عرفته ، أفاد التحصيل ، وإن قدر قبله أي : عرفت زيداً عرفته ، أفاد التوكيد وتقوية الحكم ، أما قوله تعالى : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا النَّعْيَ عَلَى الْإِسْمِ)^(١) ، في قراءة من قرأ بنصب ثمود ، فلا يفيد إلا الاختصاص ، لأنه لا يتأتى أن يقدر المفسر قبل المنصوب ، فلا يقال : أما هدينا ثمود . . . وليكون تقديم المفعول على عامله يفيد غالباً الاختصاص ، كان من الخطأ أن تقول : ما زيداً ضربت ولا غيره ، لأن تقديم المفعول وإبلاؤه أدلة نفي أفاد : نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره ، فقولك بعده : دولا غيره ، يناقضه ويدفعه ، أي أن هجن الجملة يتناقض مع صدرها ، ويحويه قولك : ما بهذا أمرتك ولا غيره لأن قولك : ما بهذا أمرتك ، أفاد نفي الأمر عن الجار والمجرور المقدم وإثباته لغيره ، وقولك بعده : دولا غيره ، يناقضه ، والصواب أن يقال : ما ضربت زيداً ولا غيره ، ما أمرتك بهذا ولا غيره ، بدون تقديم ، أو يقال : ما زيداً ضربت بل عمراً . . ما بهذا أمرتك ليكن لغيره . . وكذا من الخطأ أن تقول : ما زيداً ضربت وليكن أكرمت . لأن تقديم المفعول أفاد نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره ، وقولك : دولا غيري ، رجوع عن إثبات الضرب لغير زيد ، فالصواب أن تقول : ما ضربت زيداً وليكن أكرمت أو تقول : ما زيداً ضربت وليكن عمراً ، فاعرف هذا فإنه دقيق ، وهو مبني كما قلت لك على إفادة التقديم للاختصاص . . وتأمل قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)^(٢) ، نجد أن الجار والمجرور قد أخرج على شبه الفعل في قوله : دشهداء على الناس . . وقدم عليه في قوله : دعليكم شهيذا ، وذلك لأن الغرض في الأول لإثبات

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(١) سورة نجات آية ١٧ .

شهادتهم على الأمم دون لفادة اختصاصهم بتلك الشواهد ، وفي الثاني المراد لفادة اختصاصهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيدا عليهم ، وليس مجرد إثبات شهادته ..

يقول الزمخشري : « روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبيينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فيشهدون ، فتقول الأمم من أين عرفتم ؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بمعادتهم ، وذلك قوله تعالى : (فَكَفَيْكَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)^(١) . . . وقيل لتكفونوا شهداء على الناس في الدنيا ، فيما لا يصلح إلا بشهادة العدول الأخيار ويكون الرسول عليكم شهيدا ينزكيهم ويعلم بعدلتكم ، فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت آخرها ؟ قلت : لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم . وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - شهيدا عليهم ،^(٢) .

ثم اقرأ قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)^(٣) ، وقوله عز وجل : (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ)^(٤) ، تجد أن الجار والمجرور قد أخر في الآية الأولى . لأنه لا معنى للدلالة على الاختصاص فيها ، إذ كون الإعادة أهون من البدء أمر مسلم به لا يذكره أحد . . . أما في الآية الثانية فقد قدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص ؛ لأن المقام يقتضى ذلك . . . يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله : « وهو أهون عليه » ، وقدمت في قوله : « هو على هين » ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقبل : هو على هين وإن كان مستصعباً

(٢) - الكشف ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٤) - سورة مريم آية ٩ ، ٢١ .

(١) - سورة النباء آية ٤١ .

(٣) - سورة الروم آية ٢٧ .

عندكم أن يولد بين هرم وعافر ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبني على ما يعلقون من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى . . . (١) .

وقد يفيد التقديم بالإضافة إلى الاختصاص مزية أخرى وهي المحافظة على الفواصل والاستمرار في التفعيم الصوتي ، على نحو ما ترى في قوله تعالى : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْوُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) (٢) ، فتقديم المفعول : «الجهيم» والجار والمجرور : «في سلسة» يفيد الاختصاص والمحافظة على الفاصلة واستمرار النغم الصوتي المؤثر في الأتقاس ، ومثله قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (٣) . . . وقد يقدم المفعول لكونه محل الإنكار ، كما في قوله تعالى : (قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) (٤) ، فمحل الإنكار هو كون غير الله بمثابة أن يبغي ربا ولذا قدم فولي همزة الاستفهام .

ومن ذلك قول الشاعر :

أبعد المشيب المنقضى في الذوائب

تحاول وصل الغانيات السكواعب ؟

فموضع الإنكار هو كون محاولة الوصل بعد ظهور المشيب في الذوائب ولذا قدم الظرف «بعد» فولي الهمزة .

وقد يكون التقديم للتوكيد والاهتمام بالمقدم وتقوية الحكم كما في قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) (٥)

(٢) سورة الحاقة آية ٣٠ ، ٣٢ .

(١) السكشاف ٣/٢٢٠

(٤) سورة الأنعام آية ١٦٤

(٣) سورة المدثر آية ١ ، ٧

(٥) سورة النجم آية ٩ ، ١٠ .

هو المطلوب دون رزقهم ، لأنه حاصل ، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد بـ رزقهم . . . وانظر إلى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)^(١) فقد قالوا : إن مفعولي « جعل » قوله « لله شركاء » وقال آخرون : « الجن » مفعول أول « وجعلوا » شركاء ، مفعول ثان ، وعلى كلا الرأيين فقد قدم « لله » المفعول الثاني . لحمل ، أو متعلق المفعول الثاني - على الرأي الآخر - قدم على المفعول الأول ، وذلك لأن تقديمه أبلغ في الإنكار . وأقوى في الردع والزجر . وتأمل : « وجعلوا لله شركاء الجن » . وجعلوا الجن شركاء لله . فسوف ترى بعد ما بين القولين ، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور . لله . ولذا قدم إليه كون الزجر أقوى والتعذير أشد . . . وقرأ قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُونا أَلَمَّا نَخْرُجُونَ . لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُونا مِنْ قَبْلُ)^(٢) ، وقوله عز وجل : (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَلَمَّا نَخْرُجُونَ . لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاءُونا هَذَا مِنْ قَبْلُ)^(٣) نجد في الآية الأولى : « وعدنا هذا نحن وآباؤنا » وفي الثانية : « وعدنا نحن وآباؤنا هذا » ، وذلك لأن السياق في الآية الأولى يضيء بأن مصعب الإنكار وموضعه والجزم ، التي نظر إليها الكفرة وقصدوها بانكارهم إنما هي البعث ، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيرورتهم تراباً هم وآباؤهم هو الغرض الذي نعهد بالكلام وقصد : « إذا كنا تراباً وآباؤنا أَلَمَّا نَخْرُجُونَ » ؟ ولذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث ، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام . . . أما في الآية الثانية ، فالسياق يضيء ، يهدي فهمهم مفائد الآباء وحرصهم على عجاكاتها وتقليدهم فيها ، فوضع الإنكار ومصعبه ، والجبهة المنظور منها هي المبعوثون لا البعث . فهم سياق الحديث والغرض الذي تعمد

(٢) سورة النمل آية ٦٧ ، ٦٨

(١) سورة الانعام آية - ١

(٣) سورة المؤمنون آية ٨١ - ٨٣

هو المطلوب دون رزقهم ، لأنه حاصل ، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد — برزقهم . . . وانظر إلى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)^(١) فقد قالوا : إن مفعولي « جعل » قوله « لله شركاء » ، وقال آخرون : « الجن » مفعول أول « وشركاء » مفعول ثان ، وعلى كلا الرأيين فقد قدم « لله » المفعول الثاني . لحمل « أو متعلق المفعول الثاني » على الرأي الآخر . قدم على المفعول الأول ، وذلك لأن تقديمه أبلغ في الإنكار . وأقوى في الردع والزجر . وتأمل : « وجعلوا لله شركاء الجن » . وجعلوا الجن شركاء لله . فسوف ترى بعد ما بين القوانين ، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور ، لله . ولذا قدم أي يكون الزجر أقوى والتحذير أشد . . . وقرأ قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَمْنًا لَمْ نُخْرَجُونَ . أَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ)^(٢) ، وقوله عز وجل : (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلُ نَاقِرِينَ . أَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ)^(٣) نجد في الآية الأولى : « وعدنا هذا نحن وآباؤنا » وفي الثانية : « وعدنا نحن وآباؤنا هذا » ، وذلك لأن السياق في الآية الأولى ينفي بأن مصب الإنكار وموضعه وأجمله التي نظر إليها الكفرة وقصدوها بإنكارهم إنما هي البعث ، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيرورتهم تراباً هم وآباؤهم هو الغرض الذي تعمد به الكلام وقصد : « إذا كنا تراباً وآباؤنا لَمْ نُخْرَجُونَ » ، وإذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث ، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام . . . أما في الآية الثانية ، فالسياق ينفي بعدى تمسكهم بمفاد الآباء وحرصهم على محاكاتها وتقليد ما فيها ، فموضع الإنكار وموضعه ، وأجمله المنظور منها هي المبعوثون لا البعث . فهم سياق الحديث والغرض الذي تعمد

(٢) - سورة النمل آية ٦٧ ، ٦٨

(١) - سورة الانعام آية ١٠

(٣) - سورة المؤمنون آية ٨١ - ٨٣

به وقصد : د بل قالوا مثل ما قال الاولون . قالوا ا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما
ألنا لمبعوثون ، ولذا قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث ..
د وعدنا نحن وآباؤنا هذا ، ... فلما كان الغرض المقصود في الآية الأولى
هو البعث قدم اسم الإشارة ولما كان الغرض المقصود في الآية الثانية هم
المبعوثون قدم ما يدل عليهم د نحن وآباؤنا ، (١) .

وقد يكون الغرض من تقديم أحد المفعولات على الآخر هو أن تأخيره
يخل بالمعنى ويوهم خلاف المراد ، كما في قوله تعالى : (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ
مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) (٢)
فقد وصف الرجل بثلاث صفات : الإيمان ، وكونه من آل فرعون ، وكنيانه
إيمانه ، وقدم د من آل فرعون ، على د يكتم إيمانه ؛ لأنه لو أخر فقيل : وقال
رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، لتوهم أنه متعلق بالفعل د يكتم ، وأن
الرجل يكتم إيمانه خوفاً من آل فرعون ، وفي هذا إخلال بالمعنى المراد ، إذ لا يفهم
منه عندئذ أن الرجل كان من آل فرعون ، بل يتوهم أنه كان يكتم إيمانه خوفاً
منهم ، وفي هذا إخلال - كما قلت - وضما ع للهدف والغرض من الآيات ، إذ المراد
إبراز عبادة الله تعالى ، ورعايته لموسى - عليه السلام - بأن جعل من آل فرعون
من يدافع عنه ويجاهدهم فيه ويناقشهم من أجله . . . وتأمل قوله تعالى :
(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآتَيْنَاهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) (٣) وقوله عز وجل :
(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) (٤) ،
تجد الآية الأولى قد قدم فيها الجار والمجرور د من قومه ، على صفة الملاوهم :
د الذين كفروا وكذبوا . . . ، وذلك لأنه لو أخر فقيل : د وقال الملا

(١) انظر السكشاف ٤٠/٣ والإيضاح ٢٣٤/١

(٢) سورة المؤمنون آية ٣٣

(٣) سورة غافر آية ٢٨

(٤) سورة المؤمنون آية ٢٤

الذين كفروا أو كذبوا بلقاء الآخرة وأنرفناهم في الحياة الدنيا من قومه ، ،
لتوهم أنه من صلة الدنيا ، وأن المعنى وأنرفناهم في الحياة الدنيا من قومه أى :
القريبة منهم ، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه ، فدعنا لهذا التوهم
قدم الجار والمجرور ، وقد نشأ التوهم من طول الصفة بالصلة وما عطف عليها
كما هو واضح . أما في الآية الثانية فليس فيها ما يوهم خلاف المراد وإذا تأخر
الجار والمجرور فلم يقدم على الصفة .

وقد يقدم أحد المتعلقات لإفادة التبعيكية والتوبيخ ، كما في قوله تعالى :
(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .
اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُنْتَدُونَ)^(١) حيث قدم الجار والمجرور
من أقصى المدينة ، على الفاعل رجل ، ؛ لأن في هذا التقديم زيادة في تبعيكية
أولئك القوم وتوبيخهم ، فقد كانوا قرييين من الرسل ، وشاهدوا منهم ما لم يشاهده
ذلك الرجل الذي كان في أقصى المدينة ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد نصح لهم
بما لم ينصحوا به أنفسهم . . . وقرأ قوله تعالى : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ : يَا مُوسَى إِنَّ الْأُمَلَاءَ يَأْتِيْرُنَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرِجْ
مَائِي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)^(٢) نجد أن الجار والمجرور لم يقدم على الفاعل كما
قدم في الآية السابقة ؛ لأن المقام لم يقتضِ التقديم هنا كما اقتضى هناك . . . وتأمل
قوله تعالى : (آتَيْنَا بِسَاطٍ إِلَىٰ بَدَاكَ لِنَقْتُلَكَ بِأَيْدِيٍّ إِلَيْكَ
لَا فَتْلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)^(٣) نجد أن تقديم الجار والمجرور على
المنعول في قوله : د بسطت إلى يدك ، أفاد أنه كان حريصا على قتل أخيه ،
وأن جل اهتمامه ستوجه إليه ، إلى قتل الأخ لا إلى إطلاق القتل ، وفي هذا
من التوبيخ والتبعيكية ما فيه ، وفيه أيضا تنبيه إلى ما هو مقبل عليه من خطأ

(٢) - سورة القصص آية ٢٠ .

(١) سورة يس آية ٢٠ .

(٣) - سورة المائدة آية ٢٨ .

ودعوى له أن يتأمل فيردع وينزجر ويكف عن قتل أخيه، وانظر إلى الأداة « إن » وإشار التعيين بها وما ينبيء به ذلك من أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغي أن يكون من الأمور المستبعدة الغادرة الوقوع ... أما قوله : « ما أنا بباسط يدي إليك » ، فقد أخر فيه الجار والمجرور « إليك » عن المفعول « يدي » ، لأنه ليس حريصا على قتل أخيه ، بل ليس بمن يصدر عنه القتل مطلقا ، وينبيء بهذا أسلوب القصر : « ما أنا بباسط يدي إليك » الذي أفاد نفي البسط عنه وإثباته لغيره .

وقد يكون التقديم من أجل المحافظة على الفاصلة ومراعاة النسق الصوتي وماله من أثر في المعنى ووقع في النفس كما في تعالى : (قَالَ : بَلْ أَتَقُولُ أَنِذَا حِبَاكُمُ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْتَوُونَ . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا : لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)^(١) حيث قدم المفعول : « خيفة » والجار والمجرور : « في نفسه » على الفاعل ؛ لأنه لو قدم عليهما فتيل : فأوجس موسى في نفسه خيفة ، أو فأوجس موسى خيفة في نفسه . اسكان في ذلك خروج على النسق الصوتي ، وإخلال بموسيقى النظم ، وما لها من وقع في النفس وأثر في المعنى .

وقد تلخظ في تقديم المتعلقات ما للمقدم من فضل ومزية على المؤخر كما في قوله تعالى : (وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)^(٢) فقد قدم : « رجالا » ؛ لأن من حج راجلا أفضل منزلة عند الله عز وجل لما يقاميه من الجهد والمشقة . . ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ووددت لو حججت راجلا ، فإن الله قدم الرجال على الركبان في القرآن . . » وتأمل قوله تعالى : (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنَّنَاتِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (١)
تجد أن ترتيب المتعلقات قد لوحظ فيه أفضليتها عند النفس ومدى تعلقها بها،
فالنساء أكثر تمسكنا في النفس من البنين لما يظهر فيهن من قوة الشهوة، والبنون
أقوى محبة من المال، والذهب أشد تمسكنا من الفضة، والخيول أدخل في المحبة
من الأنعام، والأنعام أهد من الحرث.

إلى غير من الاعتبارات والمزايا البلاغية التي تلاحظ في تقديم بعض
المتعلقات على بعض.

• • •

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر : قد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر
لأغراض ومقاصد يقصد إليها البلاغى وبقتضيتها المقام : وهو خروج
الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة ، وقد مر بك منها عند الحديث عن
أضرب الخبر ، تنزيل المنكر منزلة غير المنكر فيأق إلى الكلام بلاتاكيد ،
وتنزيل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد له الكلام وجوبا ، وكذا تنزيل السائل
المتردد منزلة غيره ، فيأق إلى الخبر بلاتاكيد أو يؤكد أوجوبا أكثر من يؤكد
وهذا التنزيل يكون لأغراض بلاغية يقصد إليه المتكلم وقد وفقت عليها
هناك (٢).

ومنها أيضا : وضع المضمرة ووضع المظهر ، ووضع المظهر مـوضـع
المضمرة ، والاتفات وأسلوب الحكيم والقلب والتغليب والتعبير عن المستقبل
بلفظ الماضي ، وعن الماضي بلفظ المضارع ، وقد اعتاد البلاغيون أن
يتحدثوا عن تلك الظواهر الأسلوبية بعد انتهائهم من الحديث عن أحوال
المسند إليه ، ولكننى آثرت الحديث عنها هنا لأنها ليست قاصرة على المسند

(١) سورة آل عمران الآية ١٤ .

(٢) انظر ص ٤٣ من هذا الكتاب .

إليه ، بل تتعداه إلى المسند ومتعلقات الفعل ، فهي تشمل كل أجزاء الجملة .
ولإليك بيان ذلك .

وضع المضمير موضع المظهر : الأصل في ضمير الغائب ألا يذكر إلا
إذا وجد في الكلام ما يعود هذا الضمير إليه ، وكان متقدماً لفظاً ورتبةً أو
لفظاً فقط أو رتبة فقط ، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر لفظاً ورتبةً
ولذا عد البلاغيون قول الشاعر :

جزى ربه عنى عدى بن حاتم

جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

غير فصيح ، إذ عاد الضمير في قوم : ربه ، على المنعول به : عدى ،
التأخر لفظاً ورتبةً ، وهذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام .

وعلى الرغم من وضوح هذا الأصل فإنك تجد بعض الأساليب وقد ذكر
فيها ضمير الغائب ثم فسر بمتأخر عنه ، فيكون ذلك ضعفاً للضمير في موضع
الاسم الظاهر لغرض بلاغي ، وهو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد
الإجمال ، حتى يتمكن المعنى في ذهن السامع ، ويستقر في نفسه ، ويثبت في
قواده .، فن ذلك أسلوب نعم وبئس كقولك : نعم رجلاً زيد وبئس عدواً
الجهل ، عند إعراب المخصوص بالمدح أو الذم ، مبتدأ خبره محذوف أو خبراً
لمبتدأ محذوف ، فيكون فاعل نعم أو بئس ضميراً مستتراً تقديره : وهو ،
يعود إلى زيد أو إلى الجهل ، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى به اسماً ظاهراً
فيقال : نعم زيد رجلاً وبئس الجهل عدواً ، إذ لم يتقدم ما يعود إليه الضمير
كما قلت - ، ولكن عدل عن الظاهر إلى الضمير لاسر البلاغي المشار إليه .
ومثله قول زهير يمدح هرم بن سنان :

نعم امرأ هرم لم تعد نائبة

إلا وكان لمرتاح بها ذراً

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ والجملة قبله خبرا فعندئذ يكون الضمير عائدا على متقدم في الرتبة ولا يكون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر .. ومن وضع المضمرة موضع المظهر : ضمير الشأن أو القصة كما في قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمَوْا أَنَّهُمْ قُلُوبٌ يَعْمَلُونَ فِيهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ فِيهَا • فَإِنَّهُمْ لَا تَعْقِلُونَ إِلَّا بَصَافِرًا وَلَكِنَّ تَعْقِلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)^(١) ، وقوله عز وجل : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)^(٢) ، وقوله جل وعلا : (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)^(٣) فالضمير في قوله : فإنه .. . قل هو .. . إنه .. . يسمى ضمير الشأن أو القصة ، ولم يتقدم له مرجع كما ترى ، وإنما فسر بالجملة بعده ، فهو من وضع الضمير موضع الظاهر ، ومره البلاغى هو تفخيم الشأن أو القصة ونشبيتها في الأنفس ؛ لأن مجيء الضمير مبهم بدون عائده متقدم يحمل المخاطب بالمشغل به ويبحث عما يفسره فيصنئ إلى الكلام ، وعندما يعثر على المفسر يقع في النفس موقعا حسنا فيقر بها ويثبت ، لأن للبيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أثرأ حسنا في النفس ووقعا جميلا .. . ويتضح لك هذا لو وضعت الاسم الظاهر موضع الضمير في الآيات الكريمة ، فقلت : وإن الأبصار نعمى .. . قل الله أحد .. . إن الكافرين لا يفلحون ، .

إليك تجد الذخامة قد واثت والروعة قد زالت ، لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبيه ويشير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أبهم ، ولذا يجد ضمير الشأن أو القصة لا يستعمل إلا في الأمور المهمة ، ولأخبار ذات البال ،

(٢) سورة الإخلاص الآية ١

(١) سورة الحج الآية ٤٦ •

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٧

- ٢٦٢ -

والمعاني الجليلة ، على نحو ما رأيت في الآيات السكبرية ، وعلى نحو ما ترى في قول أبي تمام .

على أنها الأيام قد صرن كلها
عجائب حتى ليس فيها عجائب

وفي قول الآخر :

هي الدنيا تقول بملء فيها
حذار حذار من بطشى وفتكى

وضع المظهر موضع المضمير : أما وضع المظهر موضع المضمير فيكون لأغراض بلاغية كثيرة يقتضيها المقام ويقصد إيهام البلاغى . . انظر إلى قول أحمد بن يحيى المعروف بابن الزنادى وكان يرمى بالزندقة :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل نلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا^(١)

تجده قد وضع اسم الإشارة في أول البيت الثانى موضع المضمير ، فهو يشير به إلى الحكم السابق فى البيت الأول وهو كون العالم محروما والجاهل مرزوقا ، وهذا الحكم غير محسوس ، فكان ينبغى أن يستعمل المضمير لتقدم مرجعه فيقول : وهو الذى ترك ، ولكن الشاعر عدل عن المضمير إلى اسم الإشارة لغرض يقصد إلهيه وهو كمال العناية بالمستند إلهيه وتمييزه وإبرازه ، تهية للإخبار عنه بذلك الخبر الغريب العجيب ، وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقا .

(١) أعيت مذاهبه : أعجزته طرق مآشه أو أعيت عليه ، متمدية ولازمة . . والأوهام المقول من تسمية الخل باسم الحال مجازا مرسل . . والنحرير من نحر المسائل عاما أى أنقنها . . والزندق الذى يبطن السكبر ويظهر الإسلام .

وقد يقصد البلاغى بوضع اسم الإشارة موضع الضمير التنبيه إلى غباوة المخاطب وبلادته وأنه لا يدرك إلا الأمور المحسوسة ، كما ترى فى قول الفرزدق مخاطباً جريراً :

أولئك آباءى بخفى بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المجامع

لذ كان ينفى أن يقول : دهم آباءى ، لتقدم الحديث عنهم فى الآيات السابقة ، ولسكنه أثر التعبير باسم الإشارة : د أولئك ، ، للتعريض بغباوة جرير والتنبيه إلى بلادته وقلة فهمه ، وكأنه يريد أن يبرز ويصور جريراً فى صورة من لا يدرك إلا الأمور المحسوسة ، ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة الموضوع للبعيد : د أولئك ، من تعظيم لآباء الفرزدق وتنبيه لسمو مكانهم وعلو منزلتهم ... وقد يقصد البلاغى باستخدام اسم الإشارة مكان الضمير للدلالة على كمال ظهوره وتمام بيانه ، حتى كأنه صار مرتباً ومدركاً بالحواس ... كما فى قول الشاعر :

تعالت كى أشجى وما بك علة

يريدون قتلى ، قد ظفرت بذلك

فمقتضى الظاهر أن يقول : قد ظفرت به ، ولكنه عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة للدلالة على ظهور القتل وكال وضوحه وأنه لا يخفى على أحد ، لأنه صار مرتباً للجميع ، ولعلك نحس أيضاً بما وراء التعبير بتلك الجملة : قد ظفرت بذلك ، من تمذبه وتأبيه على صوبيحاته ، وكأنه لا رغبة له فيه ، فهو لا يهوى إلا تلك التى تعالت ، وهى وحدها التى ظفرت بأسره وتمسكه ...

واقراً قوله تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ

النَّارُ) ^(١) ، وقوله عز وجل : (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ^(٢) ، فقد عبر باسم الإشارة : « تلك » و « ذاك » في موضع الضمير للدلالة على كمال النعم ونعم ظهوره ، فقد بلغ الغاية في الظهور والبيان حتى صار مدركا بالحواس . . . وكذا القول في الآية الثانية ، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس ، مشار لما به . . . ويقول المعلم بعد إيضاح مسألة لتلاميذه أو إظهار رأى : وهذا واضح . . . وتلك بنية جليلة ، . . . فيدل باسم الإشارة على تمام ظهور الرأى ، وبكال بيان المسألة . . . وكذا يقول الخصم عند مجادلة خصمه ومحاولة إقامة الحجة عليه : وهذه ظاهرة أو مسألة ، فمكان مقتضى الظاهر أن يقول : وهي ظاهرة ، ولكنه عدل إلى خلاف الظاهر ادعاء لكمال الظهور وتمام البيان .

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع المضمر زيادة التمكن والتقدير ، وقوة تشبيته في الأنفس والسرائر ، انظر إلى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ) ^(٣) تجد إيقار التعبير بالاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة في قوله « الله الصمد » وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال : « وهو الصمد » لتقديم مرجعه ، ولكنه انظم السكريم آثار التعبير بالاسم الظاهر « الله » لزيادة تمكينه في الأنفس ، وتقربة وتشبيته في الأذهان ، إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى واستقراره في النفس من التعبير بالضمير . . . وخذ قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ

(٢) سورة نمل آية ٢٢ ، ٢٣

(١) سورة الرعد آية ٣٥

(٣) سورة الإخلاص الآية ١ ، ٢

يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(١)
تجد أن وضع اللفظ الجلالة موضع الضمير فيه زيادة تثبت وتقرير ، لأنه
يوحى بالجلال والعظمة ويعمل على تربيته بما به الحق في الأنفس والسموات ،
ولو غير بالضمير فقيل : وإن ذلك عليه يسير . ثم هو ينشئ . . . لأنه على
كل شيء قدير . . . لما كان في التعبير إلى ذلك المعنى سبيل . . . وتأمل قوله
تعالى : (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) ^(٢) نجد أن إعادة الاسم الظاهر
وبالحق ، قد أفاد من التوكيد وإبراز المعنى وتثبيته في النفس ما لم يفده الضمير
لو قيل : وبه نزل . . .

واقرا قول الشاعر :

إن تسألوا الحق نعط الحق سائله ولدرع محبة والسيف مقرب

وقول الآخر :

نفس عصام سودت عصاما وعلته الكبر والإنداما

وتأمل فرق ما بين : وإن تسألوا الحق نعط الحق ، وقولك : إن تسألوا
الحق نعطه ، وبين : نفس عصام سودت عصاما ، وقولك : نفس عصام
سودته ، فستجد الفرق دقيقة وسوف يتبين لك أن التعبير بالاسم الظاهر فيه
من الإيضاح وإبراز المعنى ، وتقريره وتثبيته ، ما ليس في التعبير بالضمير .
وقد يقصد بوضع الظاهر موضع الضمير تقوية داعي المأثور إلى الامتنال
وتحقيق الأمر ، كما في قوله تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ^(٣) ، فقد أوشر التعبير بالفظ الجلالة في موضع الضمير

(٢) سورة الإسراء آية ١٠٥

(١) سورة العنكبوت آية ١٩ ، ٢٠

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩

حيث لم يقل : فتوكل على إني أحب ، لما في ذلك من تقوية الداعي إلى الامتنال وتحقيق التوكل وإيجاده ، فهو توكل على الله الذي يحب المتوكلين ... وقد يقصد به إدخال الروح في نفس السامع وتربية المهابة حتى يقل على الامتنال والخضوع كقول الخليفة : أمير المؤمنين يأمر بكذا ، فقتضيه الظاهر أن يقول : أنا آمر ، ولكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لما فيه من تربية المهابة وإدخال الروح في الأنفس فتقبل إلى الامتنال والخضوع ... وقد يقصد به الاستعطاف كما في قول الشاعر :

إطى عبدك العاصي أنك مقرا بالذنوب وقد دعاك
إن تغفر فأنت لذاك أدل وإن تطرد فن يرحم سواك

ولم يقل : أنا العاصي آتيتك ، وقال : د عبدك ، فوضع الظاهر في موضع الضمير . لما في الظاهر من الإشعار بالعبودية المنسوبة لرب العزة ، وما يكون وراء ذلك من ترقب الشفقة والرحمة ، واستحقاق العطف ... وقد يقصد به إبراز الوصف الذي يفيد الاسم الظاهر وتقريره ، لإفادة مقصد يقصد إليه البلاغي كما ترى في قوله تعالى : (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)^(١) ، فقد أعيد ذكر الذين ظلموا ، ولم يقل : فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ ، لما في الاسم الظاهر من إبراز معنى الظلم وتقريره ، والإشارة بذلك إلى أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم ... ونرى هذا الأسلوب يرد كثيراً في النظم الكريم ليحقق مقاصد وأهدافاً دقيقة .

انظر إلى قوله تعالى : (ص • وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِزْقِهِمْ شِقَاقٌ • كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثُّ مِنْهُمْ • وَسَجِّبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ • وَقَالَ الْكَافِرُونَ : هَذَا سَاحِرٌ

كُذِّبَ) (١)، وقوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا رِبَّيَّاتٍ فَهَأُولَٰئِكَ هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ قَبْلُ هَٰذَا إِلَّا أُمُوكَ مُنْتَزِعَةٌ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّهُ لَا سِجْرَ مُبِينٍ) (٢) تجد أن في التعبير بالكافرين في قوله . وقال الكافرون ، وبالذين كفروا في قوله : وقال الذين كفروا للحق . . . ، إبرازاً لمعنى الكفر وتسجيلاً عليهم وإبرازهم جاحدين كافرين متعنتين ، وتصوير مدى ضلالتهم واتعابهم عن الحق الواضح ، فقد كفروا به وقالوا وقد وضع لهم وبان : وإن هذا إلا سحر مبين ، وصغروا الحق الواضح بالسحر المبين ، فلا عجب إذا ما نزل بهم العذاب وأهلكوا كما أهلك المكفرون من قباهم . . . وتأمل قوله تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُفُؤُكُمْ كُنْتُمْ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ مَذَاجُ الْبَرِّ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَقَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّهُمْ تَرَوْهَا وَذَاقَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (٣) تجد أن ذكر المؤمنين في موضع الضمير حيث لم يقل : على رسوله وعلمكم ، قد أبرز هذه الصفة وأبرز اتصافهم بها واستحقاقهم لها ووراء ذلك من التعظيم والتكريم ما لا يخفى عليك ثم تأمل مدى التحقير والإهانة بإعادة ذكر الكافرين في قوله : وذلك جزاء الكافرين ، وأن لم يقل : وذلك جزاؤهم ، لما في الاسم الظاهر من وسهم بتلك السبعة وإبرازهم بهذا الوصف .

وتد يوضع الظاهر موضع الضمير قصداً لإجراء أوصاف عليه كما في قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(٢) سورة ساء الآية ٣٤

(١) سورة ص الآيات ١ - ٤

(٣) سورة النوبة الآية ٢٥ ، ٢٦

الَّذِي الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ^(١) فوضع الاسم الظاهر ورسوله ،
موضع الضمير حتى يمكن وصفه بما بعده من صفات . . وفيه أيضا إبراز
لمعنى الرسالة وتثبيت لها في النفوس وإيضاح أن الإيمان بمحمد - عليه الصلاة
والسلام - إنما هو من أجلها فمن يؤمن به رسولا نبيا ، ولا يؤمن بذاته
بجردة من تلك المهمة ، أى : يؤمن بكونه رسولا نبيا أمياً وثق بالله
وكلماته . . .

* * *

المطلوب الالتفات : الالتفات مأخوذ من قولهم : التفت الإنسان إذا
تحول بمنطقه من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين ، وأول من أطلق
هذه التسمية هو الأسمعي ، فقد روى أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم
فقال له : أتعرف التفاتات جرير ؟ فأجاب لا . فما هي ؟ قال :

أتدنى إذ تردعنا سليمى بعرد بشامة سقى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له ؟ . .

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقتى

لازلت فى غلغل وأيك ناضر

فالتفت إلى الحمام فدعا له^(٢) .

فهو يطلق الالتفات على نوع من التعبير وهو ذلك الكلام الذى يظن
المخاطب أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه وسيتترك هذا الذى ويتجاوز

(١) - سورة الأعراف ١٥٨

(٢) اظر الصناعتين ٣١١ . . والباشام : شجر طيب يساك به . . وذو الأراك :
مكان يبست فيه شجر الأراك . . والإيك : الشجر المتف . . واللغلل : المسكن الحطب
الذى يجرد بالغة .

إلى معنى آخر ، فإذا به يلتفت إلى المعنى الذى فرغ منه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به . . . ومن قبل أشار أبو عبيدة إلى نوع آخر من الالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية حيث يقول : « ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى : (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَوَّيَّةٍ)^(١) أَيْ بِكُمْ^(٢) .

ثم جاء عبيد الله بن الممتر فذكر في كتابه البديع أن الالتفات يرد على نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم عن مخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى مخاطبة وما يشبه ذلك ، وهذا هو ما يصدو عليه الالتفات في الآيات التى ذكرها أبو عبيدة ، ونوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر ، وهذا ما ذكره الأصمبى^(٣) .

وقد أهمل البلاغيون النوع الثانى فلم يتحدثوا عنه ، وفصلوا القول فى النوع الأول ، واشتهر فى تحديد مفهومه رأيان : رأى للسكاكى ورأى للجمهور البلاغيين . أما الجمهور فيرون أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة رمى التكلم أو الخطاب أو الغيبة ، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها . . . وأما السكاكى فيرى أنه التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره ، فهو يلتقى مع الجمهور فى الجزء الأول من التمر يف ويخالفهم فى الجزء الثانى ، إذ يرى فى نحو قول ربيعة بن مقروم :

بانت سعاد فأمدى القلب معدودا

وأخلفتك ابنة الحر المواعيد^(٤)

(١) - سورة يونس آية ٢٢

(٢) - مجاز القرآن ١١

(٣) - انظر البديع ١٠٧

(٤) - بانت : بدت . . . ومعدودا : جزينا . . . وابنة الحر هى سعاد . .

التفتانا ، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول : وأخلفتني ، فالتفت إلى الخطاب وقال : وأخلفتك . . . ومثله قوله أيضاً :

تذكرت والذكرى تهيجك زينبا وأصبح باقي وصلها قد تنضباً
وحل بفلاج فالأبائر أهلكنا وشطت فجلت غمرة فنتقها^(١)

إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر بطريق التكلم فيقول : تذكرت واسكنه خاف هذا الظاهر فالتفت إلى الخطاب كما ترى ، ولا يخفى عليك ما في البيت الأول من وضع المظهر موضع المضمرة في قوله : دابة الحر ، إبرازاً لصفة الحرية وتقريراً لها ، وما يضيفه ذلك على فتاته دسعاد من أصالة وتشريف . . كما لا يخفى عليك الالتفات في البيت الثالث حيث التفت من الخطاب في قوله : تذكرت إلى التكلم في قوله : أهاننا ، وهذا الالتفات على رأي السكاكي والجمهور مما ، أما الالتفاتان الأولان فعلى رأي السكاكي فقط ، ويمكن أن يحملا على التجريد ، وأن ربيعة جرد من نفسه شخصاً آخر وأخذ يخاطبه قائلاً : وأخلفتك . . تذكرت ، وتلك عادة مشهورة بين الشعراء . . . وعند تأمل تعريف السكاكي والجمهور للالتفات يتضح لك أن تعريف الجمهور أخص ، فكل الالتفات عندهم الالتفات عند السكاكي ، وليس كل الالتفات عند السكاكي الالتفات عندهم على نحو ما رأيت في البيتين المذكورين ، فقد جمعا ما السكاكي من الالتفات بناء على مذهبه فيه ، وحملا الجمهور على التجريد - كما يذنا - . .

صور الالتفات وما يمكن ورائها من أسرار بلاغية : مما تقدم يتبين لك أن الالتفات - على مذهب الجمهور - ست صور ووراء كل صورة من هذه الصور ، بل وراء كل شاهد من شواهد الالتفات مخزى بلاغى جليل ، وهذا

(١) تنضب : جف وبروى تنضب بمعنى : انقطع . . وفلاج والأباز وغمرة ومثقب
أما كن . . وشطت : بعدت .

يقتضى منا أن نقف مع كل صورة من صورته ووقفه متساوية لغيره ما وراء
شواهدنا من دقائق وأسرار . .

الصورة الأولى . الالتفات من التكلم إلى الخطاب : كما في قوله تعالى :
(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .
اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُنْتَدُونَ . وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَالَّذِي تُزْجَعُونَ)^(١) ، فقد التفت من التكلم في قوله : ومالي لا أعبد الذي
فطرني ، إلى الخطاب في قوله : وإليه ترجعون ، . وفضلاً عما يفيد
أسلوب الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه ،
وتنبيه لذهنه وفكره ، لما فيه من التنويع وعدم المضي على وتيرة واحدة ؛
- فضلاً عن ذلك - فإنك تشعر بما وراءه في الآية الكريمة من ترغيب للقوم
واستئالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين ، حيث أجرى التعجب
من عدم العبادة على نفسه : مالي لا أعبد ، حتى لا ينفروا من قبول النصيحة ، ويتضح
لك هذا الغرض أكثر عند ما ترجع إلى سياق الآيات الكريمة : ويا قوم اتبعوا
المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ، فقد أضافهم إلى نفسه شهيدين
لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجراً على تبليغ الرسالة وهذا ادعى لاتباعهم وقبول
ما جاءوا به ، ثم هم فوق ذلك مهتدون ، فينبغي الاقتداء بهم ، ولما أراد أن
يتعجب من تخلى القوم عن هؤلاء الرسل وعدم الاقتداء بهم في عبادة الله وحده ،
أجرى هذا التعجب على نفسه ملتفتاً عنهم : مالي لا أعبد ، حتى يكون في
ذلك من بد من الاستئالة والترغيب ، ثم التفت إليهم محذراً من استمرارهم في
الباطل ، وتماذيرهم في الضلال ، ومبيناً لهم أن مرجعهم إلى الله وحده الذي
فطرهم وإليه ترجعون ، . وهذا يبين لك ما وراء الالتفات من ترغيب
واستئالة وإحاض المناصحة ثم التعقيب بالتحذير الشديد . . وانظر إلى قوله
تعالى : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ

المُشْرِكِينَ) ^(١) ، تجدد التفاتاً من التكلم في قوله : « إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، إِلَى الْخُطَابِ فِي قَوْلِهِ : « لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، ووراء
هذا الالتفات ما وراه من وعيد وتهديد ، وتحذير من الوقوع في الشرك ،
وبما يبرز هذا، الانتقال من الخبر فيما سبق إلى النهي فيما لحق به - « أَمَرَ اللَّهُ
- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - نَبِيَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُخْبِرَ وَأَنْ يَقُولَ إِنَّهُ أَمَرَ أَنْ
يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، ثُمَّ نَهَاهُ رَبُّ الْعِزَّةِ : « لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، إِنَّهُ
وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى الشِّرْكِ ، وَلَا عَجَبَ فَمِنْ أَكْبَرِ الْأَكْبَارِ ، وَاللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

قَالَ تَعَالَى : (إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ) ^(٢) ، وتجدد كثيراً من الأحاديث الشريفة التي حذرت من الشرك ،
وبينت أضرارها المختلفة ، وطرقه العديدة ، التي يذغى على المسلم أن يتيبها ، وأن
يبتعد عنها حتى يكون بمنأى عن كل ما يؤدي إلى الشرك بربه .

الصورة الثانية : الانتقال من التكلم إلى الغيبة : كما في قوله تعالى :
(إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ عَلَى الْكَوْثَرِ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) ^(٣) حيث التفت من التكلم
في قوله : « إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ » ، إلى الغيبة في قوله : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ » ، إذ الأصل : فصل لنا ،
وترجع بلاغة الالتفات في الآية الكريمة إلى ما في التصريح لمفظة الرب من الخشوع
على فعل المأمور به لأن من يربيك وبرعاك فهو جدير بعبادتك ، مستحق لصلواتك
ولذا كان الالتفات مقرباً للداعي الصلاة ، ومنهياً وحائثاً إلى أدائها والحرص
عليها . . . ومن ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
بِجَمِيعِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا دُونِي يُخْبِي وَيُبْهِمُ
فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ

(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .

(١) سورة الأنعام الآية ١٤ .

(٣) سورة السجدة الآية ١ ، ٢ .

تَعْلَمُكُمْ تَهْتَدُونَ^(١) فقد انتقل من التسلّم في قوله : د إني رسول الله ، إلى الغيبة في قوله : د فآمنوا بالله ورسوله ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فآمنوا بالله وبى ، وترجع بلاغة الالتفات في الآية إلى أن الاسم الظاهر قد ممكن من إجراء تلك الأوصاف : د النبي الأمي الذي . . . على الرسول عليه الصلاة والسلام . وفيه أيضا إشارة وتنبيه إلى أن الإيمان والتصديق ليس لذات محمد عليه الصلاة والسلام وإنما بتلك الصفات أى : بكونه رسولا نبيا آميا يؤمن بالله وكلماته ، فهي بمثابة البرهان على صدق رسالته . صلى الله عليه وسلم . ومثله قوله تعالى : (حَمَّ . وَالْكَاكِيبِ الْمُجِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُهَازَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٢) فقد التفت من التسلّم في قوله : د إنا أنزلناه . . . إنا كنا . . . من عندنا . . . إلى الغيبة في قوله : د رحمة من ربك ، ، وتكمن بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في التصريح باللفظ الرب الذي يشير إلى معنى التربة والرفق والعناية ، وملازمة هذا المعنى الرحمة المذكورة ، وفيه أيضا تهية للعبارة لخطاب المنزل عليه وهو الرسول . عليه الصلاة والسلام . . .

وخذ قوله تعالى : (يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)^(٣) فالأصل : لا تقنطوا من رحمتى ، فالتفت إلى الغائب لإبراز اللفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة .

الصورة الثالثة : الالتفات من الخطاب إلى التكم : كما في قوله تعالى :

(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)^(٤) وقوله

(٢) سورة الدخان الآية ١ ، ٢

(١) سورة الاعراف الآية ١٥٨

(٤) سورة هود آية ٩٠

(٣) سورة الزمر آية ٥٣

(١٨ - علم المائى)

جل وملا : (قال : يا قوم اعبدوا الله ما لاكم من إله غيرهُ ؕ أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروهُ ؕ ثم توبوا لآلئهِ إن ربى قريب مجيب)^(١) . فقد التفت في الآيتين من الخطاب في قوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا » ، إلى التكلم في قوله : « إن ربى » ، وهذا الالتفات يفيء بعظمة ذى الجلال ورحمته وإجابته من دعاه . واختصاصه - سبحانه - وتعالى - بتلك الصفات ، ويدفع توبهم انصرافها إلى آلهتهم فيها لو قيل : « إن ربكم رحيم ودود » .
 إن ربكم قريب مجيب .

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة :

طحا بك قلب فى الحساب طروب بعيد الشباب عصر حان مشيد
 يكلفنى ليلى وقد شطط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب^(٢)

فقد التفت من الخطاب في قوله : « طحا بك قلب » ، إلى التكلم في قوله « يكلفنى ليلى » ، وهذا الالتفات يفيء بأنه معنى بليلاء إلى أبعد حد ولذا أجرى الكلام المتعان بها على نفسه إجراء مباشراً ، فإنه أقوى مما لو قيل : « يكلفك ليلى بصيغة الخطاب » .

الصورة الرابعة : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة : كما فى قوله تعالى :

(وَذَآئِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِنْ بَصُرُوا فالنارُ مَبْصُورَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغْفِرُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُغْفِرِينَ .)^(٣)

(١) سورة هود آية ٦٠

(٢) طحا : ذهب وبعد . . . ونصير « بعيد » يابيد أن هذا كان قريباً من عنفوان الشباب . . . وطروب بمعنى له طرب وأنشأ على طلبهن . . . وشط وليها : بعد قربها . وعادت عواد : رجعت عوائق كانت تمحول بيننا إلى ما كانت عليه ، ويجوز أن تكون « عادت » من المماداة . . . وخطوب : أحداث .

(٣) سورة فصلت آية ٢٣ ، ٢٤ .

فقد التفت من الخطاب في قوله : « ذللكم ظنكم .. فأصبحتم ، إلى الغيبة في قوله : « فإن يصيروا ، وهذا الالتفات ينشأ بالطرد من رجة الله ، وذلك بإبعادهم عن ساحة الحضور والمخاطبة ، وصيرورهم إلى مكان سحيق حيث النار والعذاب . وإن يستهتروا ندما فلا عتاب .. ومثله قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَوَّيَّةٍ وَوَحَرُوا بِهِمْ) جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم .. (١) التفت من الخطاب في قوله : « كنتم في الفلك ، إلى الغيبة في قوله : « وجرين بهم ، وبلاغة هذا الالتفات تمكن في أنهم لما كانوا في مقام الحضور والمهادنة خوطبوا فلما جرت بهم السفن وابتعدوا لأم هذا أن يتحدث عنهم بطريق الغيبة . وشيء آخر وراء الالتفات وهو أنه يشعر بأن هؤلاء الذين إذا أصابهم ضرر دعوا ربهم ، فإذا نجاهم بغوا في الأرض بغير الحق ، يستحقون الإبعاد وعدم الالتفات إليهم بالمخاطبة ، وأن تروى قصتهم ونحكي تشهيراً بهم واعتباراً لمن يعتبر

وانظر إلى قوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَمُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (٢) تجد لإقبال الله عليهم بالخطاب ليكونهم أمة واحدة ، فلما تقطع الأمر بينهم وتشقت كياناتهم واختلفوا غابوا عن مشهد الحق . وغاب عنهم المنهج القويم ، والدستور الحكيم ، فانصرف الله عز وجل عنهم وهذا هو مر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في الآية الكريمة .. ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتهديد لهؤلاء الذين تقطع أمرهم بينهم في قوله جل وعلا : « كل إلينا راجعون ، وكذا القول في قوله تعالى : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٣)

(٢) سورة الانبياء الآية ٩٢ ، ٩٣

(١) سورة يونس الآية ٢٢

(٣) سورة النحل الآية ١٠

فقد التفت عن المشركين التفات الغاضب المتوعد . . . وخذ قوله تعالى :
(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) ^(١) تجد أن الالتفات من الخطاب في قوله :
« جاءوك » إلى الغيبة في قوله « واستغفر لهم الرسول » ، يفيد تفخيم شأن
الرسول عليه الصلاة والسلام وتعظيم استغفاره والتنبية إلى أن شفاعة
واستغفار من اسمه « الرسول » من الله ممكن .

الصورة الخامسة : الانتقال من الغيبة إلى التكميم : كما في قوله تعالى :
(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَمُغْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . .) ^(٢) ، حيث التفت من الغيبة في قوله : « والله
الذي أرسل الرياح » إلى التكميم في قوله : « فمغناه .. فأحيينا به » .

وينبئ هذا الالتفات بأهمية السوق والإحياء ، وبتجلٍ قدرة الله عز وجل
في سوق السحاب وإحيائه تلك الأرض الميتة ، فهذا ضرب من قسمة الأرزاق
بين الناس ، ولذا ناسب أن يلتفت إليهما رب العزة سبحانه وتعالى . وانظر
إلى قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ
اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي
يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا
ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ^(٣) . فقد التفت من الغيبة في قوله : « واستوى »
فقال .. فقضاهن .. وأوحى » إلى التكميم في قوله : « وزينا » وهذا الالتفات
يشير إلى أن السماء الدنيا من أظهر وأوضح الآيات التي تدل على قدرة الخالق
جل وعلا ، ولذا حث القرآن في مواضع كثيرة على النظر إليها وتأمل ما بها ،
فكأن الالتفات هنا لفت المؤمن إلى موضع العبرة والعظة .

(٢) سورة فاطر الآية ٩

(١) سورة النساء الآية ٦٤

(٣) سورة نجات الآية ١١ ، ١٢

وخذ قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (١). تجد الالتفات من الغيبة في قوله : «الذي أسرى عبده ليلًا ، إلى التسكلم في قوله : «باركنا حوله لنريه من آياتنا ، ثم إلى الغيبة ثانية في قوله : «إنه هو السميع البصير» .

ديني. هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة ، فقد بارك الله حوله ، ولم يقل «بارك» ، بناء على الظاهر فيمضي الأسلوب على طريقة واحدة ، بل قيل : «باركنا ، تنبيهًا للمؤمن إلى تلك المكانة السماوية ، كما يبرز الالتفات أيضًا الغاية من الإسماء وهي إراءة النبي من الآيات الكبرى ، فقد التفت إليها : «لنريه من آياتنا ، إشارة إلى أن ذلك هو المراد وهو الغيبة من الإسماء .

وتأمل قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بَنِينَ عَمْدٍ رَوَّحَهَا وَالْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ...) (٢) تجد عدة الالتفاتات ، فقد التفت من الغيبة في قوله : «خلق .. وألق .. وبث .. إلى التسكلم في قوله : «وأنزلنا من السماء ماء فأنبطنا .. وهذا الالتفات ينفي بأهمية الإنزال والنبات لهم ، فهم إليهما متعلقون وبهما متعلقون ، إذ لا حياة لهم بدون الماء والنبات .. ثم رجع إلى الغيبة في قوله : «هذا خلق الله ، وكان الأصل أن يقال : هذا خلقنا . وتشعر بما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم وماله من أثر كبير في تربية المهابة واستمتاع المؤمن بذكره والنطق به .. ثم التفت ثانية إلى التسكلم

في قوله : ، فأروني ، ولعلك تشعربيرة الوعيد والتخدير وراء هذا الالتفات الأخير .. وفي الآيات التفات آخر من الخطاب في قوله : « ترونها .. بكم .. » فأروني « إلى الغيبة في قوله : « بل الظالمون في ضلال مبين ، لو كان مقتضى الظاهر أن يقال : بل أنتم ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين :

أولهما : أن الخطاب في الآيات عام . وليس كل المخاطبين في ضلال مبين ، بل الظالمون منهم .

وثانيهما : أن في الالتفات تسجيلاً على هؤلاء ، ووسمهم بتلك الصفة ، صفة الظلم التي صيرتهم في ضلال مبين ، وعملاً قليل ستجعلهم في عذاب مبين ...

الصورة السادسة : الالتفات من الغيبة إلى الخطات : كما في قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ...) (١) . فقد التفّت من الغيبة في قوله : « مالك ، إلى الخطاب في قوله : « إياك نعبد ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى ما تحسّنه الآيات في نفس المؤمن من زيادة الخشوع والتقرب إلى ربه جل وعلا ، فقد بدأت بذكر الحمد وربوبيته تعالى للعالمين ثم الرحمة الغامرة قلـكـه ليوم الدين وعندما تقع تلك المعاني في نفس المؤمن يزداد قرباً إليه تعالى فيخاطبه معلناً اختصاصه بالعبادة ومدّ العون وإياك نعبد وإياك نستعين ، وتأمل آخر السورة السكرية : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) (٢) حيث نسب الإلـعـام إليه تعالى تعظيماً لشأنه ولم ينسب الغضب إليه بل بنيت العبارة للمفعول تأدباً ولطفاً ... وفي ذاك ما فيه من تعظيم للنعم عليهم وتحقير وتنقيح من المغضوب عليهم .. ومن هذه الصورة قوله تعالى : (وَسَقَاتُكُمْ رَبُّكُمْ شَرَّاباً طَهُوراً . إِنَّ هَذَا كَانَ أَلَكُمُ جَزَاءً وَكَانَ

سَمِعُكُمْ مَشْكُورًا) (١) حيث التفت من الغيبة في قوله : « سقاكم ربهم ، إلى الخطاب في قوله : « لكم .. سمعكم ، تكريماً وتعظيماً للمتحدث عنهم .

وقوله تعالى : (وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) (٢) التفت من الغيبة في قوله : « قالوا ، إلى الخطاب في قوله : « جئتم ، تنبيهاً إلى عظم هذا الافتراء ، وتوبيخاً لهم وردعاً حتى لا كانوا حاضرون ومواجهون بافتراءهم تأنيباً لهم وتسفيهاً لعقولهم

ومنه شعرا قول عبد الله بن عتبة الضبي :

ما إن ترى السيد زيدا في نفوسهم
كما يراد بنو كرز ومرهوب
إن تسألوا الحق نعط الحق سائله
والدرع شعبة والسيف مقروب
وإن أبيتم فإننا معشر أنف
لا نطعم الخسف إن السم مشروب (٣)

فقد التفت من الغيبة في قوله : « زيدا ، إلى الخطاب في قوله : « تسألوا ، وذلك مواجهة لهم بالحديث ، و « انهم مشاهدون امام الشاعر ، يوجه إليهم حديثه ويطلب منهم إبداء رأيهم والإفصاح عن نواياهم .. ثم التفت من الخطاب في : « تسألوا ، إلى الغيبة في قوله : « سائله ، ، وكان مقتضى

(١) سورة الإنسان الآية ٢١ ، ٢٢ (٢) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩

(٣) السيد وزيد وكرز ومرهوب : أحياء من ضربة قوم الشاعر ، يريد أن السيد لا يواجهون زيدا من الحرمه وانصرمة ما يوجب كوز ومرهوب والضمير في قوله « تسألوا : يريد .. والمحبة : المشدودة في الحقية .. والمقروب : الموضوع في قرابه . وأنف : أهزة .. والخسف : أنذل .. والمراد بقوله : « والسم مشروب » أنهم أنوياء أشداء قد اعتادوا الشدائد والأهوال .

الظاهر أن يقول : : تعطه لكم ، ولكنه عدل عن المضمهر إلى المظهر ، فأعاد ذكر الحق ، ثم التفت فقال : : سائله ، : لأنه يريد سائلين الحق ، خاضعين له ، وهذا هو سر الالتفات ، إنه أبرز السؤال وقرره ، كما قرر استعمال الظاهر في موضع الضمير ، الحق ، وأبرزه ، ولو ، ضى الأسلوب على ما يقتضيه الظاهر ، فقول : : إن تسألوا الحق تعطه لكم ، لما تحققت تلك الإفادة التي قصد إليها الشاعر .

وأما قول امرئ القيس :

تطاول ليلى بالآتمد ونام الخلى ولم ترقد
وبات وبات له لهله كلمة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبا جاني وخبرته عن أبي الأسود^(١)

ففيه الالتفات من الخطاب في قوله : : ليلى . . ولم ترقد ، إلى الغيبة في قوله : : بات وبات له له ، ثم إلى التمسك في قوله : : جاني وخبرته . أما البيت الأول فلا الالتفات فيه إلا على مذهب السكاكي ، والجمهور - كما رأيت - يرون أنه من قبيل التجريد .

هذا وإذا كان لكل أسلوب من أساليب الالتفات فائدة خاصة وغرضها محدداً يعرف من خلال النظر في السياق ومعرفته قرائن الأحوال - كما رأيت - ، فإن هنالك فائدة عامة تراها في كل الالتفات ، وهي أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن وأبلغ في تجديد نشاط السامع ، وأثر

(١) الأبيات قبل إنها لامرئ القيس حنيد بن حجير الجاهلي وقيل : لامرئ القيس بن عابس الصحابي في رثاء ابن عمه أبي الأسود وائل عمرو بن مديكرب والأند : اسم موضع . . والعائر : قذى للعين . . والأرمد : المصاب بالرمم وأبو الأسود على القول الأول كنية أبيه حجير ملك بني أشد والخبر الذي جاءه هو خبر قتله .

لإيقاظ المشاعر وتنبهها لأحاسيسه ، فيقبل إلى الكلام ويصغى إليه ، وعندئذ يقع في نفسه موقعا حسنا ، ويحقق فوائده وأغراضه المرجوة .

أسلوب الحكيم : ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أسلوب الحكيم ، وقد عرفوه بقولهم : « تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو تلقى السائل بغير ما يتطلب بتزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له . . » (١) فمن الأول قول ابن القبةثرى الشيباني وكان من خرجوا على الحجاج ابن يوسف الثقفي ، فقال له الحجاج متوعداً بالقيء : « لا تحملك على الأدم » ، فقال ابن القبةثرى حاملاً كلامه على غير مراده : « مثل الأمير يحمل على الأدم والأشهب » .

فقد أبرز وعيده في معرض الوعد ، لأن الحجاج أراد بالأدم : القيء ، وابن القبةثرى أراد به : الفرس الأدم وهو الذي يغلب سواده على بياضه ، ثم عطف عليه الأشهب وهو الذي غلب بياضه على سواده ، وكأنه يريه بالعطف وجه أن من كان على صفته في السلطان وبسطة اليد بخير به أن يكرم لا أن يعذب وأن يعد فيعطى لا أن يتوعد ويهدد ، ولذا لما قال له الحجاج بعد ذلك : « إنه الحديد ، أجابه : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً ، صرف كلامه أيضاً إلى غير مراده ؛ لأن الحجاج أراد أنه قيء حديد ، فصرفه ابن القبةثرى إلى الفرس قائلاً : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً ، أي : لأن يكون الفرس ذا حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليداً قانراً . وهو بهذا ينبيه إلى أن ما ينبغي أن يفعله يجب أن يكون من جنس التذكير والإيحاء فهذا هو الأولى بمن في مثل مقامه ، واللائق بمن في مكانه وعلو منزلته وأقرأ قول الشاعر :

أنت تشتهي عندي مزاوله القرى
وقدرات الضيفان ينحوت منزلى
فقلت كأنى ما سمعت كلاما
هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

فقد جاءته تشتهى مزاوله القرى ، وذلك لكثرة ضيوفه ، فهو لا تكف
عن العمل فى إعداد الطعام لهم ، إذ كلما ذهب ضيف أقبل آخر ، وبدل أن
يجيها فيضعف عنها مزاوله القرى ، ويكف أو يقلل من ضيافته ، يطلب منها
الجد ومضاعفة الجهد : هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى . فهذا هو المهم
عنده واللائق به ، لا أن يحقق ما أرادت ويمتنع عن إكرام الضيفان . . .
تراه قد حمل كلامها على غير مراده . ووجهه إلى ما ينبغي أن يكون ، وكأنه
يخطئها فيما قالت ، ولذا سماه عبد القاهر : أسلوب المغالطة ، وسماه غيره من
البلاغيين . أسلوب الحكيم ، لأنها مغالطة حكيمة لطيفة ، حيث لم تقم على
المواجهة الصريحة المكشوفة ، بل قامت على الإخفاء واللفظ والطرافة ،
مراعاة الأدب والذوق .

انظر إلى قوله :

وقالوا : قد صدقت منا قلوب

نعم ، صدقوا ولكن عن ودادى

ونأمل : كيف يخطئهم ويكذبهم وهو يقول : صدقوا . . . إنها مغالطة
حكيمة لطيفة . . .

ومن الثانى : أى تلقى السائل بخير ما يتطلبه سؤاله ، بأن ينزل هذا السؤال
منزلة غيره تنبيهها على أنه الأولى بحاله والمهم له ، قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْأُحْزَانِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّفْسِ وَالْحَيِّ .)^(١) فقد سأله عليه الصلاة

والسلام عن الهلال وقالوا : ما باله يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزايد قليلاً حتى يمتد ويستوى ثم لا يزال ينتص حتى يعود مثل ما بدأ ؟ أى أهم سألوا عن السبب وعن العلة في تغيير منازل القمر ، فأجيبوا ببيان الحكمة والفائدة من ذلك التغيير : ، قل هو مراقبت للناس والحج ، تنبيهها على أذى الأولى بحالهم والمهم لهم . . . ومنه قوله عز وجل : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا بُعْثُوا عَلَىٰ : مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقِرَّيْنِ وَالْيَمَانِي وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . .)^(١) . فقد سألوه عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصروف للتنبيه على أنه هو المهم لهم وهو الذى ينبغى أن تنبهه إليه همهم وعنايتهم ، فليس المهم أن يكون المنفق قليلاً أو كثيراً ذمياً أو فضة مادام من جنس الخير ، ولكن المهم أن يصرف فيما ينبغى أن يصرف فيه وأن يقع في مرقعه المشروع ، والله در القائل :

إن الصنعة لا تكون صنعة

حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا صنعت صنعة فاعمد بها

لله أو لذى القرابة أودع

واقرا قوله تعالى : (قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوَاتِهِ : أَلَا تَسْتَعِيمُونَ . قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٢) . نجد أن فرعون قد سأل عن رب

(١) سورة البقرة آية ٢١٥ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٣ - ٢٦ .

العالمين يريد أن يعرف ذاته : « ما رب العالمين » أى : ما نوعه وما جنسه ، ثم سأل من حوله معجباً ومتعجباً أيسمعون ؟ ثم أكد جنون موسى - عليه السلام - وفي كل مرة يصرف موسى السؤال عن ظاهره ويحجب بما لا يتطلبه السؤال : رب السموات والأرض وما بينهما ، ربكم ورب آبائكم . . . رب المشرق والمغرب . . . وذلك لينبههم إلى أن هذا هو الملم لهم وهو الذى ينبغى أن يسألوا عنه وأن يشغلوا به .

• • •

أسلوب القلب . ومنها أسلوب القلب وهو أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر يجعله مكانه على وجه يشبه حكم كل منهما الآخر ، فليس منه التقديم فى نحو قولك : فى الدار زيد ، وضرب عمر أزيد ؛ لأنك فى مثل هذا التقديم لم تثبت حكم المقدم للمؤخر ولا العكس .

وقد قسم البلاغيون القاب إلى قسمين :

١ - قلب معنوى ، وهو أن يكون الداعى للقلب من جهة المعنى ، وذلك لتوقف صحته عليه ، ويكون اللفظ تابعاً . . . ومنه قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، إذ الأصل : عرضت الحوض على الناقة ، لأن الماروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل إلى الماروض أو يحجم عنه ، والداعى إلى هذا القلب هو أن المعتاد فى ذلك أن يؤتى بالماروض إلى الماروض عليه ، ولما كانت الناقة هى التى يؤتى بها إلى الحوض ، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطى حكمه . . . ومثله قولك : أدخلت الخاتم فى الإصبع ، والقلمسوة فى الرأس ، والثوب فى الجسم ، فالأصل أن يقال : أدخلت الإصبع فى الخاتم والرأس فى القلمسوة والجسم فى الثوب ، وذلك لأن العادة جرت أن يتحرك بالمظروف نحو الظرف ولما كان المظروف فى الأمثلة وهو الإصبع والرأس والجسم ثابتاً ، والظرف وهو الخاتم والقلمسوة والثوب متحركاً ، نزل أحدهما منزلة الآخر فأعطى حكمه . . . ومن ذلك قول ربيعة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه
إذ الأصل كان لون سمائه لغبرتها لون أرضه فقلب التشبيه لقصد المبالغة
وقول أبي تمام يصف قلم الممدوح :

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
وأزى الجنى اشتقارته أيدى عواسل^(١)

والأصل : لعابه لعاب الأفاعى وأرى الجنى ، فقلب التشبيه للمبالغة
وقول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمدح
والأصل تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فمكس مبالغة في التشبيه .

ومنه قول الآخر :

راين شيخا قد تحنى صلبه يمشى فية عس أو يكب فيعثر
والأصل : أو يعثر فينكب ، فقلب مبالغة في ضعفه ووهنه وأنه صار يعثر
حتى في أثناء انكبابه . .

٢ - قلب لفظي : وهو أن يكون الداعى إليه من جهة اللفظ ، بأن
تتوقف صحة اللفظ عليه ، ويسكون المعنى تابعا ، كما إذا وقع ما هو في موقع
المبتدأ نكرة وما هو في موقع الخبر معرفة . . ومثاله قول القطامي :
قنى قبل التفرقة يا ضباعا ولا يك موقف منك الوداع^(٢)

(١) أرى الجنى : العسل من إضافة الموصوف للصفة ، واشتارته : جنته والأيدى
العواسل : العسارفة بجنيه ، والصفة الأولى صفة القلم مع الأعضاء والشأنية صفته مع
الاصدقاء . .

(٢) الألف في : ضباعا ، اللاملاق وهو مرخم ضباعة اسم بنت للقطامي وقيل
اسم امرأة غيره . .

والقلب في قوله : ولايك موقف منك الوداع ، لأن الشاعر عرف
« الوداع » وهو في موضع الخبر ، وذكر « موقف منك » وهو في موضع
المبتدأ ، فهو قلب لفظي والأصل . ولايك موقف الوداع موقفاً منك ،
إذ لا يصح الإخبار بالمعرفة عن النكرة ولذا جعل من القلب ، ولو أن الشاعر
قال ولايك موقف منك وداعاً بتركيب « الوداع » لاستغنى عن تقدير القلب
في البيت ، لأنه عندئذ يكون الأسلوب قد جاء على الأصل من الإخبار
بالنكرة عن النكرة المعتمدة على مسوغ وهو الوصف : « منك » والضمي :
« لايك » . وهذا قد أجازته النحاة . . ومنه أيضاً قول حسان :

كان سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض من التفاح عصره اجتناء (١)

فقوله : يكون مزاجها عسل وماء قلب لفظي ، لأنه ذكر ما في موضع
المبتدأ وعرف ما في موضع الخبر ، والأصل فيهما العكس . كما عرفت . ،
ويروى البيت برفع « مزاجها » على أن اسم يكون ضمير الشأن وجملة : مزاجها
عسل وماء ، خبرها ، وعندئذ فلا قلب في البيت . .

آراء البلاغيين في أسلوب القلب : اختلف البلاغيون في أسلوب القلب ،
فبعضهم يقبله مطلقاً ، ولو أوههم خلاف المراد ، ومن هؤلاء السكاكي ،
وحجتهم أنه أسلوب يورث الكلام ملاحاة ولطفاً ، لأن قلب الكلام بما عوج
إلى التفكير والتنبه للأصل . . . ورده بعضهم مطلقاً ، واحتجوا بأن الكلام
إنما وضع لإفاد ما يصح ، والقلب يؤدي إلى ما لا يصح ، لأنه عكس المطلوب
ويرى الجمهور أن القلب لا يمكن إنكاره رده لأنه وارد على السنة العرب
وكثيراً ما يكون له اعتبارات لطيفة ومزايا حسنة ، كما أنه لا يمكن قبوله

(١) السبيئة : الخمر المشتراة للشراب ، وبيت رأس بلد بالشام بين ربيعة وغزة ،
والغض : الطرى ؛ وقوله : عصره يه في أسأله كناية عن إدراكه وقت فضجه ، شبه
ريق عذوبته بخمر مزجت بعسل أو بسائل النعناع . .

مطلقاً ، لأنه قد يورهم خلاف المراد ، وقد يرد ولا يكون وراه اعتبار لطيف
ولذا فهم يقبلون منه ما تضمن اعتباراً لطيفاً زائداً على مجرد الملاحظة ، كما رأيت
في الأمثلة والشواهد المتقدمة . ويردون ما لا يتضمن اعتباراً لطيفاً ، لأنه
عندئذ يكون عكساً للمراد وعدواً عن الظاهر بلا فائدة يعتمد بها ... فن ذلك
القلب المرود قول القطامي بصف ناقته :

فلما أن جرى سمن عليها كما طيئت بالفدن السيام
أمرت بها الرجال ليأخذوها ونحن نظن أن لن تستطاعاً^(١)

يريد : أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسيام ، وفي ذلك قلب
معقوف ، إذ الأصل : كما طيئت الفدن بالسيام ، فإن حمل السيام على الآلة التي
يطين بها ، فليس وراه القلب عندئذ اعتبار لطيف ، وإن حمل على الطين فيجوز
أن يكون المقصود المبالغة في سمنها لأنه يقصد عندئذ تشبيه السمن بالسيام
الذي صار لكثرة كآنه الأصل ، والقدن هو الفرع فكذلك السمن قد صار
ضخماً عظيماً ، ولكن هذا لا يخلو من تكلف كما ترى . . ومنه قول قطري
ابن الفجاءة :

لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحام
فلقد أراني للرماح دريشة من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر من دمي أكفاف سرجي أو عنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصرة قارح الإقدام^(٢)

(١) لادن : القصر والسيام : الطين المخلوط بالطين ، أو الآلة التي يطين بها ،
يعني أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسيام ، وقوله : أن لن تستطاع
معناه : أن يقدر عليها أحد الاستمتاعاً وضخامتها .

(٢) الإحجام : التأخر . والوغى : الحرب . والحام : الموت . والدريشة : حذوة
بتمل عليها الطمن شبه نفسه بها وهي من الدرع بمعنى الدرع . وأكفاف السرج : جرابه =

ونشاهد في البيت الأخير ، إذ الجذع يطلق على حديث السن غير المجرب
للأموور ، فالأصل أن يقال : جذع الإقدام قارح البصيرة ، لأنه يفخر بنفسه
ويتمدح ، وهذا لا يتأتى إلا على القلب ، إذ يقال في المدح : إقدام غر ورأى
مجرّب ، ، وبناء على ذلك فالقلب لم يتضمن معنى اهتيفاً ، بل أوهم خلاف
المراد ، وقد أجيب عنه بأنه لا قلب في البيت بل المعنى يحتمل أحد أمرين .
أولهما : أن قوله : لم أصب ، بمعنى : لم أوجد ، وليست بمعنى : لم أجرح ،
بدليل البيت قبله ، فإن الخضاب بما تحدر من دمه يدل على أنه جرح ، وأيضاً
لخوى كلامه يفى بأنه جرح ولم يمت ، إذ يعلن أن الإقدام غير علة للحمام
ويحث على الشجاعة وينفر من الفرار والإحجام ، فعنى البيت الأخير : ثم
انصرفت وقد أصبت من الأعداء ولم أوجد جذع البصيرة قارح الإقدام بل
وجدت : قارح البصيرة جذع الإقدام ، وثانيهما : أنه يريد أن يشبه بصيرته
بالجذع في عدم الاختلاط والتزلزل من الهول ، وأن يشبه إقدامه بالقارح
في الصبر والاحتمال ولا يخفى عليك أن الإجابة الأولى أقوى وأقرب لأنها
تتفق مع سياق الآيات ، وعلى كلتا الإجابتين فلا قلب في البيت كما هو واضح .

ومن القلب المرود قول عروة بن الورد :

فلو أني شهدت أبا سعاد غداة فدا لمهجته ينفوق
فديت بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيع^(١)

فالأصل : فديت نفسه بنفسى ومالى ، وليس وراء هذا القلب اعتبار لطيف ،
لأنه يوم خلاف المراد . . ومنه قول خدّاش :

والعنان سير الاجسام . وجذع البصيرة بمعنى غير مجرب للأموور وقارح الإقدام بمعنى إقدام
أصعاب السن القديمة .

(١) يقال : فاق بمهجته ولمهجته يدوق : إذا أشرفت نفسه على الخروج أو خرجت .
وما آلوك بمعنى : لم أقصر فيك .

وتلحق خيل لا هواة بينهما . وتشق الرماح بالضياطرة الحر (١)

فالأصل : وتشق الضياطرة الحر بالرماح فهو قلب معنوى لا تجد وراءه اعتباراً لطيفا ، وقد ذكر له سوى القلب وجهان : أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم استعارة لكسرهما وتحطيمهما بطعنهم بها والثاني أن يجعل نفس طعنهم شقاء للرماح ، تحقيرا لشأن الضياطرة وأنهم لبسوا أهلا لأن يطعنوا بها كما يقال : شق الخبز بجسم فلان ، إذا لم يكن أهلا للبسه . . ومنه قول حسان السابق :

كان سبيته من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

وقول القطامي وقد سبق أيضا :

فني قبل التفرق يا ضياعا ولا يلك موقف منك الوداعا

وقد وقفت على ما في البيت من قلب لفظي ليس وراءه اعتبار بلاغي .
وتبين لك أن بيت حسان يمكن حمله على غير القلب .

هل يوجد أسلوب القلب في النظم الكريم : أجاب بعض البلاغيين بنعم وزعموا أن منه قوله تعالى : (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَعَبَاهَا بِأَسْمَاءِ سَيَّئَاتٍ أَوْ هُمْ تَقَابَلُونَ) (٢) ، على أن الأصل : جاءها بأسماء فأهلكناها . وقوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) (٣) ، والأصل ثم تدلى فدنا ، وقوله تعالى : (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْنِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) (٤) ، والأصل : فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم ، ومنع ذلك

-
- (١) الهواة : الذين والمعنى : لا بين بين أصحابها . وللاضياطرة جمع ضياطر وهو اللعظم الأشيم للعظيم الإست . والحر : جمع أحر اللون وقيل هو الذي لا سلاح معه .
(٢) سورة الأعراف آية ٤ .
(٣) سورة النجم آية ٨ .
(٤) سورة المل آية ٢٨ .

الجمهور ، لأنه لا يوجد وراء تقدير القلب في الآيات السكريمة اعتبار لطيف ، ولذا رأوا أن الأصل في الآيات : وكم من قرية أردنا لإهلاكها فجاءها بأسنا . ثم أراد الدنو من محمد - صلى الله عليه وسلم - فتدلى أى : فتملق عليه في الهواء . ثم تدلى عنهم أى : تنزع إلى مكان قريب تتوارى فيه أيكون ما يقولونه بسمع منك ، فانظر ماذا يرجعون ، فيقال : إنه دخل عليها من كوة فالتى الكتاب إليها وتوارى في الكوة لسمع ما يقولون . .

أسلوب التغليب : ومنها التغليب وقد عرفوه بقولهم : هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجملة موافق له في الهيئة أو المادة ، كما في قوله تعالى : (وَصَدَقْتُ بِكِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)^(١) . فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وكانت من القانتات ، ولكن النظم الكريم عدل عن ذلك فعد الاتى من الذكور بحكم التغليب ، وفيه إشعار بأنها قد بلغت في طاعتها مبلغ أولئك الرجال فعدت منهم .. ومنه قوله تعالى : (أَلَمْ تُخَوِّجْكُمْ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكُمْ مِنْ قَوْمٍ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا فِي مَلَأْنَا)^(٢) فقد أدخل شعيب - عليه السلام - في قوله : . لتعودن ، بحكم التغليب ، لأنه لم يكن في ملتهم أصلا حتى يقال : إنه يعود فيها ، وإنما غلب عليه الذين آمنوا معه فعد منهم وكان مقتضى الظاهر أن يقال : أو ايعودن . . ومثله قوله جل وعلا : (إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَاكَ اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا)^(٣) ، ومنه قوله تعالى : (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ)^(٤) فقد عد لإبليس من الملائكة بحكم التغليب .. وقوله عز وجل : (جَمَلْنَاكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا

(٢) - سورة الأعراف الآية ٨٨

(١) سورة النحر الآية ١٢

(٤) - سورة البقرة الآية ٢٤

(٣) - سورة الأعراف الآية ٨٩

وَمِنَ الْإِنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ : يُبَشِّرُكُمْ وَيُكَثِّرُكُمْ فِي هَذَا التَّيْدِيرِ وَهُوَ أَنْ جَعَلَ
 لِلنَّاسِ وَالْإِنْعَامِ أَزْوَاجًا حَتَّى كَانَ بَيْنَ الذَّكَورِ وَالْإُنَاثِ التَّوَالِدُ وَالتَّيْلَادُ ،
 وَقَدْ جَعَلَ هَذَا التَّيْدِيرَ كَالْمَنْبِيعِ وَالْمَعْدِنِ لِلْبَيْتِ وَالتَّكْثِيرِ ، وَلِذَا عُبِّرَ بِالْحَرْفِ
 دِي ، دَرْنِ دِ الْبَاءِ ، فَقِيلَ : يَذُرُّوكُمْ فِيهِ ، وَلَمْ يَقُلْ : بِهِ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى
 (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)^(٢) ، حَيْثُ جَعَلَ الْقِصَاصُ كَالْمَنْبِيعِ وَالْأَصْلَ
 لِلْحَيَاةِ . . وَالتَّغْلِبُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَغْلِبُ الْعُقُلَاءِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْإِنْعَامِ
 الْغَائِبَةِ ، وَكَانَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقَالَ : يَذُرُّوكُمْ وَيَذُرُّوَهَا فِيهِ . .

وَمِنْ تَغْلِبِ أَحَدِ الْمُتَشَابِهِينَ عَلَى الْآخَرِ قَوْلَانَا الْإِبْرَارِ اللَّبِّ وَالْأَمِّ وَالْقَمَرَانِ
 لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَالْعِمْرَانِ لِعَمْرِ وَنَهْرِهِ . . وَمِنْ التَّغْلِبِ أَيْضًا خِطَابُ
 الْوَاحِدِ خِطَابَ الْإِثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ ، وَخِطَابُ الْمُثْنَى مَخَاطَبَةُ الْجَمْعِ ، حَيْثُ يَفْعَلُ
 الْمُثْنَى عَلَى الْمَفْرَدِ وَالْجَمْعُ عَلَى الْمَفْرَدِ وَالْجَمْعُ عَلَى الْمُثْنَى . . وَهَكَذَا . . مِنْ ذَلِكَ
 قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَالُوا : أَجِئْتَنَا لْتَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ
 لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)^(٣) فَكَانَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقَالَ : وَتَكُونَ
 لَكِ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ، فَعُدِلَ عَنْ هَذَا إِلَى قَوْلِهِ : وَلَكُمَا ، تَغْلِيظًا لِلْمُثْنَى
 عَلَى الْمَفْرَدِ ، وَالْمُرَادُ بِالْمُثْنَى : مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - . . وَمِنْهُ قَوْلُهُ
 تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَاقُوهُنَّ لِيَدِّيَنَّ وَأَحْضُوا
 إِلَهُدَّ)^(٤) . . حَيْثُ غَلَبَ الْجَمْعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَكَانَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقَالَ :
 وَإِذَا طَلَّقْتَ النِّسَاءَ فَطَلِّقْنِ ، فَعُدِلَ إِلَى الْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهُ حَكْمٌ عَامٌّ وَتَشْرِيعٌ لِلْأُمَّةِ
 وَلَيْسَ خَاصًّا بِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى
 مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

(٢) - سورة البقرة آية ١٧٨

(١) - سورة الشورى آية ١١

(٤) - سورة الطلاق الآية ١

(٣) - سورة يونس آية ٧٨

قَبْلَةَ^(١) فكان مقتضى الظاهر أن يقال : واجعلوا بيوتكم قبلة ، فعدل عن ذلك إلى قوله جل وعلا : واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة ، تغليباً للجميع على المثني ، لأن الأمر لم يعد خاصاً بموسى وهارون ، بل تجاوزهما إلى كل مكلف بلغ بالرسالة .

المخالفة في صيغ الأفعال : ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر المخالفة في صيغ الأفعال بأن يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي أو بامم الفاعل أو المفعول ، وعن الماضي بلفظ المضارع ، وعن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر . وذلك لا يكون إلا لأغراض بلاغية ومزايا يقتضيها المقام ويهدف إليها البلاغي . . انظر إلى قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنْفَخُونَ)^(٢) تجد التعبير عن المضارع بلفظ الماضي في الآية الكريمة لسر بلاغي ، وهو إفادة تحقق الوقوع ، وأن ما هو للواقع في المستقبل وهو النفخ في الصور وصعوق من في السموات والأرض كالواقع الآن ؛ لأنه واقع لا محالة . . ومثله قوله عز وجل : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرْجَعُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ)^(٣) قيل : د فترجع ، ود أتوه ، والمراد : فيفزع ويأتونه ، إذ الحدث لم يقع بعد ، ولا يمكن عبر عنه بالماضي إشارة إلى تحقق وقوعه ، فهو واقع لا محالة . .

وكذا القول في الآيات الكريمة : (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ يُنَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)^(٤) . . (أتى أمر الله

(٢) سورة الزمر الآية ٦٨
(٤) سورة الكهف الآية ٢٧

(١) سورة يونس الآية ٨٧ .
(٣) سورة النمل الآية ٨٧

فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (١) ... (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَنْرَافِ رِجَالًا) (٢)
 فالتعبير بالماضي عن الأحداث المشار إليها جعل المتوقع الذي لابد من وقوعه
 في المستقبل بمنزلة الواقع المحقق ، وهكذا عندما تقرأ أساليب القرآن الكريم
 تجد لهذا التعبير مذاقا حلوا ووقعا حسنا ، اقرأ قوله تعالى : (وَأَزَلَّتْ
 الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ • وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ • وَقِيلَ لَهُمْ أَأَنْتُمْ كُفْتُمْ
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُتِبَ فِيهَا فِيهَا
 هُمْ وَالْغَاوُونَ • وَجَبُودُ الْإِبْلِيسَ أَتَجْمَعُونَ • قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ •
 تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣) ونأمل الأفعال ، أزلفت .. برزت ..
 قيل .. ككبوا .. قالوا ، وكيف قربت الجنة للمتقين وهم ما زالوا أحياء
 في الدنيا ، وكيف برزت الجحيم ، وقيل للغاوين ما قيل تبكيتا ، بل كيف
 قالوا هم : تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، وهم لا يزالون يعاندون في الدنيا
 ويكابرون .. وقرأ قوله : (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُتِبَتْ لَهُمْ نَفْسُهُمْ
 فِي النَّارِ) (٤) ... وقوله تعالى : (وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
 الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) (٥) ، وقوله عز
 من قائل : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ •
 وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ • وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ
 وَشَهِيدٌ • لَقَدْ كُنْتَ فِي ذَنْبٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
 الْيَوْمَ حَدِيدٌ • وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ (٦) ونأمل كيف طويت
 الأحداث في الآيات وأبرزت تلك الأفعال بحقيقة واقعه ويرجع ذلك إلى

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٨ -

(٤) سورة النمل آية ٩٠

(٦) سورة ق آية ١٩ - ٢٣ .

(١) سورة النحل الآية ١

(٣) سورة الشعراء آية ٩٠ - ٩٧

(٥) سورة الزمر آية ٦٩

التعبير عنها بلفظ الماضي كما ترى . . ومثل ذلك التعبير عن المضارع باسم
الفاعل كقوله تعالى: (وَأَنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) ^(١) أو باسم المفعول كقوله عز وجل:
(ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) ^(٢)، فقد عبر في الآيتين
عما سيوقع لا بحالة باسم الفاعل واسم المفعول فأقاد ذلك تحقق وقوعه ؛ لأن
اسم الفاعل وكذلك اسم المفعول حقيقة في المتلبس بالفعل في الحال اتفاقاً وفي
الماضي على قول ضعيف ، فالتعبير بهما عن الواقع في المستقبل يفيد تحقق
وقوعه ، وأنه لا محالة واقع . . .

ومن التعبير عن الماضي بلفظ المضارع قوله تعالى : (وَٱللَّهُ ٱلَّذِى
أَرْسَلَ الرِّسَالَاتِ بِٱلَّذِينَ نَزَّلَ ٱلْكِتَآبَ ٱلَّذِينَ نَزَّلَ ٱلْكِتَآبَ ٱلَّذِينَ نَزَّلَ ٱلْكِتَآبَ ٱلَّذِينَ نَزَّلَ ٱلْكِتَآبَ) ^(٣) فقد عبر عن الماضي
بلفظ المضارع في قوله : د فتشير سبحانه ، استحضاراً لصورته العجيبة البديعة
الدالة على القدرة الباهرة ، وكأنها واقعة أمامك وأنت تشاهدها الآن وتأملها
وتبصر ما فيها من عجب وخرابة فيكون تأثيرها أشد ووقعها أقوى . . ومثله
قوله تعالى : (وَٱتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِهِ سُلَٰمَتَانِ) ^(٤) أى :
ما نزلت فعبير بالمضارع استحضاراً لصورته العجيبة . . وكذا القول في الآيات
السكرية : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ) ^(٥) . .
(وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَسَكَنَ ٱلْأَعْدَىٰ خَرٌّ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَنَخْطَفُ ٱلنَّجَافِ أَوْ تَهْوِىٰ بِرِ
ٱلرَّيْحِ فِي مَسَٰكِنٍ سَحَابٍ) ^(٦) . . . (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ
خَلَقَهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ^(٧) وقد مررت بك هذه الآيات

(٢) سورة هود آية ٣٠

(٤) سورة البقرة آية ١٠٢

(٦) سورة الحج آية ١٧

(١) سورة الذاريات آية ٦

(٣) سورة فاطر آية ٩

(٥) سورة السجدة آية ١٢

(٧) سورة آل عمران آية ٥٩

عند الحديث عن ، لو ، كما مر بك أيضا التعبير بالمضارع عن الماضي في قول
أطشرا وزعمه أنه قد قتل الغول عندما تعرضت له في القفلة :

فشدت شدة نحوى فأهوت لها كفى بمصقول يمان
فأضر بها بلادهمش نثرت صريعا للدين وللجيران (١)

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فكأنما خر من السماء فطافته الطير
أوهوت به الريح ... ثم قال له كن فمكان ... فأهوت لها كفى فضر بها .
ولكن عدل عن هذا المقتضى إلى التعبير بالمضارع لإبراز تلك الأحداث
وإحضارها ماثلة أمامك مشاهدة بناظريك ؛ لأنها أحداث هجبية غريبة ..
تخيل المشرق وقد خر من السماء والطير تحطفه أو الريح تهوى به إلى مكان
محبب .. وتمثل أمامك القدرة الإلهية ؛ دكن فيكون ، وتصور تأبط شرا
يصارع الغول ويضر بها فتخر صريعا ويريح الإنسانية من شرها ومن شر
الإخافة بها .. ثم تأمل قوله عز وجل : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي
الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِمُ الْقَوْمُ الْقَوْمَ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ، فَفَتَنَّاكَهَا
سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) (٢) حيث لم يعبر بالماضي فيقال : داذ حكا في الحرث ،
ولا باسم الفاعل فيقال : د مسبحات ، حسب مقتضى الظاهر ، ولكن عدل
عنه إلى المضارع لإبراز وإحضاراً لصورة الحدثين وهما يقرعان وكان القاريء
يشاهدهما يحدثان أمامه .. ومثل التعبير بالمضارع عن الماضي استحضارا
ولإبراز الصورته العجيبة ، التعبير به عن اسم الفاعل أو اسم المفعول كما في
الآية السابقة وكما في قوله تعالى : (إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالتَّحِيَّ
وَالِإِشْرَاقِ) (٣) ، فمقتضى الظاهر أن يقال : د مسبحات ، ؛ لأن التسبيح قد

(١) ارجع إلى ص ٢٢٤ من هذا الكتاب

(٣) سورة ص آية ١٨

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٨ ، ٧٩

وقع في زمن داود عليه السلام ، ولكن النظم الكريم خالف هذا الظاهر وعبر بالمضارع : ، يسبحن ، ليحضر الحدث من الماضي البعيد وببرزه في مقام المشاهدة وكأنك تنظر إلى هذا الحدث العجيب واقعاً أمامك ، وذلك لأن تسبيح الجبال وتأويلها مع داود من الأحداث العجيبة الدالة على قدرة الله عز وجل . . ومثله قوله تعالى : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ رُحَاءِ حَيْثُ أَصَابَ)^(١) ، وقوله عز وجل : (وَلِئَلَّيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ)^(٢) . فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فسخرنا له الريح جارية بأمره . . وليس الجان الريح عاصفة جارية بأمره . . ولكن عدل عن هذا الظاهر فعبّر بالمضارع لإحضار تلك الصورة العجيبة الدالة على القدرة الإلهية وكأنك حين تقرأ الآيات تشاهد الريح تجري بأمر سليمان عليه السلام ، وتعمل صورة جرياتها بقدرة الله تعالى وتسخير الله لها ما لا علمه السلام .

وقد يعبر بفعل الأمر عن الماضي أو المضارع كما في قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)^(٣) إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال : أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم ودعوته مخلصين . . فعدل عن هذا الظاهر إلى الأمر : وأقيموا . . وادعوه ، للدلالة على مزيد العناية بالمأمور به ، وإفادة أن السامع ينبغي أن يلتفت إليه ، وأن يؤمر به ، وينبه إلى عظمه وأهميته . . وتأمل قوله تعالى : (قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)^(٤) نجد أن مقتضى

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨١

(١) سورة ص الآية ٣٩

(٤) سورة هود الآية ٥٣ ، ٥٤

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٩

الظاهر أن يقال : أشهد الله وأشهدكم فعديل عن ذلك إلى الأمر : دوا شهدوا به
لمغزى بلاغى جليل وهو أن في أمرهم أن يشهدوا ببراءته من دينهم ضرباً من
التحدى الذى بنىء بحقارة ما يعبدون ... وفيه أيضاً دلالة على أن إلهاد
الله على البرادة من الشرك لإشهاد صحيح ثابت ، وأما إلهادهم فما هو إلا تهاون
بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم لحسب ، ولذا عدل به عن لفظ الأول
لاختلاف ما بينهما ...

هذا وبعض البلاغين كالعلوى صاحب الطراز وأبن الأثير صاحب المثل
السائر ، يجعل مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال من باب الالتفات الذى
مر بك ، كما يجعلون منه أيضاً مخاطبة الواحد خطاب المثنى أو الجمع ومخاطبة
المثنى خطاب الجمع أو الواحد ونحو ذلك مما يخرج فيه الكلام عن مقتضى
الظاهر ، إذ يزون أن الالتفات هو العدول عن أسلوب فى الكلام إلى أسلوب
آخر مخالف للأول ، ويقولون إن هذا أحسن من قصره على العدول من
غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة ، أى : من قصره على الانتقال من
إحدى طرق الكلام إلى الأخرى ، كما مر بك ..

وأيا ما كان الأمر فلا نرى لمثل هذا الخلاف فائدة ، لأن المهم هو أن تعرف
هذه الصور التى خالفت مقتضى الظاهر ، وتقف على ما وراءها من مزايا
وأسرار بلاغية ، أما كونها من الالتفات أو جعلها صوراً مستقلة عنه ، فإن
ذلك لن يفيد الدارس شيئاً ، ولذا ضربنا صفحاً عن مناقشة مثل هذه
الخلافات ..

- ٢٩٨ -

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من كتاب : علم المعاني دراسة بلاغية
ونقدية لمسائل المعاني ، ، ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثاني وأوله أسلوب
القصص . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصل اللهم على رسولنا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

في ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٧ هـ
عقيدة - القصيم
الؤلف
د/ بسبوني عبد الفتاح

محتويات الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
تمهيد : اللفظ والمعنى والنظم ، مفهوم الفصاحة والبلاغة ، علم المعاني ومباحثه ، الفرق بين الخبر والإنشاء	٥ - ٢٤
الفصل الأول : أحوال الإسناد الخبري :	٢٥ - ٩٣
معنى الإسناد ، أغراض الخبر ، وجه دلالة الخبر على أغراضه ،	
أضرب الخبر ، إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ،	
حال المخاطب ليست هي المفعول عليه دائماً في إلقاء الخبر	٣٥ - ٤٥
التجور في الإسناد ، نوعا الإسناد ، لمحة تاريخية عن المجاز	
العقلي ، خطأ من يرى أن عبد القاهر مبتكر المجاز العقلي ،	
تسميات المجاز العقلي ، الحقيقة العقلية وأنواعها ، مقارنة بين	
تعريف الخطيب وعبد القاهر للحقيقة العقلية	٥٥ - ٦٣
تعريف الخطيب للمجاز العقلي ، علاقات المجاز العقلي ،	
كيفية استنتاجها ، إسناد المبنى للفاعل إلى المفعول ، إسناد المبنى	
للمفعول إلى الفاعل ، إسناد المبنى للفاعل إلى مصدره ، إلى	
الزمان ، إلى المكان ، إلى السبب ، إلى الجنس ، إلى الجارحة ،	
إلى ماله من بد اختصاص بالفاعل الحقيقية ، النسبة الإضافية ،	
النسبة الإيقاعية ، النسبة الوصفية ، الإسناد بين المبتدأ والخبر ،	
مقارنة بين تعريف الخطيب وعبد القاهر للمجاز العقلي	٦٣ - ٧٦
قرينة المجاز العقلي ، الفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي ،	
صور المجاز العقلي ، استلزام المجاز العقلي الحقيقة العقلية ، إنكار	
المجاز العقلي ، بلاغة المجاز العقلي ودقة مساهمة	٧٦ - ٩٣

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : أحوال المسند إليه	٩٤ - ١٧٢
حذف المسند إليه : شروط الحذف ، مزاياه ، الحذف وتقدير المحذوف ، مزايا عامة وراء كل حذف ، عبد القاهر يكشف عن دقائق وراء حذف المبتدأ ، ضيق المقام ، تعيين المسند للمسند إليه ، اتباع الاستعمال الوارد ، بناء الفعل على للمجهول وما يمكن وراء حذف الفاعل عندئذ من أسرار ، الحذف لظهور المسند إليه ، لعدم الاعتداد به ، لتعجيل المسرة ، لتأتي الإنكار عند الحاجة ، لتحقيقه وصون اللسان عنه ، لتعظيمه وصونه عن اللسان	٩٤ - ١٠٦
ذكر المسند إليه : زيادة التقرير والإيضاح ، الرغبة في امتداد الكلام ، التلذذ بتردده والنطق به ، التسجيل على المخاطب ، ضعف التحويل على القرينة ، التنبيه على غيباء السامع ، إظهار تعظيمه أو إهانته	١٠٦ - ١١٠
تعريف المسند إليه : الأسرار الكامنة وراء التعريف بالاضمائر ، أغراض التعريف بالعلية ، أغراض التعريف بالموصولية ، أغراض التعريف باسم الإشارة ، بالالف واللام ، بالإضافة	١١٠ - ١٣٦
تكثير المسند إليه : تمحض النكرة للدلالة على العدد أو النوعية ، القصد إلى أن النكرة فرد غير معين من أفراد حقيقة شئ ، القصد إلى التعظيم ، التحقيق ، التكثير ، التقابل ، الدلالة على النوعية المتميزة ، كراهة أن ينسب الفعل إلى المسند إليه معرفا	١٣٦ - ١٤٣
توابع المسند إليه : الوصف ومزاياه البلاغية ، التوكيد وأغراضه ، أغراض عطف البيان ، أغراض المدل ، مزايا عطف النسق ، تعقيب المسند إليه بضمير الفصل	١٤٤ - ١٥٤

- الموضوع الصفحة
- تقديم المسند إليه : إِبْلَاء المسند إليه أداة النفي ، تقديم المسند إليه على أداة النفي ، تقديمه في الإثبات ، تقديم النكرة ، تقديم مثل وغير ، تقديم الفاظ العموم
- ١٧٢-١٥٤
- ٢٢٥-١٧٣ الفصل الثالث : أحوال المستند
- أغراض حذفه : مزايَا عامة في كل حذف ، الحذف لضيق المقام ، للتعظيم ، للتحقير ، اتباعا للاستعمال الوارد ، التأكيد والاختصاص ، تكثير المعنى ، حذف المسند والمسند إليه معا ، ما ينبغي مراعاته عند تقدير المحذوف ، قرائن الحذف
- ١٨٩-١٧٣
- أغراض ذكره : التعريف بغيابة السامع ، ضعف التعرّيل على القرينة ، تعيينه فعلا أو اسما ، زيادة التقرير والإيضاح
- ١٩١-١٨٩
- لإفراد المسند ، لإبراده جملة ، لإبراده فعلا أو اسما ، الجملة الاسمية والفعلية ، الفرق بينهما ، شواهد متنوعة
- ١٩٧-١٩١
- تفسير المسند وتعريفه : إرادة الاختصاص أو العهد وعدم إرادتهما ، إفادة التعظيم ، إفادة التحقير ، التعريف بالموصولية ، تقييد المسند المعروف وأثر ذلك التقييد ، إفادة التقرير وإيضاح الحكم ، الدلالة على بلوغ المسند إليه مبلغ الكمال في الاتصاف بالمسند
- ٢٠٢-١٩٧
- ٢٠٣-٢٠٢ تفهيم المسند بالوصف أو الإضافة
- المزايَا البلاغية الكامنة وراء تقديم المسند : إفادة القصر ، التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعمت ، التشويق لذكر المسند ، إفادة التفاؤل ، إظهار التألم والتضجر
- ٢٠٦-٢٠٣
- تقييد الفعل بأدوات الشرط إن وإذا ولو : استخدام «إن» في موضع «إذا» و«إذا» في موضع «إن» ، دخولها على الأمور المجزوم باتفاقها ، مجيء الماضي لفظا مع «إن» ، استعمال

الموضوع	الصفحة
«لو»، العذرل عن الماضي بعدها ، بجىء «إن»، و«إذا»، لمجرد الربط	٢٢٥-٢٠٦
الفصل الرابع : أحوال متعلقات الفعل	٢٢٦-٢٩٨
تقديم الفعل بالمفعول ونحوه، المزايا البلاغية لحذف المفعول، تقديم المفعولات على الفعل أو ما فى معناه تقديم بعض المفعولات على بعض	٢٢٦-٢٥٩
خروج الكلام عن مقتضى الظاهر : وضع المظهر موضع المضمر ، وضع المضمر موضع المظهر ، أسلوب الالتفات ، معناه ، لحة تاريخية ، آراء البلاغيين فى تحديد مفهومه ، صورته ومن إياه البلاغة	٢٥٩-٢٨١
أسلوب الحكيم : معناه ، وجة تسميته ، صورته ، مزاياه	٢٨١-٢٨٤
أسلوب القلب : معناه ، أقسامه ، آراء البلاغيين فى قبول أسلوب القلب أورده ، هل يوجد هذا الأسلوب فى النظم الكرىم	٢٨٤-٢٩٠
أسلوب التغليب : معناه ، مزاياه البلاغية ، أنواعه ، خطاب الواحد خطاب المثنى والمثنى خطاب الجمع تغليبا	٢٩٠-٢٩٢
المخالفة فى صيغ الأفعال : التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وباسم الفاعل أو المفعول ، التعبير عن الماضى بلفظ المضارع	٢٩٢-٢٩٨
التعبير بفعل الأمر عن الماضى والمضارع والمصدر	٢٩٨-٢٩٢
محتويات السكتاب	٢٩٩-٢٠٢

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	الخطأ	صوابه
١٣	١٧	الصرف	الصرفي
٢٦	١٥	بحلمها	بحلمها
٣٧	١	إعلام بعد المؤمنين	إعلام المؤمنين
٣٨	٢	أعر	أعر
٣٩	١٠	قيل	قبيل
٤٧	١٧	يحوحه	يحوحه
٥٤	٧	رَبِّكَ	رَبِّكَ
٦١	١	أوفي معناه	أوفي معناه
٦٣	١٤	فلان	فلان
٦٣	١٦	أنه	أنه
٨٩	١٩	يتوف	يتوقف
٢٥٠	١٩	والشت	والشتم
٢٥٧	١٥	(١)	(٢)
٢٥٧	١٨	(٢)	(٣)
٢٥٧	١٩	بقتص	بقتص
٢٧٣	٨	الكاب	الكتاب

رقم الايداع ٨٧/٧٤٦٨

